

L A W S O F J A R T I N

صاحب ثنائية أرض زيكولا

عمرو عبد الحميد

قواعد جارتين

رواية





الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

فوائد چارشينا

رواية

عمرو عبد الحميد



إهداء

إلى مَنْ تعلَّمْتُ منه الكثير على المستويين الإنساني والمهني

أستاذي:

أ.د/ محمد رشاد غنيم

(1)

كل رجل ينهار عند نقطة معينة..

كانت هذه هي جملتي الأخيرة التي كتبتها بأوراقى قبل أن يُطلق
القطار صافرنه ويعلو صخب حركته مُعلنًا رحيلي عن بلدي.

اسمي فاضل أمين زيدان، طبيب بشري، تخرجت قبل ثلاث
سنوات من الجامعة الجنوبية، جنوب بلاد النهر القديم، شاب ريفي
طموح في بلاد غير طموحة بالمرّة، يقول التاريخ أنها كانت خير ذلك
قبل قرون طويلة لكنها اليوم ليست إلا مزيجًا من الفقر والجهل
والخراب .. تقدمتُ بأوراقى للعمل بأكثر من مستشفى أو دعني أقل
خراشب المستشفيات، ولم يتم قبولي، كمادة باقي الوظائف لا تستطيع
البلاد دفع مقابل لعاملين جدد، ولأن الناس لا يستطيعون العلاج على
نفقاتهم صار الفشل مصير كل مشاريعي الطبية الخاصة ولم يعد إلا
الرحيل .. إلى أين ؟

لم أكن أعرف إلى أين، قبل ذلك اليوم حين جاءني صديقي وأخبرني أن بلادنا تريد إرسال أطباء إلى إقليم غربي بعيد لم أسمع عنه من قبل يُسمى «بنو عيسى»، ومع الضائقة المادية التي حلت بي كانت تلك الوظيفة البعيدة طوقى للنجاة وإن كان مؤقتاً ..

قدمتُ أوراقي، وبالفعل تم قبولي بين المتقدمين، في الحقيقة لم يكن هناك متقدمون للوظيفة غيري، ولم يستلزم قبولي أكثر من دقائق قليلة، أخبرني ذلك الأشيب الذي كان يحاورني أنني قبلت وأنه عليّ اللحاق بالقطار الحربي الذي يشق الصحراء الغربية للنهر القديم، من يعملون به يعلمون جيداً الطريق إلى ذلك الإقليم .. وفور وصولي هناك سألتني من سيتدبر أموري المادية .. لأجد نفسي أجلس بأرضية عربية قطار شبه مظلمة يهتز جسدي بين كثيرين من الجنود نحيلي الأجساد محمري الوجوه والأذرع، في انتظار إشارة أحدهم لي باقتراب القطار من مكان عملي الجديد.

كانت عيناى قد غلبهما النعاس مع سكون العربدة واختناق هوائها برائحة جوارب الجنود قبل أن يلكزني أحدهم يحمل مصباحاً زيتياً لأنهم، ويسألني أن أحمل حقبيتي وأتبعه إلى باب العربدة .. ما كنت أخشاه قد حدث بالفعل، لقد تزامن موعد وصولي إلى ذلك المكان الغريب مع منتصف الليل .. حاولت أن أتحدث إلى الجندي فأشار إليّ كي أصمت، وأشار بسبابته إلى أذنه كأنه يفصت إلى شيء ما،

وطالبني أن أنصت أنا الآخر، كان صدى صوت بعيد لطبول تدق
ومزامير يأتي من خلف الجبال على جانبي السكة الحديدية .. كان
يزداد شيئاً فشيئاً مع تقدم القطار .. ثم همس إليّ بعدما أدرك أنني
سمعت الصوت ذاته:

- يقولون أن أفراحهم لا تتوقف أبداً ..

فأومأت إليه برأسي إيجاباً وعيناي تقولان ماذا أفعل ؟

فقال:

- سيضطر القطار إلى الإبطاء بعد قليل ..

سألته:

- لن يتوقف ؟

قال :

- لا .. عليك أن تقفز حين أخبرك ..

فتظرت إليه في دهشة مما يقول، فأكمل في برود :

- ليس هنالك حل آخر ..

ولم تمضِ بضع دقائق حتى أصدرت عجلات القطار صريراً شديداً
وأبطأ من سرعته، فطلق الجندي إليّ بلهجة أمرية:

- انقرا

فَجَمَدُ جَسَدِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَتَزَعُ الْحَقِيْبَةُ مِنْ بَدِي وَأَلْقَاهَا
خَارِجَ الْقَطَارِ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِبَدِي وَأَعْطَانِي الْمَصْبَاحَ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَصَرَخَ
فِي مَجْدَدًا :

- أَقْفِزْ!

فَقْفِزْتُ.



دَقَائِقُ مِنَ الْفَلَقِ لَمْ أَمُرْ بِمِثْلِهَا فِي حَيَاتِي بَعْدَمَا غَادَرْتُ الْقَطَارَ
وَلَمْ أَجِدْ نَفْسِي إِلَّا وَحِيدًا يَحْمِلُ حَقِيْبَةً وَمَصْبَاحًا قَدْ تَنْطَفَأُ نَارُهُ فِي
أَيِّ وَقْتٍ، كَانَ الْمَطْمَئِنُّ لِي قَلِيلًا هُوَ اسْتِمْرَارُ أَصْوَاتِ دَقَاتِ الطَّبُولِ
وَالْمَزَامِيرِ مِمَّا يَعْنِي وَجُودَ بَشَرٍ قَرِيبَيْنِ، وَوُجُودَ تِلْكَ السَّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ
وَاضْطِرَارِ الْقَطَارَاتِ إِلَى الْإِبْطَاءِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مِمَّا يَمْنِي إِمْكَانِيَّةَ
رَحِيلِي فِي أَيِّ وَقْتٍ .. فَوَضَعْتُ مَصْبَاحِي جَانِبًا، وَجَلَسْتُ مُسْنَدًا ظَهْرِي
إِلَى حَقِيْبَتِي فِي انْتِظَارِ طُلُوعِ الْفَهَارِ .. إِلَى أَنْ قَفِزْتُ مِنْ مَوْضِعِي حِينَ
سَمِعْتُ فَجْأَةً صَوْتَ مَحْرَكِ سَيَّارَةٍ كَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنِّي بِنُورِهَا الْخَافِتِ
وَكُنَّ صَاحِبِهَا كَانَ يَعْلَمُ بِوُجُودِي .. سَيَّارَةٌ بَيْضَاءٌ قَدِيمَةٌ ذَاتُ صَنْدُوقٍ
خَلْفِي مَا إِنْ تَوَقَّفَتْ أَمَامِي حَتَّى أَخْرَجَ سَاقِقُهَا رَأْسَهُ وَحَدَّثَنِي بِلَهْجَةٍ
سَرِيعَةٍ لَمْ أَفْهَمَهَا، فَاقْتَرَبْتُ بِمَصْبَاحِي مِنْهُ، كَانَ عَجُوزًا تَحِيْفًا بِلَفْظِ
رَأْسِهِ بِشَالٍ مَنْقُوشٍ كَمَا دَاةُ أَهْلِ الصَّحَارَى، تَفُوصُ عَيْنَاهُ فِي وَجْهِهِ
فَتَنْظُرُنَّ أَنَّهُ بِالْكَادِ يَرَى أَمَامَهُ، فَقُلْتُ:

- بَنِي عَيْسَى ..

فاشار لي بيده كي أصعد إلى صندوق عربته دون أن ينطق، لينطلق
بي بعيداً عن سكة القطار ..



كان الطريق إلى بني عيسى أطول مما تخيلت .. ظل المعجوز يتقدم
بي عبر ممرات ومدقات جبلية مظلمة قرابة الثلاث ساعات، حتى
ظننت أنه ضل طريقه خاصة مع تلاشي أصوات الطبول والمزامير،
وكُلِّما طرقتُ سقف السيارة المعدني كي يتوقف ويتحدث إليّ أكمل
طريقه دون اكتراث بي وبصياحي، حتى أنه كاد يستقطني لولا تشبهي
جيداً حين مرّت السيارة مسرعةً بأرض صخرية غير مستوية، فضربت
سقف السيارة بيدي مرة أخرى غاضباً، وكدتُ أمدُ يدي عبر ناهذتها
لأمسك رأسه كي يتوقف بعدما أيقنت بفقداننا طريقنا وريعا طريق
العودة إلى السكة الحديدية أيضاً .. لكنني تراجعتُ حين أبصرتُ أنواراً
بعيدة قد لاحت في الأفق كانت السيارة في طريقها إليها .. كانت أنوار
بني عيسى .. الأرض الصامته ..



(٢)

توقفت السيارة بالقرب من رقعة زراعية صغيرة كانت على مشارف البلدة مع بزوغ النهار، ثم وجدتُ المعجوز يخرج يده عبر نافذتها ويشير إليّ كي أغادر صندوق سيارته، فقفزت مع حقيبتني، وسألته عما يريد من المال، فتجاهل حديثي ونظر خلفه، وعاد بسيارته بضعة أمتار قبل أن يستدير بها، وينطلق سريعاً مبتعداً عني في غرابة شديدة، فالتفتُ نحو البلدة وأكملتُ طريقي سيراً إلى داخلها.

من النظرة الأولى أدركتُ صغر مساحة تلك البلدة مقارنةً بمنى بلادي .. مبانٍ صغيرة من الطوب الأبيض والأسقف الخشبية متراسة بانتظام على جوانب شوارع رملية، تتناثر بينها قطع من الأراضي الزراعية وآبار المياه الدائرية .. كان السكون يملأ أركانها في ذلك التوقيت فبدأتُ أتجول بين شوارعها في انتظار أن يظهر أحد من سكانها ليخبرني عن مبنى الطبيب .. ثم وجدتُ عدم حاجتي إلى من

يدلني إليه بعدما أبصرتُ بناءً لا يختلف كثيراً عن باقي الأبنية يحمل
لافتة خشبية قديمة كتب عليها باللغة العربية «مركز الرعاية الطبية».



حين طرقتُ باب ذلك المبنى راودني شعور خلاثة من أي شخص
بعدما أطلتُ طرفاتي ولم يجبني أحد، كذلك راودني شعور خلا
البلدة كلها من أي أشخاص بعدما بزغ النهار ولم يظهر فرد واحد
بشوارعها .. حتى اطعأن قلبي عندما ظهر الشخص الأول .. رجل
كان يهم مسرعاً في طريقه دون أن يلتفت جانباً .. فواصلتُ طريقي
للإياب دون توقف .. حتى أخرجتُ زفيرتي بعدما جاءني الرد أخيراً من
الداخل وفتح الباب .. كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها «صالح» ..
خادم عيادتي الطبية، سألتني وهو مغمض العينين :

- من أنت ؟

كان شاباً يصفرني سناً، قصير القامة، ذاكن البشرة .. قلت:

- دكتور فاضل .. الطبيب الجديد ..

فتح عينيه غير مصدق، وحاول أن يهتد ثيابه سريعاً، وصاح
مرحباً بي .. ثم حمل حقيبتي واصطحبني إلى داخل المبنى .. كان
المطابق السفلي مكوناً من ردهة كبيرة بها عدة مقاعد خشبية متربة،
وحجرتان .. دلفتُ إلى الأولى فوجدتها غرفة الكشف الخاصة
بالطبيب، كأي غرفة كشف تقليدية .. سرير للمرضى، مكتب للطبيب،
مقعدان، سماعة طبية وجهاز قياس لضغط الدم .. تعجبتُ من وجود

جهاز للكشف بالأشعة التلفزيونية، فسألته بتعجب وأنا أمسح التراب الذي يغطيه:

- هل توجد كهرباء 19

قال:

- نعم .. لدينا مولد يعمل بالوقود .. نستطيع تشغيله ساعتين في اليوم إن أردنا ..

ارتحتُ قليلاً لذلك .. ثم تحركتُ بي إلى الغرفة المجاورة، لم تكن تحتوي إلا على خزانة خشبية، فقال:

- إنها خزانة الأعشاب الجافة والمُسالة ..

فسألته :

- من أين تأتي هذه الأعشاب ؟

قال:

- لا أعلم، منذ جئتُ إلى هذا المكان ولم يأتِ إلى هنا طبيبٌ واحد أو مريضٌ واحد ..

ابتسمتُ وهزّزتُ رأسي مندهشاً .. ثم صعدتُ معه إلى الطابق العلوي .. كان مبيتاً للطبيب وجدته مُرضياً لي .. ثم وجدته بهم بجمع أضرامه المتناثرة للرحيل، فسألته أن يبقَى .. لم أرد أن أكون هذا الغريب الذي يأتي ليعثر الأوراق، وكان المبيت يكفي لكننا .. لكنه

أُصر على نقل أغراضه إلى غرفة الأعشاب بالطابق الأرضي، وأكمل
باسمًا وهو يغادر:

- لن يأتي إلينا مريض على أي حال ..



كنت أظن حديث صالح لي مزاحًا حين أخبرني بعدم مجيء المرضى
إلى العيادة الطبية، لكنه كان حقيقيًا تمامًا .. مرت أيامي الأولى هناك
ولم يُطرق بابنا مرة واحدة .. ظننتُ في البداية أن السبب هو عدم علم
أهل البلدة بقدمي فأكثرُ من تجوالي بشوارعها مع صالح الذي بات
صديقي الأوحيد في ذلك المكان .. سألتُه في يوم تجوالنا الأول عن كيفية
إحضار طعامنا أخبرني أن حاكم البلدة يتكفل به كما يتكفل براتبه.
أما راضي فلم يعلم بعد عن سيتكفل به .. اندهشتُ وأخبرته أنني
بُكّيت بوجود من سيدفع لي هنا .. أجابني متعجبًا :

- ربما سيدفع لك الحاكم مع بداية الشهر الجديد .. وإن كنت
لا أظن.

وتحدّث كثيرًا عن بخله ..

كنت أظن حال بلادنا جنوب النهر القديم هو الأسوأ، لكني بعدما
رأيت تلك البلدة وفقر مبانيتها وأسواقها علمتُ أن هناك من يعانون
كثيرًا .. عرفتُ أن تلك البلدة ليست إلا واديًا واحدًا من وديان بني
عيسى السبعة .. الإقليم الأكبر .. وديان متشابهة متناثرة .. يعيش
معظم سكانها كرحالة بالصحراء مع خيولهم وجمالهم وأغنامهم
أما بقيتهم فيزرعون أراضيهم القليلة اعتمادًا على مياه الآبار

والأمطار .. سألتُ صالِح عن وجود سيارات لننتقل بين الوديان قال أنه لم يرَ سيارة من قبل .. أخبرته عن ذلك المعجزة المجنون الذي أتى بي ليلة وصولي فتمعجب .. سألتُه عن الأفراح وأصوات دقات الطبول والمزامير التي لا تتوقف والتي لم أسمعها منذ قدومي، هنا بُني سائحاً على خيالي الواسع .. وأردف قائلاً وهو يشير إلى السماء بعيداً:

- حين يحلُ المساء لن نسمع إلا صوت صفافير الرياح ..



لم يدقَ بابنا مريض واحد بعد مرور ثمانية عشر يوماً حتى ظننت أن أهل تلك الوديان لا يمرضون، واجتاحني الشعور بالملل في كل أوقاتي، وصارت أحاديث صالِح فائرة لا تقدّم أي جديد .. ثم قررتُ في يومي التاسع عشر أن أذهب إلى حاكم البلدة أو شيخ الوادي كما كان يلقبه البعض .. لم يكن بخيلاً فعسب بل كان من نوعية هؤلاء الأشخاص اللزجين الذين لا تستطيع تحمل الجلوس معهم دقيقتين متتاليتين .. كان رجلاً سميناً ذا لحية كثيفة تقطي وجهه المترهل يرتدي عباءة واسمة .. بادرني بغير اكتراف قبل أن أحدثه عن رائي بأنه لم يعلم شيئاً عن قدومي لذا لن يتحمل عني قرشاً واحداً، ما قد يفعله هو أن يزيد حصة الطعام المرسلة إلى صالِح .. أما إن أردت مقابلاً لعملي فعليّ أن أجنّيه من مرضاي .. وقتها أدركت أنه لم يعد هناك وقت للانتظار بذلك الإقليم .. وعدتُ حانقاً إلى مبيتي وأخبرتُ صالِح بأنني سأغادر، فلم ينطق .. وجمعتُ أغراضي وحملتُ حقيرتي إلى مدخل البلدة في انتظار من يقلّني إلى سكة القطار الحربي.



في بداية انتظاري تمنيتُ أن يظهر لي المعجوز الذي أفلّني بسيارته إلى هناك مرة أخرى .. وبعد مرور ساعتين دون أن يهتم أحد بوجودي بات أمني أن يصحبني أي شخص من أهل الوادي على جملة أو حصانه إلى وجهتي .. ثم خاب أمني سريعاً بعدما رفض الجميع ذلك، وتعلل الكثيرون منهم بأنهم لا يعرفون الطريق إلى السكة الحديدية التي أقصدها .. ومرت الدقائق والساعات واحدة تلو الأخرى، واقتربت الشمس من الغيب .. وقتها أدركتُ أنني علقتُ في ذلك المكان إلى الأبد .. والنفتُ مُحبطاً نحو بيوت الوادي وركلتُ الرمال بقدمي غاضباً، وقررت أن أعود إلى صالح مجدداً في انتظار فرصة أخرى قد تلوح للرحيل .. قبل أن ألمح بأني تجاهي ركضاً من بعيد .. حتى اقترب مني، وتوقف أمامي وهو يلثث محاولاً أن يلتقط أنفاسه، وقال:

- هناك مريضة تبحث عنك ..



كانت فرحتي بوجود المريض الأول تفوق كل شيء حتى أنها أنستني الساعات التي انتظرتها على مشارف الوادي للرحيل .. وعزمتُ داخل نفسي بأنني لن أقضائي مقابلاً لتلك الزيارة الأولى ..

دلفتُ إلى غرفة الكشف، كانت تجلس في انتظاري .. شابة جميلة في منتصف العشرينات ذات شعر أسود مموج طويل .. يتدلى من أذنيها قرطان دائريان كبيران .. نهضت حين رأيتني فظهرت ألوان فستانها المزركش الطويل .. شعرتُ من نظرتي الأولى إليها أنها ليست

مريضة .. ربما جاءت لتصحبني إلى بيتها حيث يوجد من هو مريض بالفعل .. سألتها أن تجلس مجدداً وجلستُ خلف مكتبي .. ثم أومأت لها برأسي كي تتحدث، فقالت بجديّة بالغة:

- أعذر أنتي تأخرتُ كل هذا الوقت .. كان عليّ المجيء إليك قبل أيام ..

ثم أفهم ما تقصده باعتذارها، وبدأ ذلك على وجهي، فأكلت وهي تخرج كيساً قماشياً صغيراً أدركتُ أنه يحتوي عملات معدنية .. ووضعتة على المكتب أمامي:

- أنا من طلبتُ مجيئك إلى بني عيسى ..

ثم فتحت فوهة الكيس أمامي فلمعت العملات الذهبية بداخله مع نور مصباح الغرفة الزيتي، ولا أخفي أن عينيّ قد لمعتا من المفاجأة .. وقالت:

- أيكفي هذا الذهب ليكون مقابلاً لك ؟

تمجبتُ من حديثها، وواصلتُ صمتي كي تكمل حديثها .. فأكلت:

- اسمعي ديماً .. أو تستطيع أن تقول مثلاً يقولون .. ديماً الفجرية .. جئتُ إليك من وادي الفجر حيث أعيش ..

كان صالح قد أخبرني ذات مرة أن وادي الفجر هو أبعد وديان بني عيسى العبيمة .. وتابعت:

- أريدك أن تساعدني ..

قلت:

- بكل تأكيد ..

قالت وهي تشير إلى بطنها:

- أريدك أن تفحصه ..

لاحظت للمرة الأولى كبر بطنها قليلاً، فسألتها:

- حبيبي؟

قالت:

- نعم ..

أومأت برأسي مبتسماً، وسألتها أن تصعد إلى سرير الكشف ..
ثم صحتُ إلى صالح الذي كان ينتظر بالردهة كي يقوم بتشغيل مولد
الكهرباء .. وبدأتُ كشمي الروتيني بسماعتي الطبية .. ثم اضطربتُ
ونظرتُ في عينيها بعدما وضعتُ سماعتني لأسمع نبض الجنين ولم
أسمعه .. ثم أنطق بكلمة حتى .. ثم سمعتُ صوت المولّد خارج نافذة
الغرفة ومعه أضاءت لمبة صغيرة بجهاز الكشف التلفزيوني، فشرعتُ
في استخدامه لفحص الجنين .. لكنني كما توقعتُ، كان قلب الجنين
متوقفاً تماماً .. فوضعتُ يد الجهاز جانباً، وسألتها أن تعود إلى
مقعدها .. وعدتُ إلى مقعدي .. وأشعت بيدي كيس الذهب نجاهها،
وقلتُ هادئاً في حزن:

- للأسف ..

نظرت إليّ، فأكملتُ:

- إنه جنين ميت ..

صمتت ولم تحرك ساكنًا وساد الصمت بيننا للحظات، حتى
قطعت قائلة:

- كما توقعت .. لذا جئتُ إليك ..

نظرتُ إليها بطرف عيني .. فقالت بهدوء شديد:

- لم تدب فيه الحياة بعد ..

أشفقتُ عليها من صدمتها .. لكنها كانت الحقيقة التي لا بد أن
تعلمها .. فقلت:

- لا بد وأن تنزلي هذا الجنين في أسرع وقت ..

قالت وهي تنظر في عيني:

- إنه ليس ميتًا ..

وقالت مرة أخرى:

- لم تدب فيه الحياة بعد ..

ثم أضافت كيس الذهب تجاهي مرة أخرى، وقالت:

- لذا أرسلتُ في طلبك للمجيء إلى هنا .. وأردت:

- كنت أأمل أن يكون حملي طبيعياً كباقي نساء وادي الفجر، لكنه
قدري الذي لا مفر منه ..

وحدّثت نفسها هائمة:

- تمنيت ألا أعود إلى هناك مرة أخرى ..

ثم نظرت إليّ، وقالت:

- لم آتِ إليك أيها الطبيب لتخبرني أنه لم تدب فيه الحياة بعد

فحسب .. بل جنّتك لترافق رحلتي الطويلة إلى هناك ..

وأكملت بمرارة وهي تنظر إلى الفراغ أمامها:

- سأذهب به إلى جارتين.



(٣)

چارتين

«غفران»

كان صباح الأطفال لبعضهم البعض في الزقاق المقابل لشرفة
غرفتي العلوية صاحبًا للغاية ذلك الصباح، كماداتهم اليومية لم يجدوا
بين أزقة الحي مكانًا للعب بكرتهم القماشية إلا ذلك المكان، حتى أنني
اعتدت صراخهم، وصار بالنسبة لي حدثًا ثابتًا إن غاب يومًا شعرت
أن هناك ما ينقص يومي.

ما كان يدهشني حقًا هي الطريقة التي يتسلل بها أخي الأصغر
«زين» صاحب السبع سنوات من فراشنا كل صباح كي يلحق بهم دون
أن أشعر به، قبل أن يوقظني صياحه لي من الشارع بصوته الرفيع؛
غفران، كي أخرج إلى الشرفة لأكافئه بحبة من الحلوى إن أحرز
هدفًا كما اعتدت أن أفعل ..

كانت أمي تفعل الشيء ذاته قبل رحيلها منذ عام .. كان هذا أكثر ما تشابهت به معها بعدما تشابهت ملامحي الشكلية مع ملامح أبي، وورثت عنه الشعر البني الناعم والعينين الخضراوتين، بينما ورث زين عن أمنا شعره الأسود وعينيه البنيتين الداكنتين .. ما زلت أتذكر كلماتها القديمة مع أبي بأنها تمثت قبل زواجهما هذا الميراث العادل للشبه .. الجمال للبنت والصرامة للولد .. لم تكن تعلم أنني سأمتلك الصفتين معاً بمرور السنوات ..

تذكرت كلماتها وأنا أنظر إلى الأطفال اللاعبين وهم يتهامسون عندما رفعت إليهم يدي بكيس الحلوى، قبل أن يشتعلوا حماساً ويركضوا جميعاً صارخين وراء الكرة من أجل إحراز هدف ينالون به مكافأتي .. غير أن صياحهم هذا الصباح كان أكثر حماساً، لا بد وأن زين قد أخبرهم أن اليوم يعمل حدثين خاصين لي .. الأول أنني قد بلغت عامي الرابع والعشرين .. والثاني أن السيدة سامرية ستأتي إلى منزلنا بعد الظهيرة لتأخذ مفاصات فستان زفافي .. سيعلن زواجي في باحة جويدا أمام أهل جارتيين نهاية هذا الشهر.



جويدا هي مدينتنا التي نسكن بها، أرقى مدن جارتيين الأربعة عشر وأكثرهم اكتظاظاً بالسكان .. نعلم جميعاً هنا أن السبب هو مناخها المعتدل وأرضها الخصبة التي تختلف عن باقي أرضنا الصخرية .. كما درسنا في مادة التاريخ كان نهر جويدا الجاف قد ترك ما يكفيها من طمي قبل جفافه منذ أكثر من ألفي عام، مثلما ترك أخدوده

الذي يشق أرضنا إلى نصفين شرقاً وغرباً، بدءاً من الجبال الحمراء
بالجنوب حتى جدار چارتين العظيم بالشمال ..

تقول الكتب أن چارتين كانت في الأصل بلدين متجاورين يفصلهما
النهر الجاف .. بلدان متشابهان في كل شيء قامت حضارتهما على
الزراعة حول ضفاف ذلك النهر .. ألوف السنوات من الرخاء والنعيم
والقوة امتلكت فيها كل بلد منهما حكمها المستقل من أبنائها .. قبل
أن يسوء قدرهما معاً، ويتولى العجزة مقاليد الحكم بهما لثلاثة قرون
كاملة، انهار معها كل شيء ..

قرأت ذات مرة في أحد كتب التاريخ بمكتبة أبي أن أحد الحكام
القدامى كان قد أصيب بداء النسيان، وتكوّر جسده المتبسر بعدما
تجاوز عمره التسعين عاماً، ومع ذلك ظل ممسكاً بمقاليد الحكم
مدعوماً بحاشيته ومناقضيه الذين أفسدوا كل شيء بدورهم، فتبدّل
الرخاء والنعيم إلى فقر مدقع ظل يتسلل إلى أرجاء البلدين ليسكن
بيوتها، واستحال الأمان بشوارعها إلى عنف وجرائم لم تشهدا
البلاد قط ..

حقبة دموية لم يعلُ فيها غير صوت قرعمة البطون الخاوية، وصوت
النبارد لمن أشروا الموت بالرصاص عن الموت جوعاً .. ثم غضبت الأرض
على أجدادنا قتلُ منسوب النهر يوماً بعد يوم حتى جفّ عن آخره ..
وحلّت المجاعة الكبرى التي سُميت بسنوات الخراب الأربعين .. مات
بها من مات، ورحل من رحل، وسُجن من سُجن، وتبقى من تبقى
ممن ارتضوا ذلك الجوع أملين أن تعود بلادهم إلى سابق عهدها فلم
تمهلهم الطبيعة فرصة أخرى، وتغيّر المناخ فجأة، وهاج بحر، أكما،

الذي يحيط بالبلدين من كافة الجوانب عدا الجنوب ليغمر كل شيء..
وليأتني على من تبقى وما تبقى من البلدين ..

غطيت بلادنا بالماء لقرنين من الزمان .. قبل أن يتبدل المناخ
وينعسر الماء لتظهر إلى الحياة مجددًا، فعاد إليها من رحل أجدادهم
عنها وشُتتوا بالصحاري والبلدان الأخرى جنوب الجبال الحمراء ..
وانهال معهم الرحالة والقبائل من كل حذب وصوب .. وحضروا أبار
المياه الجوفية لتعمل محل النهر الجاف .. وأصبح البلدان بلدًا واحدًا
سُمي بالجارتين .. حُرف مع الزمن إلى جارتين ..

ولهموا بلادنا شر بحر «أكماء» النائر بدأوا في بناء جدار جارتين
العظيم .. سدّ صخري رهيب يحيط ببلادنا من الشمال والشرق
والغرب .. استغرق بناؤه أكثر من قرنين كاملين .. أخبرتني أمي وهي
تسد شعري ذات مرة، وكنت وقتها في السابعة من عمري، أن تاريخنا
يتقسم إلى ما قبل جدار جارتين وما بعده .. وأننا ندين لذلك الجدار
بحياتنا حيث يحجز من ماء البحر النائر خلفه ما يكفي لهلاك جارتين
كلها في ساعات قليلة، ثم أُرثي لوحة مرسومة في أحد الكتب عنه ..
كانت لوحةً للتقوش التي دُوت على قواعد .. نقوش قوانين بلادنا، أو
ما يرميها العامة باسم «قواعد جارتين» .. ما زلت أتذكر صوتها وهي
تقول:

- إن تلك القوانين نُقشت على قواعد الجدار على مر السنوات،
وكان انهيار قاعدة واحدة منها لن يختلف كثيرًا عن انهيار
قواعد جدارنا العظيم ..

لم أكن أدرك وقتها أنها ستخضع ذات يوم للقاعدة نفسها التي
كُتبت أسفل تلك اللوحة، كانت قاعدة جارتين الأولى التي تقول:

«إن جارتين لم تنسَ أبداً ما فعله المعجزة بحضارتهما..
لذا لا يعيش على أرضها من يعبر عامه الخمسين،



(٤)

كانت الجدّة البالغة التي ظهرت على وجه مريضتي الفجرية وهي تقول أنها ستذهب بجنتيها إلى چارتين توحى بأنها قد اتخذت قرارها قبل المجيء إليّ، ولم تأتِ إلا لإخباري بأن استعد لرافقتها في رحلتها فحسب .. فسألتهما مستفهماً:

- چارتين؟ .. هل هذا مكان؟

قالت:

- إنه بلد كبير ..

قلت:

- لم أسمع عنه من قبل، شأنها شأن بني عيسى قبل مجيئي إلى هنا ..

كانت هذه حقيقة مؤسفة، كانت ثقافتنا عن البلدان الأخرى
ضمنية للغاية .. لم يكن مسموح لنا بشراء أي كتب غير مناهجنا
الدراسية .. ولا أذكر أن مناهجنا قد ذكرت شيئاً عن جارتين تلك ..
كانت بلدنا تضع الكثير من القيود على ما يقرؤه العامة، حتى أنني لم
أتصفح ورقة واحدة من كتبي الطبية قبل موافقة ضابط أمن بلدي ..
قالت الفتاة:

- ربما لأنها بعيدة للغاية .. لا يمر بها الكثيرون هنا أيضاً، إنها
على بعد مسيرة شهر كامل إلى الجنوب، عشرة أيام على
اليابسة وعشرون في البحر ..

فصمتُ، وكان ضجيج المولد قد توقف قبل أن أسألها:

- ولماذا استذهب إلى هناك؟

قالت:

- خارج ذلك البلد لن تدب الحياة في طفلي أبداً . هناك قد
يمتلك فرصة للنجاة ..

قلت:

- سحر؟

قالت:

- لا .. إنها ذات طبيعة وقوانين خاصة تختلف عن باقي البلدان،
وأردفت:

- ربما ستجد كلامي غريباً، لكن عليك أن تعلم أن كل ما سأخبرك به ليس إلا حقيقةً تمامًا ..

ثم قالت بخجل:

- إن جنيني ليس شرعياً ..

وصمتت للحظة، فأومأت لها برأسي كي تكمل حديثها، فأكملت:

- أعيش بوادي الفجر كما أخبرتك، لكني لا أنتمي إليهم .. كان حبيبي أحدهم فحسب .. أما أنا فانتقلت للعيش معه منذ شهرين من أجل زواجنا، لكنه مات قبل أن نتم هذا الزواج بعدما ترك بأحشائي هذا الجنين .. إنني أنتمي إلى ذلك البلد البعيد .. جارتين، ثم ابتسمت بمرارة، وقالت:

- كنت أظن أنني تخليت أخيراً عن صفاتي الجارتينية بابتعادي عنها .. لكن كما قالت لي أُمِّي ذات يوم: إن جارتين قدرنا الذي لم ولن نفر منه ..

ثم توقفت عن الحديث حين طرق صالِح بابَ الغرفة وسمعتُ له بالدخول، فدخل إليَّ حاملاً مشروباً ساخناً أعدّه من أجلي ثم خرج، فصالتها على الفور:

- إذا أنتِ جارتينية ؟

قالت:

- لا .. إنني من نسائي جارتين ..

وأخرجت زفيرها قائلة:

- كم أكره ذلك المكان .. أندري شيئاً سيدي .. جئتُ من جارتين
إلى وادي الفجر وقطعت تلك المسافة كلها كي أنحرر من كوني
نسبية، ولو كانت المسافة أطول لفعلت ذلك .. لا تفهم شيئاً
أليس كذلك؟ ١٩

فهزئت رأسي إيجاباً، فقالت:

- النسالي هم حاملو التعاريف جارتين .. إن قواعد جارتين
تخص جميعها بأرواح البشر .. يقولون أن قبل بناء جدار
جارتين كانت البلاد قد شهدت من الجرائم والخطايا ما لم
تشهده بلد قط، فكانت القاعدة الثانية من قواعد بلدنا؛ يُلحق
التعار بالروح المذنبية للأبد ..

وثابت بعدما توقفت لهنيهة:

- لا يُولد جنين حي خارج جارتين .. وقد نبتت من ذلك اليوم
بعد فحصك لجنيني .. تبقى أجنة نساء جارتين بلا روح ..
إن كان الحمل عن زواج شرعي في باحة تُسمى باحة جويدا
ينال الجنين روحه الطاهرة ممن يموتون ميتة طبيعية بأرجاء
البلاد .. ولا تضطر حاملته إلى الذهاب إلى باحة جويدا
من أجل ذلك .. كما يقولون هناك: تختار الروح حاملها ..
أما إن كان حملاً غير شرعي، وأرادت حاملته له النجاة، فلا
بد أن تتجه إلى الباحة يوم الغفران .. يُقام يوم الغفران نهاية
كل شهر .. هناك يُقدم أمام أهل جارتين من أقر القضاة

إعدامهم .. ليس لأجنة الزنا فرصة للنجاة إلا أرواح أولئك
الذين .. لذا على الحيلى إن أرادت النجاة لطفلها أن تتواجد
بالباحة في ذلك الوقت .. هكذا ينجو الجنين، وتحمل روح
المعدوم العار بجسد نتج عن الخطيئة ..

وأخرجت زفيرها مجددًا، وقالت متبرمة:

- عدالة جاريتين ..

قلت:

- وماذا إن لم يكن هناك مَنْ يُعَدِّم ؟

أجابني:

- تنتظر الحيلى شهرًا آخر لتعود مرة أخرى إلى الباحة .. وإن لم
يكن هناك به أيضًا مَنْ يُعَدِّم تنتظر شهرًا آخر .. تحمل المرأة
تسعة أشهر، نحصد الأجنة الأرواح بداية من الشهر الخامس،
إن لم ينل الجنين روحًا خلال الأشهر الأربع الأخيرة يُولد ميتًا
.. أرجوك، أريدك أن ترافقني إلى هناك .. أريده أن ينجو ..

قلت:

- وما حاجتك إليّ؟

قالت:

- لقد ورثتُ عن أمي مرضها بالصرع .. أفقد وعيي كثيرًا ..
ذات مرة ابتلعت لسانني حين هففت وعيي، لكن حبيبي أنقذني

بأعجوبة .. إن الرحلة إلى جارتين طويلة .. وأخشى أن تأتيني
نوبة الصرع فابتلع لساني مرة أخرى، فأصوت قبل أن أصل إلى
هناك وينال جنبني روحه .. كما أريدك أن ترعاني أنا وطفلي
في طريق العودة إلى هنا ..

ونظرت إلى كيس المال القماشى، وقالت:

- سأضعف لك هذا القدر من الذهب .. سأجعلك تعود إلى
بلدك ثرياً ..

فقلت ساخراً:

- ليس هناك طريق للعودة إلى بلدي ..

قالت:

- إن رفقاء حبيبي رحالة يجوبون البلدان .. سيصحبك أحدهم
إلى بلدك بعد عودتنا سالمين أنا وطفلي .. هذا وعد مني ..

قلت:

- لا وعد للفجر ..

قالت:

- أخبرتك أنني لست غجرية ..

ثم نهضت، وقالت:

- سأعود إليك بعد يومين، أتمنى أن أجد موافقتك ..

ثم تحركت نحو باب الغرفة دون أن تأخذ ذهبها، وكادت تغادر،
فسأنتها وأنا أجلس مكاني:

- وما الذي يجعلك تتقين بأن حقلك سينجو؟

فتوقفت واستدارت لي، وقالت بهدوء:

- لأنني وُلدتُ بالطريقة ذاتها.



(٥)

كنت أرثدي ثيابي الداخلية حين بدأت السيدة سامرية في أخذ مقاسات جسمي وتدوينها في أوراقها .. امرأة في أوائل الأربعينات من عمرها تُشعرك من اللحظة الأولى بوقارها البالغ، غير أنك بمجرد بدء الحديث معها لن تكف عن الثثرة حتى يذوب ذلك الوقار تمامًا .. ظلت تحكي لي عن الفساتين التي صممتها سابقًا لأمي، وعن فساتين هتيات جارتين التي تطورت مع مرور السنوات، ثم ضحكت وهي تلف شريط القياسات حول خصري، وقالت:

- من يرى هذه الأنوثة لن يصدق أبدًا أنك الفتاة ذاتها التي نراها في باحة جويدا ..

فضحكتُ، ونظرتُ إلى جسدي في المرأة .. لطالما كانت باحة جويدا قدرتي، لست أنا فقط، بل قدرتي أنا ونديم .. تلك الباحة الشاسعة على أطراف منطقتنا التي خُصصت لمراسم جارتين جميعها، والتي صارت مقر عملي منذ سنوات .. نسميها هنا أرض جارتين المقدسة ..

رأيتُه هناك للمرة الأولى قبل ستة عشر عامًا، كنت في الثامنة من عمري وقتها، طفلة متجهمة خائفة من الوجوه الكثيرة المختلفة التي تراها للمرة الأولى، يحملها أبوها فوق كتفيه كي يجنبها الارتطام بأرجل أهل جارتين المتزاحمين في الباحة ليشهدوا يوم الفجران - أخبرتني أمي قبل ذهابي يومها أنني سميت «غفران» نسبة إلى ذلك اليوم - ..

أتذكر أن أبي قد شقَّ بي الجموع إلى الصفوف الأمامية، ولكنه ما لبث أن توقف عن التقدم بعدما حلَّ الصمت فجأة، فتشبَّثُ بشعره بقوة، وتسارعت دقات قلبي عندما رأيت رجلًا مكبلًا فوق المنصة، مغطى الرأس بغطاء أسود، قبل أن أجفل ويرتفع جسدي حين سمعتُ صوت البارود للمرة الأولى .. كان حكم الإعدام قد نُفذ على ذلك الرجل .. أدركت فيما بعد أنه لص من النمسائي، وبينما انتشل الناس بالحديث، وعلا ضجيجهم بعدما دوت زغرودة بعيدة كنت أنا أنظر إليه هناك ..

كان يجلس عاليًا متشبَّثًا بساقيه النعيفتين بقعة قائم حديدي رفيع يصل ارتفاعه عشرين قدمًا على جانب الباحة .. طفلٌ داكن البشرة، أسود الشعر، في مثل عمري أو يكبرني سنة أو سنتين على الأكثر، يجلس بثبات بالغ بسرّوالة القصير على قبة ذلك القائم، مرتفع عن الجميع كأنه يسيطر على الباحة كلها ..

وكان عقلي قد تجاهل الجميع من حولي لم أحرّك بصري عنه، وتمغيتُ داخل نفسي لو كانت لديّ المقدرة والجرأة على تسليق ذلك القائم مثله .. حتى وجدته ينظر إليّ فجأة، فاضطرب وجهي، لم

ضحك وأشار إليّ بيده .. لا أتذكر أنني فعلت شيئاً سوى أنني حدثت
بوجهه بتجههم، ثم أبعثت بصري إلى المنصة حيث كانوا يجرون جثة
المعدوم إلى خارجها، ثم عدتُ بعد لحظة لأنظر إليه بطرف عيني،
فأشار إليّ مجدداً، فلكرتُ رأس أبي، وصعقتُ إليه في خجل:

- أبي، إنه يشير إليّ ..

لكن أبي لم يسمعني وقتها ..



على مدار أيام الفقران التالية كان مكانه ثابتاً، الطفل ذاته فوق
العمود الجانبى للساحة .. حتى ظننتُ أنه يبيت ليالي أيام الفقران
بالباحة من أجل اللحاق بمكانه، وكما دته منذ يومي الأول كان يشير
إليّ ويضعك، وبعد بضعة أيام من الفقران لم أجد نفسي إلا أن
أضعك وأبادله الإشارة ذاتها بيدي ..

بعدها لم أتاخر يوماً عن حضور أيام الفقران .. كان الجميع
يذهبون ليشهدوا مراسم المنصة سواء كان زواجاً أو إعداماً .. أما
أنا فكنت أذهب لأراه هو .. صديقي الذي لا أعرف اسمه، الذي يجلس
شامخاً فوق الجميع .. قبل أن يخفي تماماً وكان زحام جارتين قد
ابتلعه، وبقي القائم الجانبى للساحة خالياً وكأن أحداً لم يجروا على
أخذ مكانه.



مع كل يوم لي كنت أعرف أكثر عن قوانين بلادي، علمني أبي الكثير، وكذلك أمي .. أدركتُ مع الوقت أننا لم نكن من أغنياء جارتين أبداً، لكننا على الأقل لم نكن نسالي .. ما كنت أشعر به حقاً مع مرور أيامي أنني أتعلق كل يوم بباحة جويدا عن اليوم الذي سبقه .. لا أذكر أنني فوتت يوماً واحداً من أيام الغفران منذ اصطحبني أبي يومنا الأول وأنا في الثامنة .. ولا أذكر أن عيني لم تهرب كل يوم من تلك الأيام إلى العمود الجانبي للساحة علّها تجد ذلك الصديق الغائب مرة أخرى، ولكن دون جدوى، ظلّ العمود خالياً ..

أدركتُ أن معظم المعدمين من مجرمي النسالي رجالاً ونساء، وعرفتُ أن الزغاريد التي تُطلق بعد إعدام كل ممجون هي لنساء حبلن سفاحاً، وشعرن بحركة أجتتهن بيطونهن بعد لحظات من الإعدام .. كانت أمي تقول عنهم دوماً:

- يعيشون يُعدموا بعد ذلك .. لا تكف الروح المذنبة عن ارتكاب الجريمة أبداً ..

كان سؤالي لها وأنا في العاشرة، وكنا نعد الطعام وقتها:

- أليس بين النسالي رجل صالح أو امرأة صالحة ؟

قالت وهي تضع الأطباق على الطاولة:

- الروح تقود الجسد، وروح آثمة لن تقوده إلا لنفسة إعدام الباحة ..

وحكت لي قصصًا عن نسالي ارتكبوا أبشع الجرائم من قتل
وسطو وسرقات ..

كانت أمي محقة .. قليلًا ما كنا نسمع عن إعدام أحد من شركاء
جارتين الذين ولدوا عن زواج شرعي في باحة جويدا .. أخبرنا معلمنا
في المدرسة ذات مرة أن قضاة جارتين يمنحون فَرْصًا أخرى للشركاء
المخطئين إلا في حالات القتل أو ارتكاب خيانة كبرى في حق جارتين أو
جدارها. أما إن سرق مثلاً أو ارتكب جُرمًا صغيرًا قد يُعاقب بالسجن
أو دفع جزء من المال فعصب .. أما النسالي فمصيرهم معروف ..
سيرتكون الجريمة حتمًا يومًا ما. لذا إن ارتكب أحدهم جرمًا صغيرًا
قد يكلفه ذلك حياته .. السارق منهم يُعدم .. من يملك البارود يُعدم
.. التعدي على جارتيني شريف دون حق يُعدم .. القاتل يُعدم بالطبع ..

أذكر أنني سألت المعلم وقتها:

- ولماذا لا تقتلهم منذ ولادتهم طالما سيرتكون الجريمة؟

أجابني ضاحكًا:

- إنها عدالة جارتين .. لهم الحق في الحياة .. رب أحدهم
يستطيع أن يقوم روحه الأئمة ..

لم أقتنع بتلك الإجابة وزعمتُ شفني، قيل أن يكمل لنا أن كل مولود
شريف يُسجل يوم ولادته في أوراق دار القضاء في جارتين .. أما النسالي
فلا يُسجل لهم أوراق .. ينالون فقط أوشامهم الزرقاء على أكتافهم
ومدورهم بالعام الذي ولدوا فيه .. ولا يعيشون بيننا، ينتشرون على
أطراف المدن أو وديانها في تجمعات .. إن فقرهم شديد رغم أنهم

نصوص وهجاء .. لا يأتون إلى المدينة إلا للسرفة أو لحضور يوم
الغفران لنيل أرواحاً لأطفالهم .. هم يتعاشون مع طبيعتهم، وكما أتوا
من جبل غير شرعي لا يكفون عن إنجاب أطفال مثلهم غير شرعيين
.. لم يذكر تاريخ جارتين حالة واحدة لزواج شرعي بين رجل وامرأة
من النسالي، وأردف قائلاً:

- حتى هم لا يتقون في بعضهم ..

قاطمته مرة أخرى وقتها، وقالت:

- لكنهم يتجنبون!

قال:

- إنهم خطائون بالفطرة .. تسري الرذيلة في دمائهم ..



على مر قرونٍ طويلة صار عددهم بالآلاف .. قد تصبح روح
الشريف من النسالي إن أعدم، وحصدتها أم أحدهم، أما أن يصير
أحد النسالي من الشرفاء لم يحدث ذلك قط، رغم أن هناك قاعدة
من قواعد جارتين تقول: إن تزوج نسلي من شريفة جارتينية يصير
أولادهم شرفاء .. وقد يمنح القاضي ذلك النسلي حكماً مخففاً إن
ارتكب جرماً صغيراً تكريماً لتزوجته، لكن من تلك التي ترضى بالزواج
من أحدهم، وخاصة أن هناك قاعدة أخرى توصي بتحول أولادها
لنسالي إن ارتكب أبوهم جريمة أخرى قبل وفاته في عامه الخمسين ..

لم تُخلق امرأة في جارتين تستطيع أن تثق برجل لا يخطئ على
مر خمسين عام .. خاصة أنه مؤهل لذلك الخطأ .. أي امرأة شريفة
تجعل أولادها عرضة للمار في أي وقت من الأوقات؟



أرواح أئمة تنتقل من معدوم إلى آخر سيُعدم ذات يوم .. روح
مُعذبة لن ترتاح أبدًا إلا إن جاء يوم إعدامها ولم يكن بين الحاضرين
بالباحة امرأة تحمل جنينًا عن زنا، سواء كانت نسلبة أو من شريفات
جارتين اللاتي مارسن الرذيلة ولم يدركن أن هناك جنينًا قد نبت
داخل بطونهن ..

تفضل نساء جارتين الشريفات أن يُولد ابنها ميتًا عن ولادته بروح
أئمة .. أن يصبح العقاب المار بذلك أشد العقاب .. وأن يصيب المار
المائلة جميعها بسببها لن يكلفها إلا الابتعاد بطفلها إلى الوديان، لذا
هَلَّت الرذيلة بين الشريفات ..

القوانين صارمة .. لا بد من زواج شرعي قبل ولادة الطفل على
الأقل بسبعة أشهر، غير ذلك يصهر المولود نسلًا ولو كانت أمه
ابنة حاكم جارتين نفسه .. تسري قواعد جارتين على كل مخلوق في
أرضها، لذلك اعتادت نساؤنا على تربية أبنائهن وتعليمهن جيدًا علّهم
لا يلاقون مصير الإعدام أو الخطيئة يومًا ما ..

الشيء الأخير عن النمسالي أنه لا يحق لأي جارتيني أن يمنع نسلًا
من التواجد في شوارع المدينة، إنهم في الحقيقة جارتينيون مثلهم
مثلنا تمامًا. ولهم كافة الحقوق لمن يخطئ في حقهم، لكن يبقى على

كل واحد منهم أن يسير على صراطه المستقيم دون ارتكاب جرم
صغير طالما يتواجد بالمدينة بعد بلوغه عامه السادس عشر .. قضاء
بلادنا بلا رحمة معهم ذكورا أو إناثا بعد ذلك السن .. لذا يفضلون
هم الاعتماد من أنفسهم ..

ما يثير تعجبي كثيرا أن بلادنا تسمح ببيوت الرذيلة إن كانت
النساء التي تعمل بها من النسالي، كأنها ضامن حقيقي لإنجاب
أطفال غير شرعيين بما يكفي لأعداد المدومين .. في الوقت الذي
تُعاقب فيه الشريفة بالسجن إن عملت بتلك البيوت .. دعني أفل أن
النسالي هنا هم الطبقة الدنيا في كل شيء ..



كنت أحفظ قواعد چارتين عن ظهر قلب، لذا كنت طالبة متفوقة
بين زميلاتي .. كان علي أن أشكر أبي وأمي على اهتمامهما بثقافتي في
طفولتي .. كما لم يتأخرا يوما عن مساعدتي الدراسية، حتى بعدما
هُدِمت مدرستي المتوسطة لم يتوانيا عن نقلي إلى مدرسة أخرى كانت
تبعد مسافة ميل عن بيتنا القديم .. كان أبي يصحبني إليها بعربته
الخشبية ذات الحصان كل يوم ..

كانت تلك المدرسة تختلف كثيرا عن مدرستي القديمة حيث
قُسمت فتراتها مع التكديس الشديد إلى فترة صباحية للإناث وأخرى
بعد الظهيرة للذكور .. ثم أهتم بذلك .. كان هدي واضحا .. تفوق
دراسي يؤهلني للعمل بدار القضاء في چارتين كما تمنى أبي ..

أيام كانت تشبه بعضها .. طالبات كثيرات ومختلفات .. طلاب
ذكور ينتظرون خارج المدرسة لمغازلتنا قبل رحيلنا .. معلمون مثقفون
للغاية .. فتاة متجهمة نحيفة ذات شعر بني قصير وعينين خضراوتين
تحمل كتبها وتسير بمفردها كل يوم بسترتها البيضاء وتتورتها
الرمادية التي تمبر الركبة بقليل دون أن تنجو من سخرية غيرها من
الطالبات .. كانت أنا، ذات مرة سمعتُ إحداهن تقول عني ساخرة:
وجه البومة .. فيكيتُ .. ثم أكن أضحك فحسب، ولم أكن أملك
صديقات بعد ..

كل شيء كان ثابتاً لا يتغير عدا الأيام التي تمر فتتقصص العمر
أياماً إضافية، إلى أن حدث التغير أخيراً ..



كنا قد انتهينا من يومنا الدراسي، وكنا في طريقنا للخروج من
مدرستنا .. كانت الجلبة بين الطلاب الذكور بالخارج شديدة للغاية
ذلك اليوم .. أدركتُ أن هناك شجاراً بين بعضهم كماداتهم، فواصلتُ
طريقي مبتعدة دون اكتراث، ثم تسمرتُ مكاني حين وجدتُ الدماء
تسيل من رأس أحدهم فدق قلبي متسارعاً .. لم تتسارع دقات قلبي
خوفاً بل تسارعت عندما التقت عينه بعيني، فتسمر مكانه هو الآخر،
وأبعد يده عن مكان جرحه النازف لتسيل الدماء على وجهه بفزارة
دون اكتراث، كان هو .. القننى الأسمر ذاته الذي اختفى قبل ستة
سنوات كاملة .. متسلق القوائم الجانبي للباحة، أو كما كنت أسميه
بيني وبين نفسي .. سيد باحة جويدا ..

وكان الزمن قد توقّف بنا، وهدأت أصوات الجلبة من حولنا حتى
تلاشت وسكنت .. وقفنا متواجهين مُجمدة أجسادنا نحدق بيمضنا
البعض.



(٦)

لحظات من الجمود أصابتنا وكأننا لم نكن نصدق أننا سنلتقي بعد تلك السنوات .. تذكرته بكافة تفاصيل وجهه التي تبدلت قليلاً، لكن ما فاجئني أن تماير وجهه قالت بوضوح أنه تذكرني أيضاً رغم أن ملامحي الشكلية والجسدية قد تغيرت كثيراً عما كنت عليه قبل ستة أعوام .. فوجدت نفسي أبتسم خجلاً، فابتسم لي هو الآخر وكأنه نسي أمر الشجار والدماء التي غطت جبهته. وتسمرتُ مكاناً لا أعرف ماذا أفعل، حتى شعرت بيدٍ على كتفي .. كانت يد أبي فأمسكت بيده وسرت معه تجاه عربتنا ألتفت بين كل خطوة وأخرى لأنظر إلى صديقي الذي ظل واقفاً بموضعه ينظر إليّ .. وما لبثنا أن وصلنا إلى العربية وتحركت بنا بعيداً عن المدرسة، فاستدرت بجذعي، ونظرت إلى الخلف أبعدت عنه، فسألني أبي بعدما لم أنتبه إلى حديثه:

- ماذا هناك؟

فاعتدلتُ في جلستي، وقلت ضاحكة:

- لا شيء ..



كنت قبل ذلك اليوم أحب التعليم ولا أحب مدرستي الجديدة كثيراً، أما بعده فصرتُ أحب التعليم والمدرسة أكثر من أي وقت مضى .. أمضيت تلك الليلة أفكر في صديقي سيد الباحة القديم، وتعمّنتُ لو جلستُ معه وسألته: أين كنت تلك السنوات؟ وكيف عرفتني؟ .. أردت أن أحكي له كم ذهبتُ إلى باحة جويدا لأراه على القائم الجانبي ولم أجده، أردت أن أخبره عن حبي للباحة الذي نشأ ذلك اليوم عندما رأيته للمرة الأولى .. أردت أن أحدثه عن كل شيء .. أبي وأمي ومدرستي القديمة .. أتذكر أنني لم أُنم جيداً ليلتها، وظلت عيني مستيقظة تنظر إلى نافذة الغرفة، تترقب بفارغ الصبر طلوع النهار.

في يومي التالي كان حماسي للذهاب إلى المدرسة غير مسبوق .. كنت أنتظر بشغف بالغ انتهاء يومنا الدراسي لعلي أخرج وأراه كما حدث بيومي السابق .. كان شرودي ذلك اليوم يفوق أيام دراستي كلها .. كان قلبي يرفض هرجاً كلما مرّت دقيقة واقتربنا من موعد الانصراف، ثم كاد يسقط في قدمي عندما التفتُ صدفةً إلى نافذة الفصل فوجدته يثواري بجانبها لا يظهر منه إلا رأسه، فشغقتُ من المفاجأة، واندفعت الدماء إلى وجهي فازدادت حمرة، كان مقمدي يعنّصف الصف الأوسط، وكان فصلنا بالدور الأرضي كباقي الفصول جميعها .. غير أن هناك سوراً شاهقاً كان يحيط بمدرستنا

من كافة الجهات .. كيف غيره؟ وكيف امتلك تلك الجرأة للاقترب
منا لذلك الحد؟ ..

ما إن التفتُ إليه حتى أشار لي، فزاد ارتباكِي وانتفضت دقات قلبي
اضطراباً، ودار في ذهني حينذاك أن ذلك الغتي ليس إلا مجنوناً أو
متهوراً .. ونظرتُ في خوف إلى المعلمة التي كانت تقرأ لنا أحد الدروس
وأنا أخشى أن تراه طالبة أخرى فتخبرها .. وقتها قد يصل عقابه إلى
ترك مدرسته وربما أعاقب أنا كذلك .. تعينتُ لو امتلكتُ بيدي حجراً
فأذفه به كي يبتعد ..

ونظرتُ في كتابي وجسدي لا يتمالك نفسه من الرعدة التي سرت
به، ثم وجهت نظري إلى المعلمة مرة أخرى بحذر، ثم نظرتُ إلى
النافذة بطرف عيني فلم أجده، فهدأت دقات قلبي والتقطتُ أنفاسي،
غير أن المعلمة قد لاحظت التغير على وجهي، وسألني إن كان هناك
خطب ما بي .. فهزرتُ رأسي نفيًا في توتر، وقلت أنني بخير .. ثم انتهت
يومنا الدراسي فعلمتُ كتبتي سريعاً، وأسرعْتُ إلى الخارج مهرولةً
.. كان قلبي يدق سروراً وفرحة، وتبدلت تعابير وجهي بهجةً وأملًا ..
اليوم ظهرت ابتسامتي للجميع .. ضحكت البومة أخيراً ..



ظننتُ أنني سأراه ما إن أخرج من بوابة المدرسة الحديدية، لكن
ذلك لم يحدث .. فتعمدتُ التلكؤ والإبطاء من خطواتي على ظهره،
فلم يفعل .. فدارت الشكوك والوساوس برأسي .. ربما أسك به
معلم وهو يقف بجانب النافذة .. ربما سقط من السور العالي أثناء
عبوره للجهة الأخرى فكسرت قدمه .. ربما اكتفى برؤيتي اليوم لتلك
اللحظات ..

حتى أبي قد فعل ما كنت أتمناه ذلك الصباح وتأخر عني على غير
عادته، لكن دون جدوى .. لم يظهر الفتى، وانتهى خروج الفتيات من
المدرسة، ودلف جميع الفتية إلى داخلها، ولم يتبق أمام البوابة غيري
.. ثم وصلت أمي، واعتذرت لي عن انشغال أبي بأمر طارئ، فابتسمتُ
مطمئنة لها وأمسكتُ بيدها، وغادرنا سوياً دون أن تعلم شيئاً عن خيبة
ألمي لغياب شخص آخر .. فكرتُ أن أحدثها عنه لكنني تراجعته ..
كنت أعلم جيداً ما ستقوله لي: نساء جارتين لا يتعلمن إلا بأزواجهن،
غير ذلك لن يجلب لهن الرجال إلا المصائب ..



وكانه قد كتب عليّ الترقب .. بدلاً من تحول بصري كل يوم غفران
إلى القائم الجانبي للباحة طيلة ستة أعوام، صار تحول كل يوم إلى
النافذة الجانبية للفصل بين كل دقيقة وأخرى عله يأتي مجدداً ..
ولازم الاضطراب دقات قلبي كلما حدثت جلبة مفاجئة خارج النافذة
.. واعتادت عيني على تفحص أوجه الطلبة خلسة خارج المدرسة قبل
مجيء أبي .. لكنه لم يظهر من جديد، لقد فعلها ثانية .. لقد اختفى
مرة أخرى ..



شهرٌ كامل دون أن يظهر .. حتى ظننت أنني لم أراه قط، وأن ما
حدث كان سراباً وأن مخيلتي الواسعة هي من صنعت ذلك الفتى ..
ويوماً بعد يوم أقتمت عقلي بأن أنساه، وأن أضغ تركيزي كاملاً صوب
دراستي، لكن كمادة حياتي، تدبُّ الأمواج بالنباه الساكنة فجأة ..

كان ذلك اليوم حين جلستُ بمقعدني بالفصل، وشرعتُ كي أخرج
كتبي عندما لمحتُ تلك الجملة المكتوبة بالقلم الرصاص على يمين
سطح التخته الخشبية أمامي:

- لقد تغيّرتُ كثيرًا عن أيام الباحة، أيتها الفتاة ..

تلفتُ إلى الطالبات المنتبهات إلى المعلم من حولي، وأحطتُ الجملة
المكتوبة بذراعي، وأعدتُ قراءتها ثانية ثم ثالثة، ثم انتبهتُ إلى المعلم
حينما ارتفعت نبرة صوته وهو يقرأ، ثم عدتُ لأقرأ الجملة مرات
أخرى .. وانفجرتُ أسارير وجهي من جديد، وكأنتي نسييتُ فجأة ما
قررنه قبل أيام عن تجاهل التفكير به .. ووجدتني أنتظر بشغف مرور
الساعات وحلول وقت الانصراف، وحدث ما توقعت، لقد ظهر الفتى
أخيرًا بين زملائه بالخارج.

ما إن عبرت البوابة حتى ظهر لي من بينهم .. لا أعلم إن كان يدرك
أن عيني كانتا تبحثان عنه هو الآخر أم لا .. التقت عينانا فابتسم وهو
يحرك بين أصابعه قلمًا رصاصًا طويلًا، فابتسمتُ وهزّزتُ رأسي في
خجلٍ، وأكملتُ طريقي نحو أبي الذي كان في انتظارني ..

في اليوم التالي وجدتُ الجملة التي كتبتُ باليوم السابق قد
مسحت، وكتب بدلًا منها:

ما اسمك؟

ضجعتُ، وزممتُ شفتي مُفكرة .. ثم أخرجتُ المحاة، ومحويتُ
سؤاله، وكتبتُ مكانه بقلم الرصاص:

- غفران ..

ثم لُحْتُ على الجانب الأيسر من سطح التختة:

- اسمي نديم، إن كنت ستسأليني عن اسمي ..

هكذا عرفتُ اسمه أخيراً .. فابتسمت، واستخدمت الممعة لمحي
ما كتبه، وكتبتُ موضعه:

- أين كنت؟ ١٩

ثم انتهتُ إلى معلمي الذي سألتني بأن أقف وأقرأ للجميع من
كتابي، فنهضتُ وبدأتُ أقرأ في تلعثم على غير عادتي حتى انتهيت
وجلستُ، فمسحتُ ما كتبه في ارتباك دون أن يلاحظني أحد، لكنني
عدت وكتبتُه مجدداً في نهاية اليوم قبل موعد الانصراف بدقة
واحدة ..



كان نديم في انتظاري خارج المدرسة مثل اليوم السابق .. رأيته
ينظر نحوي في ترقب .. كانت تعابير وجهه تسألني إن كنت رأيت
سؤاله عن اسمي أم لا .. فأكملتُ طريقي دون أن أنظر إليه مرة أخرى
عنه يتذوق قليلاً مما ذقته من الانتظار قبل ذلك .. وركبتُ مع أبي
تفمرني سعادة بالغة ولذة انتصار عابرة بعد تجاهلي الموقت له ..
لكن في البيت صار عقلي منشغلاً به وبحديثنا المكتوب على التختة
الخشبية ..

باتت كلمات كتبي جميعها متشابهة .. تحججتُ إلى أمي بأن أوجع
حفظ دروسي ذلك اليوم، تمجبت مني لكنها وافقتني في النهاية ..
كان كل تفكيري في إجابته على سؤالتي .. أردت أن أعرف سر غيابه
لشهر كامل .. وتعمدتُ ليلتها النوم مبكرًا على ساعات الليل تمر سريعًا
.. ونهضتُ صباح اليوم التالي، وأعددتُ نفسي للذهاب .. كان أبي ما
زال نائمًا، فدلقتُ إلى حجرته، وهزته في تدمر:

- أبي، أنسيت أمر ذهابي إلى المدرسة؟

فتنظر إليّ متمجبًا بعين نصف مغلقة، وقال:

- أنسيت أنت أن اليوم هو يوم أجازة مدرستكم الأسبوعية؟

فتسمرتُ حرجًا في مكاني، لقد نسيتُ أن اليوم هو نهاية الأسبوع
بالفعل، وحدثتُ نفسي في ضيق:

- عليّ أن أنتظر أنا مجددًا .. كُتب عليّ الانتظار ..

وعدت إلى غرفتي وبدلت ثيابي، وانسللتُ أسفل فراشي محبطة ..



في اليوم التالي كانت إجابته قد كُتبت بالترصاص أمامي، كتب لي:

- كان عليّ أن أرسب .. ولم يكن هناك حل للرسوب إلا الغياب
لشهر كامل .. وإن سألتني عن رغبتني بالرسوب انظري إلى
الجانب الآخر ..

فَنظَرْتُ إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنْ سَطْحِ التَّخْتَةِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ كُتِبَ:

- إِنَّ هَذَا الْفَصْلَ الَّذِي تَجْلِسِينَ بِهِ هُوَ فَصْلُ الرَّاسِبِينَ بِمَدْرَسَتِنَا،
مَدْرَسَةُ الْقَتْيَانِ .. كَانَ رَسُولِي هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِلانْتِقَالِ
إِلَيْهِ، وَالْجُلُوسُ بِنَفْسِ مَقْعَدِكَ بَعْدَ مَسَاوِمَةٍ بَسِيطَةٍ مَعَ صَاحِبِ
الْمَقْعَدِ .. لَا تَنْسِي اسْتِخْدَامَ الْمَحَاةِ يَا غُفْرَانَ ..

ضَحَكْتُ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي بِصَوْتٍ هَامِسٍ:

- لَقَدْ رَسَبَ مِنْ أَجْلِي ..

فَنظَرْتُ إِلَى فَتَاةٍ مُجَاوِرَةٍ، فَأَوْحَيْتُ لَهَا بِأَنْتَنِي أَقْرَأُ مِنْ كِتَابِي ..
الْيَوْمَ صِرْتُ أَحَبَّ حَقًّا ذَلِكَ الْمَكَانَ، وَذَلِكَ الْفَصْلَ .. ثُمَّ بَدَأْتُ أُمَحِّو
كَلِمَاتِهِ عِنْدَمَا انْتَبَهَتِ الطَّالِبَاتُ مَعَ الْمُعَلِّمَةِ غَيْرَ أَنْ كَلِمَةَ غُفْرَانَ لَمْ
يُصَحِّحْ أَثَرَهَا .. لَقَدْ حُضِرَ اسْمِي بِأَلَّةٍ حَادَةٍ عَلَى الْخَشَبِ .. وَقَتَهَا تَمْنَيْتُ
لَوْ وَقَفْتُ بِمَنْتَصَفِ الْفَصْلِ وَقُلْتُ لِرُزْمِيلاَّتِي عِلَانِيَةً بِكُلِّ جَرَاءَةٍ: أَيُّهَا
السَّيِّدَاتُ، لَقَدْ بَدَأْتُ قِصَّةَ حُبِّي لِلنَّو .. ثُمَّ وَضَعْتُ جَبْهَةً رَاسِي عَلَى
رَاحَةِ يَدِي، وَأَمْسَكْتُ بِقَلَمِي الرِّصَاصِ .. وَفَكَّرْتُ قَلِيلًا فِيمَا أَكْتَبُهُ، ثُمَّ
كَتَبْتُ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ مِنْ سَطْحِ التَّخْتَةِ:

- لَنْ أَسْأَلَكَ أَيْنَ كُنْتَ الْأَعْوَامَ الْمَاضِيَةَ، لَكِنْ عَدْنِي أَلَّا تَغْتَفِي مَرَّةً
أُخْرَى ..

وَتَرَكْتُ جَمْلَتِي، وَغَادَرْتُ الْفَصْلَ مَعَ انْتِهَاءِ حَصَصَتِنَا .. كَانَ قَلْبِي
يَدُقُ مَسَارَعًا .. وَتَضَارَبَتْ مَشَاعِرِي دَاخِلِي بِقُوَّةٍ .. لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ إِنْ
كَانَ مَا فَعَلْتُهُ صَائِبًا أَمْ لَا .. سَرْتُ وَعَقَلِي لَا يَتَوَقَّفُ عَنِ التَّفَكُّيرِ .. كَيْفَ
أَطْلُبُ مِنْهُ وَعَدًّا كَهَذَا دُونَ أَنْ أَعْرِفَ عَنْهُ أَيَّ شَيْءٍ .. كُلُّ مَا عَرَفْتُهُ عَنْهُ

هو اسمه فحسب .. لماذا تسرعتُ بكتابتي تلك الجملة لأبوح له بتلقي
به بعد أيام فقط من حديثنا المكتوب؟

وقبل أن أعبر البوابة الحديدية وجدتُ نفسي أستدير، وهررتُ أن
أعود أدراجي لأمسح ما كتبتَه قبل دخول الطلاب .. واتجهت مسرعةً
إلى فصلي الخالي .. وما إن دلفتُ إليه وأغلقتُ الباب من خلفي حذر
كاد قلبي يتوقف بعدما وجدتُ معلمتي تجلس مكاني.



(٧)

كاد قلبي يتوقف عن النبض بعدما رأيت معلمتي السيدة «بيان»
تجلس مكاني، كذلك تبدل وجهها هي الأخرى بعدما رأيتني أعود
مجدداً إلى الفصل، وكأنها مفاجأة لم تكن تتوقعها قط .. فتسمرتُ
مكاني أنتظر منها أي ردة فعل، فبادرتني في تعجب:

- هل هناك أمر ما يا غفران؟

فقلت بارتباك واضح:

- لا ..

ثم أردفت كذباً في تلعمثم:

- لقد فقدتُ كيس نقودي .. أظن أنه سقط أسفل مقعدي ..

واقتربتُ منها بحذر حين قامت بتفقد أسفل المقعد ودُرج التختة
الخشبية، ثم قالت:

- لا شيء هنا ..

هاومأت برأسي إيجاباً، وأظهرت حزني وقلت:

- حسناً، سأبحث عنه في مكان آخر ..

بينما كنت أراقب تعبيرات وجهها بطرف عيني، ويدور عقلي بخلق
مبررات تحسباً لأي سؤال لها عن كتاباتي على سطح النخلة .. لكنها لم
تتفوه بشيء، بل لمحت لمة بعينها توحى بدموع أوشكت على السقوط،
ولاحظت شرودها وعدم مبالاتها بأمرى أصلاً، فقلت:

- سيدتي، هل هناك خطب ما؟

فابتسمت ابتسامة حزينة، وقالت:

- كل شيء بخير عزيزتي .. أصابني ألمٌ مضاججٌ في صدري فقط
بعد انتهاء حصتكم فجلستُ حتى يزول ..

ثم نهضت ومسحت على شعري، وقالت باسعة:

- حين يعبر عمرك الأربعين لن براودك إلا شعور واحد .. أن
العمر لم يبقَ فيه إلا القليل جداً، ولم تفعل في حياتك إلا
الأقل ..

فالتقطت أنفاسي، واطمأن قلبي بعدما تيقنت أنها لم تتبه إلى
كتاباتي، وسألتها:

- كم عمرك الآن سيدتي؟

فكانت:

- تجاوزت الأربعين منذ أيام ..

قلت:

- حسناً .. لديك عشر سنوات لتفعلني كل شيء ..

وأردفت إليها في حماس:

- سأفعل كل شيء قبل أن يحين موعد رحيلي ..

فقال:

- لا تجري الأمور كما نخطط لها أبداً .. لكنني أتمنى لك ذلك
على أي حال .. هيا بنا، لقد بدأ الطلاب في دخولهم إلى
المدرسة ..

فانظرت خلسةً إلى تفتتي .. تمنيت لو تركتني لحظة واحدة أصحو
فيها ما كتبته، لكنها أمسكت بيدي وهي تقول:

- هيا .. لا تضعي همًا لنفودك المفقودة .. سأسأل زميلاتك عنها
غداً ..

ثم خرجنا معاً .. وصرنا في طريقنا إلى خارج المدرسة .. كان نديم
قد قابلنا في الردهة قبل عبورنا البوابة، والتقت عينه بعيني فهربت
عيني سريعاً .. وواصلتُ طريقي مع السيدة بيان، ثم ودعتها وتمنيت
لها الشفاء، قبل أن أتجه إلى أبي الذي كان يقف في انتظارني.



في المنزل ظل بالي منشغلاً بما كتبتة إلى نديم .. ودار عقلي
بمخالات كثيرة عن رده المنتظر، لكنني عدت وحدثت نفسي بأن القدر
من أراد ذلك، كان من الممكن أن أمحو كلماتي عندما عدت إلى الفصل
لكن القدر وضع لي السيدة بيان بمقعدتي لتمضي قصتها في طريقها
دون توقف .. ثم جال ببالي حديثها عن حياتها التي ستنتهي بعد عشر
سنوات ..

لم أذكر من قبل في ذلك الأمر كثيرًا .. إنها تقارب سن أبي وأمي
تقريبًا .. لقد تجاوز أبي الأربعين منذ عامين، وأمي تصغره بعام واحد
.. هذا يعني أنني بعد أقل من تسعة أعوام سأأمسي وحيدة .. كانت
المرّة الأولى التي أدرك فيها أن قاعدة بلادنا الأولى قاسية للغاية ..
أتذكر تلك الرعشة التي سرت بجسدي بمجرد تخيلي كوني وحيدة في
هذا العالم .. وقتها انزويت أسفل فراشي دون أن يتوقف رأسي عن
الوساوس والخيالات الموحشة .. وظل النوم مفارقًا لعيني حتى وقت
متأخر من الليل.



في بداية اليوم التالي سألتني السيدة بيان قبل دخولي إلى الفصل
إن كنت قد عثرتُ على نقودي المفقودة، فهزرت رأسي إيجابًا بإبتسامة
مزيفة، وقلت: نعم .. واتجهت إلى تحتني الخشبية شاردة .. كان أُنذ
تفكيرتي في الليلة الماضية لا يزال يشوش عقلي .. أتذكر أنها المرّة
الأولى التي أشعر فيها بضيق إلى ذلك الحد .. ثم جلستُ على مقعدتي

ونظرتُ إلى سطح النخلة أمامي .. فوجدتُ سؤالي قد مُحي. وكُتب
بدلاً منه:

- أعدك بأنني سأخبرك قبل غيابه المرة القادمة ..

لم يكن ذلك الوعد الذي أمنتظره .. هذا يعني أنه قد يغيب مجدداً ..
.. ماذا سيفعل وقتها إن أخبرني عن غيابه قبلها أم لم يخبرني ..
النتيجة واحدة، فزادت إجابته من شعوري بالضيق، ووجدت نفسي
أحمو ما كتبه في غضب دون أن أكتب إليه شيئاً .. ثم أخرجت كرتي
وانتهيت إلى معلمتي .. حتى انتهى يومنا وعدت إلى بيتي. وهناك
سألت أمي:

- هل سترحلان أنت وأبي وتركانني وحيداً؟

فألت أمي متعجبة:

- من قال ذلك؟

قلت:

- سيبلغ أبي الخمسين بعد ثمانية أعوام، وستلحقين به بعدها
بعام ..

فأنتبهت أمي إلى مقصدي، وقالت:

- لا عليك أن تفكرني بهذا الأمر .. إنها القواعد يا غفران ..

قلت بصوت مختنق بالدموع:

- لكني سأبقى وحيدة ..

قالت:

- سأحرمي أنا ووالدك على إنجاب ما يكفي من أطفال قبل
موعد رحيلنا ..

قلت:

- ولكني أريدكما أفنما ..

قالت:

- ستكبرين ومع الوقت ستدركين أن هناك أمورًا لا نستطيع
تغييرها أبدًا .. إن أرواحنا جارتينية، وطالما بقيت جارتينية
صار عليها الاكتفاء بخمسين عام فقط .. هناك الكثير من
المواليد الشرفاء لهم الحق في نيل أرواحهم ..

وأكملت:

- وخمسون عامًا ليست بالقليل ..

ثم قُبلت شعري، وقالت:

- لن أموت قبل أن أطمئن أن هناك مَنْ سيبقى بجوارك حياتك
كلها ..

فسألتها:

- كيف ستموتون؟

كانت المرة الأولى التي أسأل فيها ذلك السؤال أو يدور في ذهني حتى. فصمتت أمي ثم قالت:

- إن لم يهزمنا المرض قبل بلوغنا الخمسين صار علينا التوجه شرقاً إلى وادي حوران، هناك سيجد رجال الدين طريقة غير مؤلمة لحصاد أرواحنا ..

قلت:

- وماذا لو لم تذهبوا إلى هناك؟

ابتسمت وقالت:

- وقتها سأصبح أنا وأبوك ضيقاً على منصة إعدام جويدا، وبدلاً من أن تذهب أرواحنا إلى شرقاء چارتين سيحصدوها أطفال النساء .. إن قوانين چارتين واضحة يا ابنتي .. خاصة ما تعلق منها بشأن أرواحنا .. لقد خلقت قواعدنا لبقاء بلادنا ونسلنا ..

قلت وأنا أمص دمة هربت إلي وجنتي:

- وماذا لو رحلنا عن چارتين وعبرنا إلى آخر العمر؟

قالت بهدوء:

- وقتها ستنقطع الروح عن نسل عائلتنا للأبد .. سيصيب العار العائلة بأكملها .. ستختصم الروح أجنتنا .. إن رحلت مثلاً أنا أو أبوك وخالفنا القاعدة الأولى لن يستطيع أي من

يحمل دماءنا إنجاب أطفال أبداً، حتى نزول سلاتنا ..
إننا سنموت سنموت .. لكن موتنا هنا طبقاً لقوانيننا يضمن
لأبنائنا البقاء من بعدنا .. أما هروبنا ليس إلا نوعاً من الأنانية
.. سننجو بأرواحنا عدة أعوام لكن سيبقى أولادنا وحيدين
حتى يموتوا هم الآخرون ..

وأكملت:

- إن أفضل ما في الأمر أننا سنموت في أعز عمرنا قبل أن تشيع
أجسادنا، وسألني:

- هل رأيت من قبل نسلنا عجوزاً على منصة الإعدام؟

فهزئت رأسي نفيًا، فقالت:

- سترين مع الوقت .. لا يخضع النسالي للقاعدة الأولى .. ترى
القواعد أن إخضاعهم لهذه القاعدة راحة لأرواحهم الآثمة
وتلوث لوادي «حوران» .. يستطيعون المضي قدمًا في أعمارهم
البائسة طالما لا تطلأ أقدامهم المدينة بعد عبورهم الخمسين ..
والا كانت منصة الإعدام مصيرهم .. لذا يظلون مشردين في
الصعاري والوديان حتى تنفق أجسادهم ..

إننا بلد الشباب .. انظري إلى الجانب الإيجابي من هذا الأمر
.. إن بلدنا بلد قوي متقدم .. لا يستطيع أي بلد آخر الاقتراب
منا، وعقول حكامنا الشباب متجددة باستمرار .. إن جاء أي
غريب إلى بلدنا اجلسي معه واسأليه عن حال البلدان الأخرى
في ظل وجود المعجزة على رأس حكمها.

وابتسمت وهي تتابع:

- لقد جلستُ هذه الجلسة ذاتها مع أمي حين كنت بعش عمرك .. ومع الوقت أدركت حقاً أنها على حق .. لقد ذهبت أمي وأبي إلى وادي حوران من أجل بقائي وبقائك وبقاء سلالتك .. وهكذا سأفعل وسيفعل والدك .. إننا نحبك ونحب بلدنا .. وإن كان لنا هدف في هذه الحياة فهو أن تبقى سلالتنا على أرض چارتين سلالة شريفة هدفها أن تُبقى بلادنا خير بلاد هذا العالم .. ستجدين حبيباً سيبقى معك للأبد، ستميشين معه حتى انتهاء أعوامكما، وستزرعين حب قواعد بلادنا في أولادكما ليزرعوها في أولادهم ..

وضممتني إلى صدرها ، وقالت:

- أنعني أن أصل إلى ذلك اليوم الذي أحضر فيه زفافك ..

وقبّلت رأسي من جديد ، وواصلت:

- لا تتعجلي اختيارك لشريكك فحسب .. مهما بلغ بك العمر فسيظل في النهاية أعواماً معدودة .. اختاري من يجعل منها العام الواحد يساوي مائة عام ..

فضحكت وقبّلت خدّها .. وعدت إلي غرختي، وهذا تفكيرتي حتى أن النوم قد غلبني بعدما فارقتني الليلة السابقة ..



في اليوم التالي كان الحماس الذي أشعر به مختلفًا تمامًا .. كانت كلمات أمي عن حسن اختياري لشريكى لا تزال ترن في أذني. وجلستُ على مقعدي في الفصل .. لأجد نديم قد كتب لي رسالة:

- «قد يكون أحزنك عدم وعدي لك بالآأ أغيب مجددًا .. لكنني اعتدت ألا أعد بشيء لا أوقن بتحقيقه .. حسنًا، إن اضطررت إلى الغياب مرة أخرى سأسمى ألا تطول فترة غيابي .. غير ذلك سأبقى معك للأبد ...»

ابسمت ومحوت ما كتبه، وكتبت دون تفكير:

- للأبد؟

أجابني في اليوم التالي:

- نعم .. سأظل معك للأبد حتى تنتهي سنوات عمري ..



هكذا أخذت قصصنا مسارًا جديدًا، مسارَ عنوانه «لأبد»، وبدأنا نكتب عن كل شيء .. ما نحب، ما نكره، ما يحبه أهلنا، ما يكرهونه، أيام الغفران وما يحدث فيها، مدرستي القديمة، عربة أبي ومكتبتي، صديقاتي القديعات، كل شيء .. أخبرته أنني من جويذا وأخبرني أنه من الجنوب .. أخبرته أنني لا أملك صديقات في مدرستي الجديدة بعد، فأخبرني أنه يشبهني تمامًا في ذلك .. صار صديقي الأوحـد، وصارت المدرسة متلفسي الحقيقي للبوح بكل شيء ..

ما كنت أتعجب منه حقاً أنه رغم انشغالي الذهني القام بنديهم صار تحصيلي الدراسي أفضل كثيراً عما كنت عليه قبله، وثلت ثناء المعلمين جميعهم على الرغم من قلة ساعات دراستي المنزلية كل مساء .. حتى ظننت أن القدر قد أعاد ذلك الفتى إلى حياتي في ذلك التوقيت كي يدفعني قدماً نحو تحقيق حلمي بالالتحاق بالمدرسة العليا لدار القضاء في جارتين.



(٨)

على نحو أربعة أشهر لم يمر يوم دراسي دون أن نكتب إلى بعضنا البعض .. فلم رصاص يكتب .. يقرأ أحدنا ما كتبه الآخر، يقوم بمحوه على الفور ليكتب ما يريد إخبار شريكه به .. صرْتُ أكره أيام الأجازات المدرسية وأنتظر مرور ساعاتها بفارغ الصبر .. حتى عندما أصبت بالحمى إثر التهاب حلقِي أصرَّت أمي علي تفيبي من المدرسة لكنني كنت أكثر إصرارًا على الذهاب، وفعلتُ ذلك وذهبتُ إلى المدرسة بفلي جسدي من الحرارة كي لا أضيع يومًا واحدًا من حديثنا الذي أحبه ..

أربعة أشهر كان كل يوم منها يحمل معلومة جديدة عن الآخر .. أيام متتابة لم نتحدث فيها وجهًا لوجه مرة واحدة، أو يسمع أي منا صوت الآخر .. تمنيت داخل نفسي لو أوقفته ذات مرة أثناء تلافِي أعيننا خارج المدرسة وتحدثنا أمام زملائنا جميعًا، أو لو تلتقي يومًا بباحة جويدا التي لا يحب أن يزورها، لكننا واصلنا حديثنا المكتوب ..

ولأن لكل طريق عقباته، جاء ذلك اليوم في نهاية الشهر الرابع حين دلف إلينا المعلم، وأخبرنا أن الأجازة الموسمية ستبدأ بعد أسبوع من ذلك اليوم لمدة شهر كامل .. فبدأت الفرحة على وجوه جميع الطالبات بالفصل عدا وجهي الذي تجهم، وبينما زادت همهمات زميلاتي السارة من حولي بعد انتهاء المعلم من حديثه كان قلبي الرصاص يكتب على سطح التخته دون مقدمات:

- هل لنا أن نتقابل بباحة جويدا يوم الغفران القادم؟

جاءني الرد في اليوم التالي بكلمة واحدة فقط على الجانب الأيمن من سطح التخته:

- نعم ..

وعلى الجانب الأيسر كتب:

- أين سنقابل؟

فمحوت سؤاله سريعا في فرحة، وكتبت:

- المدخل الشرقي الأوسط ..

اعتقد أنني أكثر أهل جارتين معرفة بمداخل ومخارج باحة جويدا .. وكنت أعرف أن ذلك المدخل هو الأكثر زحاما على الدوام بين مداخل الباحة الثمانية، كما أن أبي وأمي قد اعتادا الذهاب إلى هناك عبر المدخل الجنوبي، ولم أرد هما أن يرياني تلك المرة ..



كان يوم الغفران بعد ستة أيام فقط من ذلك اليوم .. قضيت أربعة منها في حيرة بالغة عن الثياب التي سأرتديها يومها، كل ما جال في ذهني أن أبدو جميلة في ذلك اليوم .. حتى انتهى بي الأمر إلى هستاني السماوي القصير ذي الأكمام القصيرة والخصر الضيق والذي يعبر ركبتي بقليل، وحذاء جلدي أسود كانت أمي قد أهدته لي قبل سنة وما زال بحالة جيدة ..

ثم أخبرت أبي أثناء تناولنا العشاء ليلة يوم الغفران أنني لن أرافقهما غد ذلك اليوم .. وأردفت له عن اتفاق عقدته بيني وبين زميلات مدرستي للقاء في باحة جويدا بعيداً عن أهاليها .. فاقترح أن نذهب ثلاثتنا سوياً ثم أفترق عنهم هناك، لكنني تحججت بأنني سألتقي صديقاتي متأخراً قليلاً عن بدء مراسم الباحة، وسألته أن يذهب هو مع أمي وأن أتدبر ذهابي بمعرفتي .. ففكر قليلاً ثم ربح بحديثي، وسألني أن أحرص على سلامتي بين زحام الباحة، فوعده بذلك، غير أن الارتياح لم يجد موضعاً على وجه أمي.



كانت باحة جويدا تقع على مسافة ميل ونصف من بيتنا القديم، وكانت المرة الأولى في سنواتي الأربع عشرة التي أذهب بها إليها بمفردي دون أبي .. تأكدت في الصبيحة من مفادرة أبي وأمي، ثم انتظرت قليلاً قبل أن أغادر بيتي إلى هناك .. كانت هناك على الدوام عربات خشبية مجرورة بأحصنة تنقل سكان جارتين إلى الباحة مقابل قدر ضئيل من المال، فالتحقت بإحداها خوفاً من إفسادي لثيابي وحذائي إن قطعت الطريق سيراً على أقدامي .. وسألت قائد العربة

أن يُنزلني علي بعد أمتار قبل الوصول إلى حرم الباحة الجنوبي الذي تتجمع فيه العربات المجرورة المملوكة لأصحابها من أهل جارتين .. ثم اتجهت سيرًا على قدمي إلى الجهة الشرقية عبر ممر ترابي بيبضاوي يحيط بالباحة ..

كان الزحام شديدًا كمادة أيام الففران في فصل الخريف .. ألوف من المكان، فتنان وفتيات يسبرون محتشدين .. نساء ورجال وأطفالهم .. لا يفوتون أيام عيدنا .. وكان الممر الشرقي الأكثر زحامًا كمادته حتى أنني خشيت ألا يجدني نديم وسط الزحام، وندمت على اختيار ذلك المدخل تحديدًا.

كانت الباحة مُحاطة بسياح حجري تتراس علي قمته رؤوس حديدية حادة للغاية لا تمكّن أحدًا من عبوره دون أن يُصاب .. كان يحيط بها على امتداد محيطها عدا مداخلها الثمانية .. كان ذلك السباح قصيرًا حيث يستطيع من بداخل محيط الباحة رؤية من بخارجها والعكس صحيح تمامًا .. حتى أنه مع أيام الزحام الشديد وعدم وجود أي حيز داخل الباحة كانت الممرات الجانبية خارجها تمتلئ بالكثير من الأهالي الذين لم يتمكنوا من اللحاق بأماكن لهم داخلها .. غير أن الحوامل ممن أردن حصد أرواحًا لأطفالهن كان عليهن التواجد داخل محيط ذلك السباح الذي لا تعبره روح المدموم.



وصلتُ إلى البوابة الشرقية الوسطى، ووقفتُ بجانبها على أطراف قدمي لعلّي أصبح أكثر طولًا، وبحثتُ بعيني بين وجوه المارين عبرها

والقادمين إليها دون أن أنجو من تعليقات الشبان الذين لم يكفوا عن مضايقة الفتيات .. ومر قليل من الوقت دون أن يظهر، وبدأت أشعر بألم في مفصل قدمي سواء من الوقوف علي أطرافها أو من تكرار دهسها من العابرين، قبل أن أسمع صوته للمرة الأولى يناديني:

- غفران ..

فالتفتُ نحو الصوت المميز وسط ضجيج الباحة .. كان هو، يقف على الجانب الآخر من السور داخل الباحة، تملو وجهه ابتسامة عريضة، فضحكت واتجهت إلى داخل الباحة في اتجاهه، حتى اقتربت منه ولم يعد بيننا إلا خطوة واحدة، فوقفنا صامتين لهنيهة، قبل أن ينطق:

- كان الطريق إلى هذه البوابة مزدحمًا للغاية فدلضتُ إلى الباحة عبر البوابة الجنوبية، وتخطيت الحشود حتى أصل إليك ..

فهزرت رأسي باسمه دون أن أنطق، كنت أشعر أن وجهي يشع صهداً حتى كدت أسأله إن كان وجهي محمراً أم لا ..

كانت المرة الأولى في حياتي التي ألتقي فيها شاباً وأحدثه وجهاً لوجه، وأي شاب ! .. الشاب نفسه الذي تعلق به قلبي منذ سنوات في ذلك المكان نفسه .. دون أن أعرف اسمه أو صوته أو أي شيء عنه .. حرك يده أمامي بعدما طال صمتي كأنه يتأكد أنني ما زلت واعية، فضحكت، فقال وهو ينظر إلى ثيابي:

- فستانٌ جميل ..

قلت في خجل:

- حقاً؟ ..

قال باسمًا:

- نعم .. تبدين جميلة للغاية ..

قلت بوجه أكثر احمرارًا:

- شكرًا ..

كان الناس يواصلون تدفقهم إلى الباحة، وارتطم بنا أكثر من شخص، فقال نديم:

- هيا بنا ..

فلوأمأت برأسي إيجابًا، فقال:

- أي مكان تفضلين؟

قلت وأنا أشير بيدي إلى منتصف الباحة:

- المنتصف تمامًا ..

فوجدته يمسك بيدي، ثم بدأنا نشق الحشود إلى وسط الباحة في صعوبة شديدة .. كان ذلك المكان الأنسب لنا .. بعيدًا عن المكان الذي يفضلُه أبي بمقدمة الباحة، كما أنه يتوسط البوابين الشرقية والغربية الوسطيتين إن أردنا الرحيل في أي لحظة .. كان نديم يعتذر إن ارتطمت قدمه بأي شخص، وبينما كان يعتذر هو كانت العيون

تفحصني أنا، معا زاد توتري .. حتى توقفنا في منتصف الباحة
خلف رجلين قصيرين .. ثم دقت الطبول، فهذا ضجيج الحاضرين،
فقلت لنديم:

- ستبدأ مراسم إحدى الزيجات الآن ..

قال:

- ثم أت إلى الباحة منذ أعوام ..

فسألته بتفائية:

- لماذا؟

قال:

- يستغرق طريقي إلى هنا وقتاً طويلاً .. وكانت أُمي مريضة
دائماً ..

قلت:

- اها ..

ثم نظرت إلى القائم الجانبي الطويل الذي كان يتشبث بقمته قبل
سنة أعوام .. كانت راية بيضاء كبيرة قد علقت على قمته .. فقلت
ضاحكة وأنا أشهر نحوها:

- أنتذكر مكانك أم نسيت؟

فقال ضاحكاً وهو ينظر تجاهها:

- بكل تأكيد ..

ثم سألتني بعدما حوّل بصره إلى المنصة:

- هل يعرف الناس ماذا سيحدث على المنصة اليوم ؟

قلت:

- لا ..

وأردفت:

- لكن إن لم يكن هناك زواج أو إعدام أحد المجرمين لن تخلو
المنصة من عروض المهرجين والبهلوانات والفرق الراقصة ..
سبقى اليوم ممتعاً على أي حال .. إنه يوم عيدنا حقاً ..

قال:

- أرى أنك تحبين هذا المكان كثيراً ..

قلت:

- نعم ..

وكان القاضي الكبير الذي يقترب عمره من الخمسين قد صعد
إلى مقعده على جانب المنصة الأيمن بعد صعود اثنين من مساعديه،
فقلت:

- أتريد أن أخبرك سرّاً ؟

فقال:

- نعم ..

قلت وأنا أشهر إلى القاضي:

- إن هذا حلمي ..

وأكملت:

- أريد أن التحق بالمدرسة العليا لدار قضاء چارتين لأصبح قاضية المنصة ذات يوم ..

فابتسم. وقال:

- ستصبحين أشهر امرأة بچارتين إذا ..

فقلت ضاحكة:

- سأسعى إلى ذلك بكل تأكيد ..

فقال:

- سيكون ذلك شيئاً يسعدني ..

فقلت:

- وما حلمك ؟

زَمَّ شفتيه وصمت قليلاً قبل أن يقول:

- لا أعلم .. لم أمتلك حلمًا بعد ..

مأثته في تمجب:

- حقاً؟

قال مفكراً:

- انتظري .. لدي حلم ..

مأثته علي الفور:

- ما هو؟

قال باسمًا:

- سأخبرك به لاحقاً ..

فقلت في غيظ:

- لقد أخبرتك عن حلمي .. أريد أن أعرف حلمك ..

فقال ضاحكاً:

- لاحقاً لاحقاً ..

فرممت شفتي مازحة .. ثم بدأت الموسيقى في عزف لحن أعرفه
عن ظهر قلب، وبدأ الحاضرون بالنصفيق المتناسق مع ذلك اللحن،
وبدأت أصفق بيدي مثلهم .. فضحك نديم، وقال:

- زواج أم إعدام؟

قلت:

- زواج بالطبع ..

ثم صعد إلى المنصة شاب عاري الصدر يرتدي سروالاً رمادياً ..
يمسك بيد عروسته التي ترتدي فستاناً أبيض عاري الكتفين .. قبل
أن يقفا أمام الجميع على المنصة ، ثم ركعا على ركبتيهما ، فضجت
الحشود بالتهليل والتصفيق ، ودوت الصافرات التي أطلقها كثير من
الشبان بالبياحة .. ثم نهض القاضي الكبير وتحرك على المنصة في
اتجاه الحافة القريبة من الجمهور .. وأعلن بصوته الذي لم يصلنا
من الضجيج عن زواج ذلك الشاب الشريف بتلك الفتاة الشريفة من
أهل چارتين .. ليصير من بعدهما أبناؤهما شرفاء خاضعين لقواعد
چارتين حقاً وواجباً .. لتعلو الموسيقى المرحية من جديد ، بينما كنت
أراقب بعيني نديم الذي اندمج للغاية مع مراسم الزواج حتى أنه سكت
تماماً عن الحديث ، فقلت :

- ما الذي يدهشك إلى هذا الحد .. لقد تزوج كل أهل چارتين
بهذه الطريقة ..

قال ضاحكاً :

- نعم .. أعرف ذلك ، لم أشاهد المراسم منذ كنت طفلاً
فحسب ..

ثم بدأت عروض فرقة البهلوانات على المنصة بعد مغادرة
العروسين ، كان ثمة مهرجين ذوي وجوه ملونة وشعر مستعار يقومون
بحركات وقفزات مضحكة بالتناسق مع الموسيقى الخاصة بهم ..

كنت قد شاهدت ذلك العرض عشرات المرات مثل باقي حضور
الباحة لكن هذه المرة بالذات كنت أضحك كثيراً كلما رأيت نديم
يضحك على حركة يقوم بها أحدهم .. ثم انتهت العروض الضاحكة
فانطلقت الأبواق المتقاطعة مع دقائق الطبول .. عزف آخر نغمة
جميعاً ..

مراسم إعدام أحد المذنبين .. فهدأ ضجيج الحاضرين مرة
أخرى، ثم صعد إلى المنصة مع انتهاء العزف زوج من الجنود ..
يجرون امرأة مغطاة الرأس بغطاء قماشي أسود، وتوقفوا بمنتصف
المنصة ثم قام أحدهما بنزع غطاء الرأس، فانسدل شعرها على
وجهها، قبل أن ينهض القاضي مجدداً .. ويلقي خطاباً جديداً ليصعد
ضابط إعدام الباحة إلى المنصة .. أو ما نسميه «رامى المنصة»، ويقف
منتصباً كالفائز على بُعد خطوات من تلك المرأة ينظر إلى الحشود
ليسود الصمت كافة الأرجاء، فهيمستُ إلى نديم، وقلت:

- سنتسمع الآن صوت البارود، ومن بعده سنتسمع إحدى الزغاريد
لمن حصدت روح هذه المرأة لطفلها ..

قال وهو يترقب المنصة:

- أعرف ذلك .. لست غريباً عن هذا البلد .. إنتني جارتيني أنا
الأخر ..

فقلت مازحة:

- حسنًا أيها الهارتشي .. توقع إذا من أي مكان يالباحة ستطلق
الزغردة ..

قال:

- لا أدري ..

قلت:

- أراهنك أنها ستأتي من هناك .. وأشرت ناحية شرق المقدمة،
فقال ضاحكًا:

- وما قيمة رهانك إذا ؟

سكتُ ثم قلت:

- لم أهنر بقيمة الرهان .. لم أراهن أحدًا من قبل .. لكن اختر
مكانًا وإن فزت سأبقي لك أي طلب.

قال في مكر:

- أي طلب ؟

قلت بثقة:

- نعم ..

قال:

- حسنًا .. ستطلق الزغردة من منتصف الباحة .. على يد
خطوات قليلة منا .. وأشار ناحية يميننا ، فقلت:

و ثم نمر لحظات حتى انتهى القاضي من كلمته ، واستدار الرامي نحو المذنبه ، ورفع يده بسلاحه الناري قبل أن يدوي صوت البارود في سماء الباحة ويسقط جسد المرأة صريعاً بموضعه ، ومعه ازداد الصمت صمناً .. وكسا الترقب وجوه من الباحة ، قبل أن يقطع ذلك السكون زغرودة عالية طويلة أطلقت بمنتصف الباحة على بعد خطوات من الجهة اليمنى لنا .. كما أشار نديم تعاماً .. فنظرت إليه في بلاهة غير مصدقة ، فقال :

- لقد ربح الرهان إذا ..

كانت الدهشة لا تزال تعترى وجهي ، فأردف :

- الآن أريد جائزتي ..

فأومأت برأسي إيجاباً في انتظار ما يطلبه .. فقال وهو يشير نحو الجهة التي أطلقت منها الزغرودة :

- انظري هناك ..

فالتفتُ نحو ما أشار إليه .. فطبع على خدي الأيسر قبلة .. وانطلق جرياً بين الحشود .



(٩)

قَبِّلَنِي نَدِيمَ وَانْطَلِقْ رَاكِضًا بَيْنَ الْحَشُودِ، ثُمَّ تَوَقَّفْ عَلَى بَعْدِ أَمْتَارِ،
وَارْتَقِ بِرَأْسِهِ بَيْنَ الرُّؤُوسِ، وَصَاحِ إِلَيَّ؛

- سَنَلْتَقِي يَوْمَ الْغُضْرَانِ الْقَادِمِ مِثْلَمَا التَّقِينَا الْيَوْمَ، وَأَرْدَفَ
بَصُوتِهِ الْعَالِي وَهُوَ يَلُوحُ بِيَدِهِ؛

- أَجَازَةُ مَدْرَسِيَّةٍ سَعِيدَةٍ ..

كَانَ الذَّهْوُولُ لَا يَزَالُ مَنْطَبِعًا عَلَى وَجْهِهِ إِثْرَ قَبْلَتِهِ الْمَفَاجِئَةِ، وَحِينَ
أَفْقَتْ مِنْ ذَهْوُولِي كَانَ قَدْ اخْتَفَى وَلَمْ يَبْدَعْ لَهُ أَثَرُ.

ثُمَّ بَدَأَتِ الْأَجَازَةُ الْمَدْرَسِيَّةُ يَوْمَنَا التَّالِيَّ .. ثَلَاثُونَ يَوْمًا انْشَغَلْتُ
بِهَا مَعَ أُمِّي بِأَعْمَالِ الْمَنْزِلِ نَهَارًا، وَحَضَيْتُ أُمْسِيَّاتِي مَعَ أَبِي نَتَاقَشُ كُلَّ
لَيْلَةٍ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ مَكْتَبَتِهِ، أَمَّا أَوْقَاتُ مَا قَبْلَ النَّوْمِ فَهَذَا انْفَرَدْتُ بِهَا فَتَنَّا
كَامِلَةً .. وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ يَوْمًا وَرَاءَ يَوْمٍ دُونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ أَيُّ شَيْءٍ، حَتَّى جَاءَ
يَوْمُ الْأَجَازَةِ الْأَخِيرِ الَّذِي وَافَقَ يَوْمَ الْغُضْرَانِ الْجَدِيدِ ..



تحدثتُ إلى أبي وأمي بحجة لا أتذكرها .. أعتقد أنني أخبرتهم
عن اتفاق جديد مع زميلاتي بأن نكرر لقاءنا يوم الفجران السابق ..
كان أبي مرحباً كمادته خاصة أنني أظهرت أنني قد اكتسبت صديقات
جداً وهو الأمر الذي كان يراه جيداً ..

يحتاج المرء في چارتين إلى أصدقاء في مثل عمره على الدوام ..
عند وقت ما لن يبقى أي من الوالدين أو الأقارب الأكبر سنًا .. لكن
أمي أصرت تلك المرة أن أرافقهما بعربة أبي إلى الباحة .. وهناك
يمكنني أن أفترق عنهما، على أن أعود إليهما مع انتهاء مراسم
اليوم .. فقبلتُ بما قالته .. ثم اتجهت بمجرد وصولي جنوب الباحة
إلى المكان ذاته الذي التقيت به نديم قبل شهر .. البوابة الشرقية
الوسطى، فوجدته في انتظاري. ضحك حين رأني أقترّب منه، فقلت
محدّرة له بسبابتي بعدما مدّ يده ليصافحني:

- لا قبالات ..

فواصل ضحكه، وقال:

- عليك أن تكسبي الرهان إذا ..

فضحكت، ثم سرنا سويًا إلى داخل الباحة تجاه منتصفها .. ثم
يكن إعدامًا واحدًا ذلك اليوم .. بل كان إعدام ثلاثة مذنبين جميعهم
رجال .. ولم يكن هناك زواج، قلت:

- أتعرف لماذا يكثر الرجال عن النساء في الفسالي؟

قال:

- لماذا؟

قلت:

- لأن معظم المذنبين رجال ..

وأكملت موضحة:

- تذهب روح المذنب للجنين الذكر .. وكذلك روح الأنثى
للأنثى .. لولا تلك النساء اللاتي يرتكبن جريمة كل بضعة
أشهر لكانت معظم الأجنة الإناث.

قال بغير اعتناع:

- ربما ..

ثم أضاف:

- إنه قدرٌ ليس إلا ..

قلت ساخرة:

- حسناً أيها الحكيم .. من أي المناطق تتوقع أن تنطلق الزغاريد
الثلاثة اليوم؟

صمت مفكراً .. ثم قال بجديّة:

- يعين المقدمة ..

وأشار بيده إلى هناك، ثم تابع:

- ويسار المنتصف - وأشار إلى يسارنا - كانت امرأة حامل تصف على يمد خطوات منا .. رأيتها تنظر بترقب بالغ نحو النصبة دون أن يرمش لها جفن ..

ثم صمت قليلاً مرة أخرى، وقال هادئاً بعدها:

- وجنوب الباحة .. لكنني لا أدري يسارها أم يمينها ..

قلت له ضاحكة:

- عليك أن تحدد والا تخسر رهانك ..

قال باسماً:

- يسارها إذا .. لكنني لن أرتب لك أي منهم ستنتطلق بالبداية، وأنت ماذا تتوقعين؟

ضحكتُ وقلت:

- لا .. لن أتوقع، سأرى فقط إن كان توقعك اليوم صحيحاً مثل المرة السابقة أم لا ..

قال:

- وإن فزت؟

قلت مازحة:

- سأضع يدي على خدي وقتها ..

ثم دوى صوت الرصاصة الأولى، وهدأت الأصوات من حولنا قبل أن تنطلق زغرودة من السيدة بجانبنا حيث أشار نديم .. فضعك بثقة، وأنا لا أصدق أن ذلك قد حدث .. ثم جُر القتيل الأول إلى خارج المنصة .. وبعد لحظات دوت الرصاصة الثانية، فانطلقت زغرودة بالمقدمة لكني لم أستطع تحديد من أي جهة انطلقت، الجهة اليمنى أم اليسرى، لكنها جاءت من المقدمة على أي حال كما توقع، ثم دوت الطلقة الثالثة، وساد الصمت أرجاء الباحة في انتظار انطلاق الزغرودة الأخيرة، لكن الصمت قد طال دون أن تنطلق أي زغرودة، فقال باسمًا وهو ينظر إليّ:

- لقد خذلني الجنوب ..

قلت:

- إنها روح طاهرة .. أعتقد أنه كان مظلومًا .. لقد ارتاحت روحه للأبد ..

فهز رأسه إيجابًا في صمت وهو ينظر إلى جثة الممدوم الأخير .. ثم بدأت الهمهمات من حولنا، وزادت شيئًا فشيئًا حتى صارت ضجيجًا .. كان واضحًا أنهم قد تجاهلوا أمر السيدتين اللتين حصدتا أرواحًا لأطفالهما وصار حديثهم جميعًا عن الروح الثالثة التي جُنبت العار .. وكانت الشمس قد تحركت عن منتصف السماء بقليل عندما دقت الموسيقى لتعلن عن بدء عروض فرقة البهلوانات، فأمسك نديم بيدي ووجدته يسير بي ناحية البوابة الشرقية الوسطى التي دلفنا عبرها قبل ساعات، فسألته متعجبة:

- ما الأمر ١٥

قال:

- هناك مرج رائع بجوار الباحة تفقدته قبل أيام ..



سرنا عبر المرج الشرقي الذي يفصل الباحة عن النهر الجاف ..
وهناك هبّ نسيم منمش مُحمل برائحة زهوره البرية فأدركتُ معه أن
اختيار نديم لذلك المكان كان صائبًا تمامًا .. حتى توقفتنا على ضفة
النهر الجاف .. لم يكن يتواجد هناك وقتها سوانا، ثم جلس صديقي
موضعه على حافة الضفة، وأشار لي أن أجلس بجواره، فجلست، وصاد
الصمت قليلًا قبل أن أسأله بجديّة:

- كيف نعرف أماكن انطلاق الزغاريد؟

فقال:

- صدفة ليس إلا ..

قلت:

- لا أصدق ذلك .. لا تصيب الصدفة على الدوام ..

قال بإسماً:

- حسناً .. لقد خذلت إحدى الأرواح صدفتي ..

قلت:

- اعتقد أنها لو كانت روحاً آتمة لحصدتها حبلتي تقف بالجنوب
كما توقعت ..

قال ضاحكاً:

- لست عرافاً ..

قلت:

- حسناً، سنرى ذلك أيام الفطران القادمة ..

فهز رأسه باسمًا قبل أن يلقي بحجر صغير تجاه اليرزخ أمامنا.
فتدحرج حتى استقر أسفل منا بعيداً .. فقلت وأنا أنظر إليه، وكنت قد
ضمنت ركبتي إلى صدري وأحطتهما بذراعي:

- هل رسبت حقاً من أجلي؟

هز رأسه، وقال:

- نعم ..

فابتسمت واحمرّ وجهي، ونظرت بعيداً إلى البيوت المتلاصقة على
الجانب الآخر من النهر الجاف، وفلتت بعمداً صمْتُ لبرهة:

- كيف جاءتك تلك الفكرة .. فكرة المحادثة المكتوبة ..

قال:

- قفزت في خيالي فجأة حين وقضت لك بجوار النافذة ..

فقلت ضاحكة وأنا أتذكر ذلك اليوم:

- متهور..

ثم لكمت كتفه بلطف، وقلت:

- إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى .. خشيْتُ أن يراك أحد المعلمين..

فضحك ونظر إليَّ .. فوضعت يدي على خدي بعدما شعرت أنه ينوي تقبيلي مرة أخرى .. فعاد يبصره إلى الجانب الآخر من الضفة .. فرفعتُ يدي عن وجهي، وسألته:

- ماذا يعمل والدك؟

قال:

- لقد مات منذ أعوام ..

قلت:

- القاعدة الأولى؟

صمت لثوانٍ كأنه يتذكر، ثم هز رأسه وقال زامًا شفتيه:

- نعم ..

قلت في حزن:

- سيموت أبي أيضًا طبقًا لها .. وأردفت:

- وأملك ماذا تعمل؟

قال:

- إنها مزارعة ..

قلت:

- لا تعمل أمي .. تهتم بشئون بيتنا فحسب ..

ابتهسم شاردًا كمادته ذلك النهار ولم يقل شيئًا .. فقاطعت شرودي،

وقلت:

- ستمود إلى ملاذنا غدًا .. التختة الخشبية ..

فضحك وقال:

- يوم غفران واحد أفضل من عام كامل من المحادثة المكتوية ..

قلت:

- أوافقك تمامًا ..

ثم وثبتُ من موضعي عندما توقفت أصوات الموسيقى البعيدة
الصادرة من الباحة .. وقلت وأنا أبعد عنه مهرولة:

- لقد انتهى يوم الغفران .. قالت أمي أنها ستنتظرنني بساحة
العربات لتغادر سويًا ..

وهرعتُ عبر الممرج تجاه الباحة دون أن انتظره كي يأتي معي
فصاح إلي:

- هل نلتقي يوم الغفران القادم؟

فاستدرت إليه وأنا أجري، وصحت:

- بكل تأكيد ..

ثم واصلتُ طريقِي مسرعة.



عدنا إلى لقاء الأعين ومعادناتنا المكتوبة مع بدء الدراسة مجدداً .. لم يعد حديثنا المكتوب مقتصرًا على مغاللاته لي فحسب، بل توسّع لنتحدث عن مدن جارتين الأخرى، وأيام الغفران التي صارت بمثابة المكافأة الشهرية التي تنتظر كلينا نهاية كل شهر ..

وصارت الضفة الغربية للنهر الجاف وجهتنا كل يوم غفران بعد انتهاء مراسم الإعدام. نجلس هناك، ونسمع أذاننا أصوات الموسيقى الصادرة من الباحة خلفنا بعيداً، فتعرف ماذا يدور على منصتها دون أن نتواجد بداخلها .. وشيئاً فشيئاً صرنا نلتقي عند البوابة الشرقية الوسطى صباح أيام الغفران وبدلاً من الدخول إلى الباحة كنا نوجه على الفور عبر المجر الشرقي إلى هناك دون أن نقضي دقيقة واحدة داخل الباحة .. ثم نفترق عندما تتوقف الموسيقى عن العزف مع اقتراب الشمس من الغيب ..

شهر وراء الآخر صار عقلي مؤمناً تماماً أن قواعد بلادي الأولى قد وضعت ليجد كل منا رفيقه الذي يكمل معه حياته بعد رحيل والديه .. وصار قلبي مطمئناً تماماً أن ذلك الفتى اليافع الذي أوعده هو خليل

سنواتي الخمس والثلاثين المتبقية من عمري إن كُتب لي السيش إلى
الخمسين دون مرض .. وتماثلت الأصوات بداخلي تطائني بأن أعلن
له عن حبي صراحة داخل أسوار الباحة بعدما لم أفعلها طوال الأشهر
الماضية.

ثم حلّ يوم الغفران الحادي عشر لذلك العام، وفي الطريق إلى
هناك كان لساني ينطق بكلمة واحدة بيني وبين نفسي: «أحبك» .. ثم
التقيته بمكاننا المهود عند بوابتنا الشرقية، وبدلاً من اتجاهنا إلى
ضفة النهر الجاف كمادتنا .. أمسكتُ بيده ودلفْتُ به إلى الباحة.
وتحركت به إلى منتصفها تماماً .. كان الضجيج من حولنا صاخباً
.. فانتظرت بدء مراسم المنصة كي تهدأ الأصوات من حولنا، بعدها
أخبره صراحة بحبي ..

لم يتحدث كثيراً كمادته ولم أتحدث أنا الأخرى كأن اضطراباً
داخلياً قد أنساني الكلمات جميعها .. ثم بدأت المراسم مزواجين ..
كنت أنظر إليه بطرف عيني وهو يصب كل تركيزه نحو المنصة .. دون
أن يلتفت إليّ حتى .. ثم تبدلت الموسيقى لتبدأ مراسم إعدام سيدة
مذنبه .. فسألته مازحة عن أي مكان ستنتقل منه الزغردة، أجابني
واجماً بأنه لا يعرف .. ثم طالبنني بأن نذهب إلى خارج الباحة ..
فسألته أن تنتظر قليلاً حتى تتم عملية الإعدام، لكنه أصر أن نفادر،
فقلت:

- لكننا سنعود سوياً قبل انتهاء المراسم ..

هز رأسه إيجاباً .. فسرت بجانبه ممسكة بيده، وتخطينا من
حولنا حتى وصلنا بصعوبة إلى البوابة الشرقية الوسطى .. وانجهدنا

نحو مكاننا على ضفة النهر الجاف .. وبينما كنا نعبث المرج صامتين
دوى صوت البارود، فلاحظت أنه أجفل على غير عادته .. فتعجبت
داخل نفسي، لكنني واصلت طريقي دون أن أنطق ..

كان صامتاً صمتاً غريباً لم أعتده من قبل .. فجال بخاطري أنه
سيخبرني هو الآخر عن حبه لي، يقولون أن المحبين يفكرون بالطريقة
ذاتها .. إلى أن وصلنا إلى ضفة النهر، وهناك واصل صمته، فقلت في
تعجب:

- جئنا لنصمت .. ها ١٩

لم يقل شيئاً، ونظر بعيداً إلى الجانب الآخر من النهر الجاف،
فأكملت منذرة:

- حسناً لنعد إلى الباحة ..

قال بلهجة جادة:

- لا أريد أن أعود إلى هناك ..

فزعمتُ شفتي، وسكتُ أنا الأخرى حتى نطق:

- لقد وعدتك من قبل بأن أخبرك مسبقاً إن اضطررت للرحيل ..

فدق قلبي بقوة، وسألته:

- هل سترحل ١٩

قال بهدوء:

- نعم .. سأرحل نهاية الأسبوع القادم ..

قلت في استغراب، وأنا بالكاد أتمالك نفسي:

- لماذا؟

قال:

- سأرحل فحسب .. لن يفيدك معرفة السبب في شيء ..

فصرخت به:

- أريد أن أعرف السبب .. وأردفتُ وأنا أصرخ به:

- لم يعد فرار الرحيل قرارك وحدك ..

فسكت برهة. ثم قال:

- سأتم عامي السادس عشر نهاية الأسبوع القادم ..

وتابع بعد لحظة:

- لقد وجبت علي القواعد ..

سألته بعدما لم أفهم مقصده:

- أي قواعد؟

سكت لحظة أخرى نظر فيها بعيداً نحو الباحة بعينين ملتفتين
بالدموع. ثم قال:

- قواعد چارتنين ..

ثم فك، أزرار قميصه ليكشف صدره .. كان ثمة وشم أزرق على
جانبه الأيسر فوق القلب مباشرة .. لم يكن إلا وشم انفسالى.



(١٠)

«فاضل»

كانت السماء صافية على غير العادة في هذا الوقت من فصل الشتاء عندما شرعت في حزم أمتعتي لمرافقة ديماء - المريضة الوحيدة التي زارتني قبل أسبوع - في رحلتها إلى بلدها جارتين .. بعدما أرسلتُ إليها ردي بالموافقة مع رسولها الفجري الذي جاءني يحمل كيسًا آخر من النقود الذهبية.

وما إن انتهيت من حزم أغراضي حتى دسستُ بحقيبتني ثلاث زجاجات كبرى من الأعشاب المسائة المهدئة، كنت قد فكرتُ في إعطائها إتيها كجرعات على مدار الطريق وفق أوقات منتظمة لتجنب أي نوبة من نوبات الصرع، ثم أعطيتُ صالح خمس قطع ذهبية نظير حسن ضيافته لي بالأيام السابقة، وحملتُ حقيبتني، واتجهتُ إلى مدخل الوادي حيث أخبرني رسولها بأن عربة مجرورة بحصان ستكون في انتظاري هناك وقت الظهيرة تمامًا ..



كان في انتظاري سائق العربى، رجل آخر ثلاثينى غليظ الوجه، يرتدى سترة سوداء بدون أكمام تظهر عضلاته الضخمة .. سألتني بصوت أجش حين اقتربت منه:

- الطليب؟

قلت وأنا أضع حقبتى على سطح العربى:

- نعم ..

كانت العربى محملة بحقائب قماشية وأجولة احتلت النصف الخلفى من سطحها بالكامل، فأدركت أن ديمًا قد وفرت لنا ما يكفينا من طعام وشراب خلال رحلتنا التى ستستغرق شهرًا كاملًا كما قالت، كما أن العربى قد سقفت بسقف قماشي أبيض كان كافيًا لوقايتنا من حرارة الشمس .. فقلت وأنا أضع العربى لأجلس على الجانب الآخر الذى لا يجلس به السائق:

- أين ديمًا؟

قال:

- سنأخذها في طريقنا من وادي الفجر .. إنها في انتظارنا هناك ..

ثم لكز حصانه، وبدأت العربى في تحركها، لتبتعد رويدًا رويدًا عن ذلك المكان الذى مكثت به قرابة شهر.



كانت المسافة إلى وادي الفجر كافية لبدء ثرثرة مع السائق، فقلت:

- ما اسمك؟

قال:

- صديقي ..

قلت:

- وكم تكلف الرحلة إلى جارتين؟

قال:

- للسيدة ديما بدون مقابل ..

ثم أردف:

- كانت زوجة أخينا ..

كنت أعلم أنها لم تتزوج ذلك الفجري الذي مات قبل زواجهما، لكنني في الحقيقة أعجبتُ مؤقتًا بشهامة ذلك الرجل، وبدأت رهبتي من ضخامته تقل، وأكملنا ثرثرتنا عن وديان بني عيسى كلما ظهرت أمامنا أو على جانبينا تجمعات متناثرة من البيوت أو الأراضي المزروعة، ثم مر مزيدٌ من الوقت قبل أن تظهر أمامنا بعض الخيام المتلاصقة خلف رقعة زراعية صغيرة، ووجدته يتحرف بالعربة تجاهها، فتساءلتُ:

- وادي الفجر؟

قال:

- إنها مشافهه .. تسكن تلك الخيام عائلة واحدة. أما الباقي
فخلف ذلك الجبل، وأشار نحو جبل كان يظهر في الأفق ..

وأكمل وهو يتجه بنا نحو الخيام:

- لن نضطر للدخول إلى الوادي نفسه .. إنها تنتظرنا هناك ..

وأشار إلى الخيام القريبة، ثم اقتربنا من ذلك المكان، فخرجت
لنا ديبا على الفور من إحدى الخيام .. وكأنها لا تريد أن تضيع ثانية
واحدة أعطت اللغة القماشية التي كانت تحملها إلى صديق، قدسها
بين حضائب العربية، ثم قفزت بخفة إلى العربية خلفنا، وقالت له:

- لنبدأ طريقنا إلى جارتين.



كنتُ أتمنى بداخلي لو مررنا بالسكة الحديدية التي جثت عن
طريقها إلى بني عيسى، لكنني حين سألت صديق أثناء ثرثرتنا قبل
ملاقاة ديبا قال:

- لا يعرف الطريق إليها إلا القليلون .. لستُ واحدًا منهم، لكن
بمجرد عودتنا سألين مع ديبا وطفلها سأدلك على أحدهم.

وأنهى حديثه قائلاً:

- لكن على كل حال لن نقابل أي سكك حديدية حتى شاطئ بحر
أكما ..

هأومأت برأسي إيجاباً دون أن أتحدث، كنت أريد فقط الاملعتان
بأن هناك من يعرف الطريق إليها، لكنني لم أكن لأترك ديما وأعود
إلى بلدي قبل أن أرافقتها في رحلتها، وأعود بها سالمة هي وجنينها كما
وعدتها ..



ظل الصمت مخيفاً على العربة بعد التحاق ديما بنا .. مكثت
الفتاة شاردة أغلب الأوقات بينما انشغل تفكيري بأيامي السابقة
التي عشتها بدون أي عمل حقيقي، وعن خطأي بالمجيء من الأساس
إلى ذلك الوادي، وأيامي القادمة التي لا أعرف كيف ستكون، وبدأ
عقلي بكون صوراً مختلفة عن جارتين .. صور مُشتتة مُبهمة لم تكن
لثبتت إلا برويتي لها .. ثم أكن أدري إن كانت تشبه بلادتي التي تقوم
على بقايا حضارة تالشت، أم ستشبه وديان بني عيمس الصحراوية
وبيوتها الفقيرة المتناثرة فحدثت نفسي: شهرٌ واحد وسأرى بعيني، أما
صديق هبداً يصفر لحناً بضمه، وكأنه أراد أن يكسر صمتنا الملل، إلى
أن غربت الشمس، وحلّ الليل، فتوقف بنا، وقال:

- سنيبت هنا .. سنتحرك نهائياً فقط ..

ثم حرر حصان العربة، وربطه بمؤخرتها، وأشعل مصباحاً زيتياً
كان مُعلقاً بأسفلها، ثم ألقي إليّ بقطعة قماشية ملفوفة وغطاء صلب
ثقيل، وفرد قطعة أخرى لنفسه بجوار العربة واستخدم إحدى الحقالب
كوسادة، واندس أسفل غطاءه، ففعلت مثله، بينما نامت ديما مدبرة
بغطائها فوق العربة، فتذكرت أعشابني فنهضت وأيقظتها، وسألها

أن تتناول رشفة واحدة من إحدى الزجاجات، ثم عدتُ إلى فراشي الأرضي، ولم يتحدث أي منا حتى أسدلتُ جفوني.



واصلنا رحلتنا مع طلوع النهار، وفي أيامنا التالية بدأ حديثنا بكثير قليلاً .. تحدثتُ إلى ديماء عن حياتي في بلادي، بلاد القهر القديم .. تعجبت عندما أخبرتها أنني لم أجد فرصة واحدة للعمل كطبيب في بلادي، وأخبرتني أنها من أرسلت أحد أتباع حبيبها يكسر من الذهب إلى من اختارني لأتي إلى بني عيسى، بالطبع لم تكن تقصدني أنا بالذات .. لكن القدر من اختارني، كانت تريد طبيباً من بلادنا فعسب .. هناك من أخبرتها عن مهارة أطبائنا، وأردفت لتقول:

- من أرسل الذهب إلى من اختارك. هو ذاته الذي سيمود بك إلى بلدك ..

فقلت آملاً:

- أعني ذلك ..

ثم حدثتني عن جارتين والحياة بها، وعن قواعدها الغريبة بفاصيل أكثر عن المرة التي تحدثنا بها عنها .. فصألتها بنشكك:

- هل نلت حقاً روحك بتلك الطريقة؟

قالت:

- نعم، وأخي من أمي كذلك ..

في الحقيقة أمام وعد بعودتي إلى بلادي، وكهسين من النقود
الذهبية الخالصة كان لابد من إيقاف العقل عمداً عن تساؤلاته، وأن
أصدق كل ما تقوله حتى نصل إلى وجهتنا، وهناك سيتضح كل شيء،
وقلت:

- ومن صاحبة الروح التي أخذتها؟

قالت:

- لا أعرف .. امرأة تم إعدامها فحسب، لا بهم من كانت ..

تساءلت:

- هل تذكرين شيئاً عن حياتها، ذكرياتها؟

قالت وهي تقضم قطعة من الخبز:

- لا .. لا يتذكر النعلني أي شيء عن حياة صاحب الروح الأصلية،

أي شيء على الإطلاق، إنها حياة مستقلة بذاتها ..

ثم قالت:

- نظل الروح حاملة لصفاته السيئة فحسب، أرى أن حاملة

روحي كانت تدمن السرقة ..

وأكملت ضاحكة:

- مثلي تماماً ..

فجال بغاملري أكيامس الذهب التي توزعها، لكني واصلتُ حديثي إليها، وقلت:

- لكك لا تذكرين حتى من أحببتهم صاحبة الروح الأصلية؟

فالت:

- لا .. يولد كل نسلي بمشاعر جديدة، تنتهي المشاعر تمامًا بانتزاع الروح من الجسد ..

قلت:

- وهل تكفي الإعدامات لبقائكم؟

قالت:

- حتى يومنا هذا تكفي .. لا يخلو يوم غفران واحد من الإعدامات .. مسترى أنها سنة الحياة هناك ..

قلت ضاحكًا:

- إنني متشوقٌ للغاية لرؤية ذلك البلد ..

فقالت وهي تغمز لي:

- لا تطلق سأحقق لك ما تريده ..



مرت الأيام التالية جميعها متشابهة .. نتحرك نهارًا، نتحدث عن أي شيء، يواصل صديق تصغيره بألحاحٍ مختلفة، نتوقف ليلاً لننال قسطًا من النوم حتى طلوع فجر اليوم الجديد، فنواصل طريقنا مرة أخرى .. ثم حلّ اليوم العاشر ومعه بات الهواء مُحملاً برائحة يود البحر، وبدأ السقف القماشي يرفرف بقوة مع نسيمات الهواء المتواصلة، فأدركتُ أننا شارفتنا على الوصول إلى شاطئ البحر .. ثم ظهر المسطح المائي الشاسع أمامنا حين اتخذت العربة منحدرًا هبطناه ببطء شديد، كما ظهرت البنايات الخشبية التي تتراس على مقربة من الساحل .. بينما وقفت ثلاث سفن صغيرة راسية بالماء على مقربة من الشاطئ ..

واصلت العربة اقترابها حتى وصلنا إلى الشاطئ، وهناك أوقفها صديق. وتركنا ليقوم بترتيب كل شيء مع أصحاب السفينة المتجهة إلى جارتين، وغاب قليلًا من الوقت قبل أن يعود إلينا ومعه رجل قصير يرتدي سروالاً واسعاً وسترة مفتوحة تكشف بطنه الكبيرة، فقال الرجل:

- عشرون قطعة ذهبية لكل فرد، وأربعون للعربة ..

كان ذلك المبلغ مبالغاً فيه كثيرًا .. حتى ديمًا التي كانت تفرق الذهب كأنها تمتلك كنزًا قد أظهرت من التعجب على وجهها ما يوحي بأنها لم تتوقع بأن يبالغ الرجل إلى ذلك الحد، وقالت معترضة:

- إن هذا كثيرٌ للغاية ..

قال وهو ينظر إلى بطنها:

- ليس كثيرًا مقابل طفل نسلي أيتها الهارتينية ..

وأكمل بلووم واضح:

- تعلمين أن سعر هذا الطفل حين يُولد سيصل إلى أضعاف مضاعفة من الذهب.



كانت اللحظة التي كشف بها نديم عن وشمه هي المعنى الحري في
لتوقف الزمن .. سكنت الحشائش من حولي عن حركتها فجأة،
واختفى ملين الحشرات المحلقة فوقها، بل اختفت الأصوات جميعها
وكان أذني قد صمت .. واختلق صدري وكأن الهواء قد انقطع عن
محيطنا، كل شيء تجمد في موضعه، عدا تلك الدموع التي ترقرقت
بمعني قبل أن تتساقط إلى وجنتي بغير توقف .. ولم أدر بنفسي إلا وأنا
أستدير وأركض مبتعدة في فزع ..

كانت قدمي تهزول بغير اتزان حتى أنني سقطت أكثر من مرة ..
كنت أنهض وأواصل ركضي مسرعة، فتختل عضلات ساقي مجدداً
فأسقط من جديد، لأنهمض وأجري دون تفكير .. كان قلبي يدق بقوة
لم أشعر بها من قبل، وعيني تمتلئ بالدموع، بينما تعصف بعقلي كلمة
واحدة:

- نسلي .. نسلي!

أتذكر أنني لم أتجه إلى الباحة أو ساحة العربات حيث كانت أمي تنتظرني، بل واصلتُ هرولتني إلى البيت مباشرة حتى وصلتُ إلى مريدي بفستاني المترب، وانسللتُ أسفل فراشي يرتعد جسمي لأكمل بكائي.

بعد ساعات فُتح باب غرفتي فجأة .. كانت أمي غاضبة بشدة، وصاحت بي بعدما زاد قلقها لعدم لقائي بها ويأبى بعد انتهاء مراسم اليوم بساحة العربات كما كان اتفاقنا، لكن تماير وجهها الفاضبة سرعان ما تحولت إلى فرح شديد بعدما رأته هيثي، وخاصةً عندما رفعت عني غطائي لتجد أن ركبتي قد جُرحت إثر سقوطي المتكرر أثناء هرولتني، فسألتنني في قلق حذر:

- غفران .. ماذا حل بك؟

لم أجب .. ظل وجهي جامدًا شاردًا، فكررت سؤالها وهي تتفحص ركبتي والدماء المتجلطة عليها وعلى فستاني:

- ماذا حل بك؟

فسالت الدموع على وجهي مجددًا، قبل أن أقول وشفتي نرنجف:

- إنني بخير يا أمي.

قالت:

- من فعل بك هذا؟

مسحتُ دموعي بأصبعي، وقلت:

- لا أحد .. إنني بخير فحسب ..

قالت:

- لن أتركك حتى تخبريني بالأمر ..

قلت وأنا أصرخ:

- دعيني وشأني يا أمي .. وواصلت بكائي مرة أخرى وقلت:

- قلت لك أنني بخير .. إنني بخير .. أقسم لك أنني بخير ..

فهزت رأسها ضيقاً، ثم غادرت الغرفة وهي تقول:

- سأرسل أحدهم إلى أبيك يخبره أنك عدت إلى المنزل .. لقد

أثر البقاء بالساحة خشية أن تذهبي إلى هناك فلا تجدني أباً

منا ..

ثم أغلقت الباب من خلفها.



مرت ساعات أربع قبل أن أنهض عن فراشي، وأتجه إلى غرفة أمي، كنت أعلم أنها لن تذوق للنوم طعماً قبل أن تطمئن علي .. كان أبي نائماً بغرفته بعدما عاد إلى المنزل، فأدركت أنها لم تخبره بشيء عن حالتي، ودلفت إلى غرفتها بعدما أذنت لي بالدخول، كانت تجلس على سريرها تتربع وجهي، فوقفْتُ أمامها وقلت مباشرة وأنا أنظر إلى الأرض:

- إنتي أحب نسليًا ..

فتساءلت في جزعٍ شديد لم أر مثيله على وجهها من قبل:

- ماذا؟

قلت بصوتٍ مخفوق بالدموع:

- إنتي أحب نسليًا ..

فوثبت من موضعها، وقالت وهي تحدق بي:

- كيف؟ .. كيف حدث ذلك؟

فانساب الدموع من عيني، وارتعيت في حضنها وأنا أنشج بقوة ..
فربت على ظهري، ثم هدأت شيئًا فشيئًا، وبدأت أروي لها ما حدث
بيني وبين نديم منذ رأيتَه للمرة الأولى خارج المدرسة حتى ظهيرة يوم
الغفران ذلك النهار.

ظلت أُمي صامتة لا تنطق بكلمة واحدة .. كانت تسمعني فحسب،
حتى انتهيت فسكتت للحظات، ثم قالت وأنا في حضنها:

- النسالي خائنون .. كاذبون .. أناثيون .. كان يعلم من اليوم
الأول أنك امرأة شريفة، ومع ذلك واصل غوايته لك كي يعلّق
قلبك به، شيطان من شياطينهم ..

لا تعزني .. هذه هي الحياة، لا بد وأن نمر بتجارب قاسية
نمصف بنا، لنثقل خبراتنا التي نمر بنا سنواتنا التبقية
بأمان .. ستكبرين، وستتذكرين هذه الأيام لتضعكي عليها

فيما بعد .. إنكِ جميلة، وسيدتي بابنا الكثيرون من الرجال
الأشراف لنكلمني ذريتنا بأبناء شرفاء يحملون دماءنا النقية ..
لا تذهبي إلى المدرسة الأيام القادمة .. سأذهب غداً لأخبر
كبير المعلمين أنك مريضة .. وسأبذل أنا وأبوك كل جهدنا
لمساعدتك الفترة القادمة في دراستك .. وأعدك بأنك
ستحققين نتائج أفضل من اختباراتك السابقة ..

فهزرت رأسي بابتسامة حزينة، ثم نمتُ بجانبها .. أتذكر أن
أحلامي في تلك الليلة كانت كثيرة ومتشابكة للغاية، غير أن جميعها
كانت تضج بجملة واحدة:

- النسالي خائفون ..



لم أذهب إلى المدرسة الأيام التالية .. وحاولت أُمي أن تشغل
وقتي بكل شيء متاح، سواء بأعمال المنزل، أو استذكار دروسي سويًا
بساعات أكثر من المعتاد، أو الخروج معاً ومع أبي مساء بعض الليالي
لنتجول بشوارع جویدا المضاءة بالمصابيح الزيتية قبل التوجه إلى
حانة قريبة كانت إحدى الفرقى البهلوانية تقدّم عروضها الفكاهية كل
مساء هناك.

لم تخبر أُمي أبي بأي شيء، كانت تعلم مدى القلق الذي سينتابه
إن علم بالأمر .. هذا آخر شيء كان من المتوقع أن يحدث في بيتنا ..
تعمدت أُمي أن تقرأ لي كتبًا بعكثبة أبي كانت جميعها تدور عن جرائم
النسالي وخياناتهم وإعداماتهم، كانت تظن أن ذلك سيجعلني أكثر

كبراً لنديم .. لكن ما حدث كان غير ذلك، مع كل يوم كنت أشتاق إليه أكثر. كنت أعلم أنه قد غادر جويدا ولن يعود تحسباً لارتكاب أي خطأ يودي به إلى منصة الباحة، ولكنني تمنيت لو لم يفعل ذلك.

كانت نفسي تحدثني دوماً أن هناك شيئاً به يختلف عن النسائي الذين تقرأ لي أمي عنهم .. يكفي أنه متعلم ولم أر منه أي سوء .. لكن نفسي عادت لتقول:

- لا يتعلق الأمر به، بل بروحه الأثمة التي تحمل طبع الأثمين منذ آلاف السنوات ..

ثم راود مخيلتي أكثر من مرة وقوفه على منصة الإعدام بينما كنت أنا قاضية المنصة التي تعطي الإذن لرامي المنصة بإطلاق الرصاص على رأسه، فينقبض قلبي بشدة ..

لم أخبر أمي أنني ما زلت أفكر به، لكنها كانت الحقيقة، ثم أستطع أن أبعد عن خيالي لحظة واحدة، حتى أحلام نومي صارت جميعها عنه ..

كنت أقول لنفسي أنها أعراض انسحاب ستقل مع مرور الوقت، لكن ما كان يحدث أنه كلما مر يوم زاد اشتياقي إليه أكثر .. ثم عدت إلى المدرسة بعد انقطاع شهر كامل لاجتياز الاختبارات النهائية لذلك العام، وكان القدر أراد أن يساعدني على نسيانه، وجدتُ مكاني قد تبدل وصار بمقعد آخر بفصل آخر .. وهكذا اختفت عن بصري النخلة الخشبية للأبد. حيث كنت أعلم أن المدرسة العليا في العام التالي ستكون في مكان آخر تماماً، بعيد عن تلك المدرسة ..

كنت أخوض الاختبارات صباحاً، ثم أخرج من المدرسة ظهراً أنظر إلى الأرض أثناء عبوري تجمعات الأولاد خارج المدرسة .. كنت أعلم أنه غير موجود بينهم، لكنني لم أرد أن أعطي نفسي فرصة واحدة حتى، ثم ألتحق بمرصة أبي إلى بيتنا ليتكرر كل يوم مثل سابقه تماماً .. حتى انتهت الاختبارات، وقلنا الأجازة الموسمية التي تمتد لشهرين كاملين، وبقينا في انتظار النتائج للالتحاق بالمدارس العليا ..



كانت الأجازة تلك المرة هي الأكثر صعوبة في حياتي، لم تستطع المروض الترفيهي الليلية في الحانة أن تزيج عن عقلي ذلك الفراغ الذي كنت أشعر به، حتى نتائج الاختبارات لم أكن في قلق شديد منها أو ترقب لها كما كنت دوماً خلال سنواتي الماضية رغم أن تلك النتائج كانت الأهم في سنوات دراستي ..

كنت أفتقده فحسب، أفتقد أيام الغفران معه، أفتقد كتابات المقعد الخشبي واسمي المنقوش بخطه أمامي، حتى نفسي التي كانت تخبرني على الدوام أنني سأنساه مع الوقت بدت أنها استسلمت، واشتعل الأمر بداخلي من جديد، ثم صار أكثر وهجاً عندما صادفتُ بأحد الكتب القاعدة التي تجيز زواج رجال النسالي من شريفات جاريتين ..

وجدت نفسي أبحث عن كتب أخرى تتحدث عن تلك القاعدة بالذات، ثم انتهزتُ فرصة خروج أمي إلى السوق ودلفتُ إلى غرفة أبي، وسألته وأنا أمسك بكتاب منهم:

- هل شهدت من قبل زواج نسلي من شريفة بباحة جويديا؟

قال:

- لا ..

قلت وأنا أُلح إلى الكتاب بيدي:

- ولكن لا يوجد ما يمنع ذلك ..

قال:

- نعم .. لا تمنع القواعد ذلك .. لرجال النسالي الحق في الزواج سواء من نعلية أو من شريفة إن بلغوا عامهم الخامس والعشرين، مثلهم مثل رجال الأشراف تماماً، ولكن أين تلك العائلة التي تضحي بسمعته وتزوج ابنتها من نسلي؟

قلت:

- قرأت أن زواج النسلي من شريفة يزيح عنه صفة النسلية ويعطي لأبنائه الشرف من بعده ..

قال:

- نعم .. تقدّر چارتين شريفاتها .. قد يمحو ذلك الزواج إن تم عقوبات الإعدام عن جريمة صفري وإن كانت قد صدرت بالفعل .. ويكتفي القضاة بإصدار حكم مخفف كتحذير لمرة واحدة تكريماً لزوجته ..

ثم تابع:

- لكن إن تكرر الأمر، وارتكب جُرمًا صغير .. فميصبح مصيره الإعدام .. ليس ذلك فقط، بل سيُحال أولاده إلى صفة النسالة مثله لأنهم يحملون دمه .. إنه أمرٌ معقد، أن يظل مصير عائلة كاملة مرتبط بسلوك عائلها ومدى تحجيمه لروحه ..

نساءت:

- لكن ماذا إن لم يرتكب أي جرم طوال حياته؟

- قال:

- وقتها يستحق أن يموت كالشرفاء .. تحمل ذريته من بعده كامل الشرف .. لكنني في الحقيقة لم أرَ أو أسمع عن ذلك طوال سنوات عمري لا في جويديا ولا في أي مدينة أخرى من مدن چارثين.

قلت:

- ربما لأن أحدًا لم يزل فرصة ..

قال:

- لا يستطيع أحد أن يسير على الصراط المستقيم مدى حياته .. إن البشر بطبيعتهم خطائون، فما بالك بالنسالي .. كنا محظوظين بكوننا شرفاء .. يتجاوز الكثير عن أخطائنا .. أما أن تعيش حياتك كلها في خوف من ارتكاب خطأ واحد .. إنها لحياة بائسة، لا تمتع فيها ..

وأردف:

- لو كنت واحداً منهم لفضلتُ أن أفضي حياتي كاملة في وديانهم
المقفرة ولو كلفني ذلك الموت جوعاً.

فكررتُ جملتي:

- لكن لو نال أحدهم فرصة، وسار على الصراط المستقيم كما
تقول، دون ارتكاب خطأ واحد سيموت شريفاً ..

قال:

- نعم ..

فهزئتُ رأسي مبتسمة، ونهضتُ منفرجة أساري .. وتوجهتُ إلى
غرفتي يدق قلبي بفرحة كنت أظن أنها لن تأتي مرة أخرى ..



في غرفتي صار عقلي منشغلاً بأمر واحد فقط .. ماذا إن أصبح
نديم ذلك النسلي الأول الذي يموت شريفاً .. معاً رأيت أيا منا السابقة
أن روحه طيبة لا تحمل شراً على الإطلاق .. وحدثتُ نفسي:

- ما الذي يجعله يصر على إكمال تعليمه حتى يومه الأخير قبل
بلوغه السادسة عشر إلا إن كانت روحه طيبة مؤهلة لتصبح
شريفة ..

- إن الظروف الخارجة تماماً عن إرادته هي ما جعلته نسلية ..
كنت قد أكون مثله إن وُلدتُ بطريقة غير شرعية لأم أئمة ..

- إن بقاءه خارج جويدا بين غيره من المجرمين هو طريقه المهد
إلى منصة الإعدام ..

وضربت رأسي بيدي ندعاً كوني تركته ذلك اليوم عندما أخبرني
أنه نسلي .. كان علي أن أبقي لأستمع إليه حتى .. ثم وضعت نفسي
مكانه في مخيلتي ووضعت مكانه .. إن كنت نسلية راغبة أن أصير
شريفة وأحببت رجلاً شريفاً، إن أعانني على ذلك لصرت أكثر مضيئاً
في تحقيق حلمي .. أما إن تخلى عني لمجرد معرفته أنني نسلية لصرت
أكثر سوءاً بكل تأكيد .. وسيصبح طريقي إلى منصة الإعدام أكثر
سرعة ..

إن اليأس قاتل .. ربما أخبرني عن رحيله لأنه أرادني أن أسأله
البقاء .. كان من الممكن أن يفاد فجأة كمادته ليحتملي الكثير من
الحيرة والارتباك لغيابه المفاجئ إلى الأبد، لكنه كان أفضل مني
.. أوفى بوعده وأخبرني عن ذهابه، واستحيا أن يجعلني على طلب
البقاء منه .. ربما انتظر مني أن أعطيه ومضة واحدة من الأمل لأصير
طريقه للخلاص من ذلك العار الذي وجد نفسه متورطاً به دون ذنب
... ثم نظرت إلى صورتي بالمرآة، وقلت:

- ماذا إن كنت مجرد طريق له للتخلص من عاره فحسب .. ليس
حباً خالصاً، بل حباً من أجل مصلحة ما ..

لكن عدت وتذكرت إشاراتك لي حين كنا أطفال بالباحة، إنه حب
بريء شاءت الأقدار أن ينبت بأرض باحتنا .. كما أنني لم أرفيه أي

صفة دنيئة من صفات هؤلاء الاستغلاليين، حين أدرك أن عليه الذهاب
أخبرني بذلك فحسب .. وقلت وأنا أهز رأسي إيجاباً لصورتني بالمرأة:

- إنتي أحبه .. وإن كان الحب فعلاً لا قولاً، كان عليّ أن أطلبه
بالبقاء، وأكون سبيله للتخلص من عاره الذي لاحقه سنوات
عمره جميعها ..

ثم تخيلته أمامي في الغرفة، فنظرتُ إليه، وقلت:

- هل تستطيع أن تخوض معي الرهان الأكبر بحياتنا، وتميش
معي دون ارتكاب أي خطيئة حتى تبلغ عامك الخمسين؟

وفيل أن يرد، قطع تأكيدي طرقات أمي على باب غرفتي، فأجفقتُ
.. ثم كررت طرقاتها ونادت عليّ، فأجبتها:

- إنتي هنا يا أمي ..

ونهضتُ، وفتحتُ بابي، فقالت:

- لقد ظهرت نتائج اختبارائك بالمدرسة المتوسطة ..

فنظرتُ إليها في ترقب، وومضت في عقلي المدرسة العليا للقضاء،
فأكملت إليّ بصوت هادئ، وكأنها كانت تدرك أن حلم حياتي قد
يُبخر:

- لقد تم اختيارك للانتحاق بالمدرسة العليا لضباط الأمن.



الضربة الثانية خلال أقل من شهرين .. حاولت أمي أن تواسيني لكنني طلبتُ منها أن أبقى بمفردي، وأغلقتُ بابي وعدتُ في صمت إلى سريري .. انتهت كل أحلامي المتعلقة بمنصة باحة جويدا، وصار عليّ الخضوع لاختبارات مدرسة ضباط الأمن ربما لأنني كنت متفوقة بالمواد الخاصة بقواعد جارئين أكثر من المواد المتعلقة بالعلوم ..

ثم ابتسمتُ بيني وبين نفسي حين حدثتني نفسي عن الجانب الإيجابي من فشلي في اللحاق بمدرسة القضاة .. لن أكون أبداً من يحكم على نديم بالإعدام كما تخيلتُ أيامي السابقة، ووجدتُ نفسي بعد قليل من الوقت لا أشعر بالضيق الذي كنت أتوقع أن أكون عليه إن فشلتُ في تحقيق حلمي.

وكان ما أصابني أيامي الماضية قد جعل بداخلي حصناً تموّد أخيراً على الصدمات المتتالية، ثم خرجتُ إلى أبي وأمي، ولم أتحدث عن الأمر على الإطلاق، بل تجاهلنا الأمر جميعاً، وتحدثنا عن أشياء

أخرى مضحكة جعلتنا نتذكر لباليتا المبهجة التي لم نذهبها منذ أيام
عديدة.



خضتُ اختبارات مدرسة ضباط الأمن بعدها بأيام .. كان
الاختبار الشفهي فيما تعلق بمعرفتي عن القواعد أكثر سهولة بينما
عانيتُ كثيراً في الاختبار البدني، لكنني نجحتُ في النهاية، وصار عليّ
الانضمام إلى المدرسة التي تقع في مدينة مديالا، شمال غرب جارتين
بعد أسبوعين من الاختبارات ..

حياةٌ جديدة كنت أدرك تماماً أنها ستختلف كلياً عما عشته من
قبل .. ما جعل الأمر مثيراً بداخلي أنني سأتمكن من حمل سلاح ناري
مُعاً بالبارود بعد أربعة أعوام بمدرسة الضباط .. لا يُسمع لأحد في
جارتين أيّا كان يحمل أسلحة نارية إلا ضباط الأمن .. عقوبة مُغلظة
على الشرفاء .. إعدام للنسالي إن ارتكبوا هذا الجرم ..

وبدأت أحلامي تتشكل من جديد، غفران ضابطة الأمن في جويدا
.. ذات الوجه الحازم والكلمة المسموعة، حاملة أصفاد الاعتقال،
وبدأتُ أتخيل نفسي في الثياب العسكرية، لكن بالي ظل مُعلقاً به ..
ذلك الفتى الغائب عني لمدة شهرين كاملين، ها قد قلتُ من حكمي
المنطوق على المنصة .. لكن هل سأصير أنا من يمتلك ذات يوم أم
ماذا أيها النسلي المتعلم ؟

ثم حلّ يوم الغفران لذلك الشهر، وكنت قد انقطعت عن الياحة
الشهرين السابقين .. كان من معرفتي أو يعرف والدتي يهنئوني

بالتحاقى بالمدرسة العليا في طريقنا إلى الباحة .. ثم ضحكْتُ بيّني وبين نفسي حين وصلنا إلى هناك فوجدتُ قدمي تريد أن تأخذني شرقاً إلى البوابة الشرقية الوسطى كما تعودت.

لكنني واصلتُ طريقتي إلى حرمها عبر البوابة الجنوبية كما اعتدت قبل شهور مع أبي وأمي .. وكعادة زحام الباحة وصلنا إلى مقدمتها بصموية، شعرتُ أنني أفتقد ذلك المكان كثيراً، غير أنني كنت أعرف أنني سأفتقده أكثر الأشهر القادمة ..

أخبرني أبي أن المدرسة العليا للضباط ستمنعني من الحياة المدنية طوال سنوات دراستي الأربعة، وليس لي مفادرة أسوارها إلا لأجازة أسبوعين مرة كل ستة أشهر .. لم أجد ذلك الأمر بمثل قارفاً كبيراً لي، لا أملك الكثير من الأصدقاء على أي حال .. وأبي وأمي أظهرّا لي سعادتهما بالتحاقى بتلك المدرسة، ولم يعد هناك نديم .. سأفتقد الباحة فحسب .. كل ما تمنيته داخل نفسي أن تتزامن مواعيد أجازات مع أيام الغفران.

كنت أقف ذلك اليوم وأدقق بتفاصيل كل شيء .. وجوه المحيطين بي، المنصة ومن يرتقونها، سماء الباحة وأرضها أسفل قدمي وكأنتي أودعها، قيل أن أهمس إليها:

- لن أغيب عنك كثيراً يا صديقتي .. لا أعلم إن كنت سأنتقير حقاً بعد مرور السنوات الأربع كما يظن الجميع، أم سأبقى كما أنا غفران ذات القلب الرحيم الذي لا يغيره شيء أبداً ..

ثم انتهت العروض الفكاهية، وصعد إلى المنصة القاضي، وأصدر حكماً بالإعدام على رجل نسلي .. وقتها استأذنتُ أمي وأبي كي أغادر على أن ألحق بهما في ساحة العربات مع انتهاء المراسم.

عبست أمي، لكن أبي قد وافق فوافقنا بالنهاية، فقبضتُ بيدي على يدها أطمئنتها .. ثم وجدتُ نفسي أتجه شرقاً بين الحشود إلى البوابة الشرقية الوسطى وأخطأها نحو المرج الشرقي .. قابلني نسيمه كصديق يرحب بي بعد غياب طويل، فملأتُ صدري بهوائه، وأكملتُ طريقتي تجاه النهر الجاف، لم يكن يوماً أو اثنين، كان عاماً كاملاً هنا ..



في ثوانٍ قليلة تذكرتُ كل الأحاديث التي دارت بيننا عند ذلك المكان .. لم يكن يتحدث كثيراً .. لكنني كنت أحب ذلك الصمت الطويل الذي دائماً ما تخلل حديثه .. تمنيتُ لو كانت الظروف أفضل وكان شريفاً مثلي، لكن ليتنا نحقق كل ما نتمناه .. أمسكتُ حجراً صغيراً، ودرجته إلى جرف ضفة النهر كما تعود أن يفعل .. ثم جلستُ موضعي على رقعة صغيرة من العشب الجاف، وضعمتُ ركبتي إلى صدري، ونظرتُ إلى البيوت البعيدة على الجانب الآخر من برزخ النهر .. وغصتُ في شرودي وأفكاري المتعلقة بأيامي السابقة هناك ..

وكان صوت البارود قد دوى بالسماء فأفاقني من شرودي، قبل أن أستدير فجأة حينما شعرتُ بأقدام تدوس العشب من خلفي، وتولا أن تماسكتُ قدمي التي تراجعت من المفاجأة وانزلقت، لكنني قد سقطتُ

من على حافة المنحدر بعدما وجدته يقف خلقي .. عاري الصدر،
يكشف عن وشمه كما تنص القواعد بأن يكشف النسلي عن وشمه
بعد عبوره السادسة عشر طالما تواجد بالمدينة - يكشف الذكر صدره
وتكشف الأنثى كنفها الأيمن - وكأن الكلمات جميعها قد تلايرت من
لساني وقت صامته أمامه لا أنبس ببنت شفة.



فكرت في أن أغادر لكن هذا ما لم يرد داخلني .. كنت أعلم نفسي
جيداً .. كان ذلك الشموخ الذي طالما أحببته قد بدأ يسري في جسدي
بعد زوال ارتباك المفاجأة .. فرحة وبهجة تخطفان عن أي فرحة
وبهجة أخرى .. لكنني بقيت صامتة وبقي هو الآخر صامتاً، قبل أن
يقول بوجه جامد:

- أخبرتك ذات يوم أنني لا أعد بوعد لا أستطيع تنقيذه .. لذا
أخبرتك عن رحيلي كما وعدتك مسبقاً .. لكنني كنت قد
وعدتك أيضاً بأن أبقى بجوارك للأبد ..

وسكت، فقلتُ ساخرة:

- أي أبدي؟ .. سنواتك حتى قدومك إلى المنصة مكبلاً؟ ..

فتنظر إلي في حرج، فتأبست كأنني أعترض:

- أم سنواتك الخمسين؟

فارتبك وكأنه لم ينتظر أن أسأله مثل ذاك السؤال .. ثم قال دون
مقدمات وهو ينظر إلى الأرض:

- لا تتيح قواعد جارتين زواج الرجال قبل بلوغ منتصف العمر ..

وصمت ثانية وأكمل:

- هل تقبلين بالزواج مني إن وصلتُ عامي الخامس والعشرين
دون جريمة؟

فأجبت مسرعة دون تفكير وكأنني كنت أنتظر منه بأن ينطق تلك
الجملة دون أي حديث آخر:

- هل لك أن تعدني بأن تظل نقيًا حتى بلوغك ذلك العمر ؟ .. ثم
بفائك معي نقيًا حتى يحين موعد رحيلك ؟

فهز رأسه وقال:

- نعم .. سأفعلها من أجلك ..

قلت:

- أنتعدني بذلك ؟

قال:

- نعم سيدتي .. أعدك ..

قلت:

- لستُ سيدتك يا نديم .. افعلها من أجلي فحسب .. وأنا سأزيل
هذا الوشم بخنجرٍ أمام أهل جارتين جميعهم ..

فابتسم أخيراً ثم قال مازحاً:

- وإن نكثت وعدي ١٩

قلت بكل جدية:

- سأقتلك بالخنجر ذاته أمام أهل جارتين أيضاً ..

كان حباً أم جنوناً ١٩ .. لم أفهم نفسي لحظتها .. ما كنت أعرفه أنني كنت أكثر سعادة من أي وقت مضى. لقد قبلتُ بذلك التعدي .. لن أقبل بالزواج من أي رجل جارتيني طالما كان نديم على قيد الحياة .. وإن مرت أعوامه التسع المتبقية دون وصوله إلى منصة الإعدام فعن غيره يستحق أن ينال حياة شريفة .. ثم سألته بعدها عما يفعله، قال أنه سيمضي سنواته يعلم نساء الوديان ما تعلمه في مدارس جارتين، تساءلت:

- لماذا لا يملكون مثلك ١٩

أجابني:

- إن الأمهات هناك لا ترى فائدة للعلم طالما المصير واحد .. كانت أمي تختلف عنهن وأصررت على تعليمي .. وسأصر أنا على تعليمهم .. سيكون العلم سبيلهم الوحيد للنجاة من منصة الباحة ..

اندعشتُ بإعجاب من حديثه، وقلت:

- أرى أنك متفائل ..

قال بجديّة:

- أعلم أن الأمر سيكون صعباً .. لكنه لن يكون أكثر صعوبة من
وعدٍ بالزواج من امرأة شريفة ..

فَضَحَكْتُ، وَقُلْتُ:

- وبعد التسع سنوات، ١٩

قال:

- سأأتي إلى المدينة هنا للعيش معكِ ..

فَقُلْتُ سَاخِرَةً عَنْ رَغْبَتِهِ بِتَعْلِيمِ غَيْرِهِ مِنَ النِّسَاءِ:

- وَتَتْرَكُ حُلْمَكَ، ١٩

وَكَانَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَتَحَدَّثُ مَعَهُ عَنْ حُلْمِهِ .. فَقَالَ ضَاحِكًا:

- وَفَئِذَا سَأَلُوكَ قَدْ عَلِمْتُ مَنْ يَسْتَطِيعُونَ حَمْلَ الْمُسْتَوَلِيَةِ مِنْ
وَرَائِي ..

فَقُلْتُ بِمَكْرٍ:

- إِذَا سَمِعْتِ سَوِيًّا فِي جُودِيَا بَعْدَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ ..

قال:

- نعم .. امرأة شريفة ورجل شريف ..

فَقُلْتُ مَحْذَرَةً بِسَبَابَتِي:

- تعلم القواعد جيداً ١٩١

قال:

- اطمئني .. إنني أحفظها عن ظهر قلب وأعيها جيداً .. كنت متفوقاً في دروسي للغاية، رسبتُ من أجلك فقط ..

فضحكتُ، ثم أخبرته عن التحاقني بمدرسة الضباط بقبالا، وأنتي سأغيب سنة أشهر كاملة بداية من الأسبوع القادم، فقال:

- حسناً .. سأنتظرك هنا بيوم الفجران للشهر السابع من اليوم..

فقلت باسمه:

- وأنا سأأتي من أجلك ..

فقال في حماس:

- سأخبرك يوماً كم علمتُ من النضال ..

فضحكتُ من الحماسة التي تحدث بها .. ثم هدأت موسيقا الباحة فأدركتُ أن المراسم في طريقها إلى الانتهاء، فعددتُ يدي له وأنا أغادر، وقلت بكل صدق:

- أتمنى أن تحافظ على وعدك لي يا نديم ..

فقال:

- سأفعل ذلك ..

فاوماتُ برأسي، ثم غادرتُ تجاه الباحة بمفردي .. واتجهتُ إلى
ساحة العربات، وارتقيتُ عربتها في انتظار أبي وأمي، حتى جاء بعد
وقت قليل .. سألتني أمي عما فعلته، أخبرتها أنني تجولتُ بالجوار
فحسب، لم أخبرها شيئاً عن نديم، صار ذلك الوعد منذ تلك اللحظة
شيئاً يخصنا نحن الاثنين فقط .. لا يخص أبا سوانا .. لن يخرج
عن داخلي حتى يوم الفجران بعد تسع سنوات .. وقتها سأعلن أمام
هؤلاء البشر جميعاً .. أن ذلك الفتى الذي أحببته وأحبني صار شريفاً
مثلهم يتمتع بحقوق أهل جارتين كاملة عما فعله من أجلي طوال تلك
السنوات.



ما زلت أتذكر اليوم الأول لي في مدرسة الضباط، أصر أبي أن يصحبني بعريته إلى هناك .. تحركنا من جويدا مع منتصف الليل تمامًا، ووصلنا إلى «قبالا» مع ظهيرة اليوم التالي .. كانت المرة الأولى التي أرى فيها جدار چارتين العظيم بعيني المجردة بعدما مر الطريق هناك بمحازاته، كان أضخم كثيرًا مما تخيله بعقلي طوال سنواتي الماضية، حتى أن فاهي ظل مفتوحًا من انبهاره بمظمة بنائه وبأحجاره الضخمة التي قد يدهس الحجر الواحد منها عشرين رجلًا إن سقط فوقهم ..

أما قبالا فكانت مدينة صغيرة للغاية مقارنة بجويدا، غير أن شوارعها كانت أوسع كثيرًا وأقل زحامًا، وهناك توقف أبي أمام بوابة حديدية تنتصف سورًا طويلًا مرتفعًا كان يمتد بعيدًا على جانبيها، ويحمل عددًا من الأبراج على مسافات متساوية يقف بكل برج منها جندي يحمل سلاحه الناري، لم تكن إلا مدرستي الجديدة.

ودعني أبي ووعدني أنه سيأتي ليصحبني إلى منزلنا بعد ستة أشهر. فودعته وغادرتُ العرية. وسرتُ بفستاني الذي قابلتُ به نديم المرة الأولى أحمل حقيبتني تجاه البوابة. ثم صاح الجندي الذي يقف بأقرب أبراج السور فجأة، قبل أن تفتح البوابة الحديدية على مصراعها أمامي لأعبر إلى الداخل بخطوات بطيئة حذرة يدق قلبي بقوة، وكأنتي قد عبرتُ إلى منطقة أخرى من حياتي ..



كنت أظن أنني سأجد من يرحب بي فور وصولي، لكن بمجرد دخولي صار كل شيء سريعاً جداً .. اذهبي إلى هناك لتنتهي من إعداد أوراق التحاقك .. اذهبي إلى هناك لاستلام ملابسك العسكرية وحذائك العسكري .. اذهبي إلى هناك ليقوم الخياط بتضييق مقاساتك، ثم كانت صدمتي الكبرى؛ اذهبي إلى هناك لقص شعرك الطويل، وهناك توقفتُ:

- ماذا؟!

كان طول شعري يبلغ أسفل خصرتي، لا أريد قصه، فصرخت بي ضابطة الأمن حين تلكأتُ:

- هيا .. لا تضيعي وقتك ..

ثم قام أحدهم بفرد شعري الملفوف وقصه في بضع ثوانٍ، صار بالكاد يبلغ أكتافِي، بعدها حملتُ أمتعتي جميعها في ضيق بالغ، واتجهتُ إلى بناء المبيت للراحة من عناء ذلك اليوم في انتظار بدء العمل الفعلي باليوم التالي ..

كان بناء المبيت مُكوّنًا من غرف واسعة متجاورة، تضم الغرفة الواحدة عشرة من الأسيرة المزدوجة، يحمل كل سرير فوقه فتاة تقف في نوم عميق، فأويّتُ إلى سريري بعدما بدلتُ فستانني بثياب نوم استلمتها هناك - سترة قطنية وبساطًا - لتصبح المرة الأخيرة التي أرتدي بها فستانًا ..



مع اليوم التالي صار كل شيء أقوم به وفق بوقٍ ثابت .. مواعيد الاستيقاظ، مواعيد التدريبات، مواعيد الطعام، مواعيد الدروس النظرية، مواعيد النوم، كل شيء بالمعنى الحرفي لا بد وأن يسبقه ذلك البوق ..

صار اليوم طويلًا للغاية، أن تستيقظ مع شروق الشمس وتظل قائمًا بأشياء كثيرة متتابعة حتى موعد طعام العشاء، ثم تأوي إلى فراشك ليغمض جفنك في لحظات من التعب، ثم يبدأ يومك التالي مع البوق ذاته لتنهض في ثوانٍ قليلة، ونعدّ سريرك وتقف منتصبًا بجواره حيث ستمر ضابطة الأمن المسؤولة عن الغرفة لمعاينة مَنْ لم تستيقظ أو لم نعد سريرها، قيل أن يُطلق بوق جديد لتبدل ثياب نومنا بأخرى مخصصة للتدريبات الرياضية، ونغتسل سريعًا، ثم نندفع ركضًا إلى ساحة اصطفاغ الطلاب حيث نصطف جميعًا ذكورًا وإناثًا لنبدأ تدريباتنا ..

كان الأمر أشبه بالكابوس الذي ولجتُ إليه وعَلَقْتُ به .. ثم استطع أغمطية الرأس أن نقينا حرارة الشمس الشديدة .. وصارت التدريبات

اليومية عناء حقيقياً لا بد منه .. كانت الرمال من أسفلنا ساخنة للغاية، حتى ظننتُ أن يدي أوشكت على الاحتراق مع تدريبات أيامي الأولى، وياث وجهي شديد الحمرة ثم استحال لونه إلى الأسود، وصار شمري هاشاً للغاية مع حرارة الشمس ..

مع أساييمي الأولى انخفض وزني بصورة شديدة حتى أنني ذهبت مرتين إلى خياط المدرسة من أجل تضيق مقاساتي، ومع مرور الأسابيع صار كثفاي أكثر عرضاً، وأصبحت ذراعي أكثر قوة، وبدأت الدهون في جسدي تتشكل من جديد فقلّ محيط خصري بصورة ملحوظة حتى شمرتُ أنني صرْتُ أكثر طولاً، ورغم أن الأثم الذي كنت أشعر به مع التدريبات أخذ يقل كل يوم عن اليوم الذي يسبقه ظل تكبري بأنتي عالقة بكابوس لا يفارقني لحظة واحدة ..



يوماً بعد يوم بدأتُ أعرف علي ريفقات غرفتي، وصار الوقت القليل الذي يفصل بين وجبة المساء وموعد النوم لحظةً للسمر بيننا .. نتحدث عن أشياء كثيرة كان أغلبها عن الفتيان ..

سمعتُ قصصاً كثيرة من بعضهن لم أصدق أنها قد تحدث .. كان وجهي يحمر خجلاً من تلك الجرأة التي امتلكنها، حتى أن إحداهن أخبرتنا أنها مارست الرذيلة مع فتاهها ذات مرة، وكانت تموت قهراً بعدها، خشية أن تعمل بطفل يصير نسلها، لكنها نجت من ذلك ولم تحمل ..

وقالت ساخرة:

- لم أذهب إلى باحة جويدا تسعة أشهر كاملة خوفاً أن يكون هناك حملاً. وينال طفلي روحاً نسلية ..

وأكملت بتقرز:

- نسلي!! كنت أقتله وأقتل نفسي أفضل من ذلك ..

وقتها لا أعلم لماذا أصابني الضيق والاشمئزاز، وانسحبت من النقاش إلى سريري .. كانت المرة الأولى التي أشعر فيها أن التقرز من النسالي كأنه تقرز من نديم .. لم أعد أفهم نفسي، أنا التي كنت أكره النسالي كرهاً لا حدود له صار مع أي إساءة من إحداهن لهم بمثل ضيقاً حقيقياً بداخلي، لا يزول إلا بعد وقت طويل .. يومها وضعت غطائي على رأسي، وبدأت أفكر في نديم وهو يعمل معلماً في عامه السادس عشر، ويقوم بتدريس عدداً لا بأس به من أطفال الوديان حتى انسدت جفوني.



يومٌ وراء يوم .. استيقاظ، اغتسال، إفطار، تدريبات، تدريبات مرة أخرى، غداء، راحة مؤقتة، تدريبات مرة ثالثة، تدريبات مرة رابعة، وجبة المساء، أحاديثنا الليلية، بوق النوم، بوق الاستيقاظ، ضباط وضابطات يصرخون بنا، كل شيء سريع، كل شيء ثابت، يومٌ واحد مكرر بأحداثه، بأفراد، بجماده .. أيام تمر، أسابيع، أشهر، إلى أن حلت أجازتنا الأولى بعد ستة أشهر .. أسبوعان من الحياة القديمة مجدداً، كنت أظن أنني لن أدركها أبداً ..



كان الهواء خارج السور يختلف عن داخله، عباتُ صدري بالهواء
وأنا أسير بحقيبتني مع غروب الشمس بين الطالبات مبتعدة عن البوابة
التي أغلقت من خلفنا .. كان أبي في انتظاري كما وعدني، ضحك وهو
يحتضنني، وقال:

- يبدو أن ابنتي قد كبرت أخيرًا ..

قلت:

- لقد أصبحت ابتلك ذكرًا ..

ضحك وقبّل جبيني، ثم حمل حقيبتني إلى عربته، وانطلقنا في
طريقنا إلى جويدا، ولم يتوقف عن طرح أسئلته عما مررتُ به داخل
تلك الجدران، ثم تركني للنوم مع حلول المساء بعدما أغلقت جفوني لا
إرادياً في الموعد ذاته الذي اعتدتُ فيه النوم خلال الأشهر السابقة ..

كنت أظن أن الكون بالخارج قد تغير، لكنني وجدته كما هو ..
البيوت نفسها في جويدا، الناس أنفسهم، الأطفال اللاعبون بكراتهم،
كأنني تركتهم يوماً واحداً فقط وعدت، لم يتغير إلا أنا ..

ثم أفقتُ من شرودي على صراخ أمي حين رأنتني وهي تقف بشرفة
منزلنا قبل أن تعود إلى الداخل مسرعة، وتظهر أمام باب بيتنا،
لأهبط العربة وأسرع ركضاً إلى حضنها، فتركت كل شيء، وهمسست
في أذني:

- كما تمنيت .. لقد لحقت بيوم غفران هذا الشهر ..

كنت أعلم ذلك .. كان اليوم ذاته هو يوم الغفران، كنت أحسب الأيام جيداً، وشمرتُ بفرحة عارمة لما علمتُ أن موعدَ أجازتي تلك المرة سيوافق المساء السابق ليوم الغفران وهذا ما حدث .. قضينا الليل كله في طريفنا من قبلا إلى جويدا، ووصلنا صباحاً إلى مدينتنا لأتحق بذلك اليوم ..

قرر أبي أن يستريح من عناء السفر بعد بقائه مستيقظاً طوال الطريق ليلتنا الماضية، بينما أخبرتني أمي أنها سترافقني إلى الباحة، وأحضرت لي طعاماً كانت قد أعدته من أجلي، فتناولته على نحو سريع، ثم اتجهنا سوياً إلى الباحة بإحدى العربات المخصصة للذهاب إلى هناك مقابل أجر بسيط.

داخل نفسي لم أحب أن ترافقتي أمي لكني لم أستطع منعها من ذلك .. كنت في الطريق إلى هناك لا أفكر إلا بشيء واحد، كيف سأحدث إلى نديم وأمي إلى جانبي .. ولأنني أعرف أمي جيداً، كنت أعلم أنها لن توافق على رحلتي ليمض الوقت كما كان يفعل أبي، فلم أجد إلا أن أسئلم للواقع وأنتظر أي فرصة قد تسنح ..

عندما وصلنا الباحة وجدتُ أمي تقبض على يدي، وتريدنا أن نصل إلى المقدمة بالقرب من المنصة، لكنني تلكأتُ وتعججتُ إليها بأن منتصف الباحة أفضل كثيراً، وأصررتُ على رأيي حتى انصاعت لنادمي .. وجودنا بمقدمة الباحة كان يعني انعدام فرصة أن يراني نديم، أما منتصفها فقد يأتي إلى هناك بعد تأكده من عدم ذهابي إلى المرح الشرقي، وهذا ما حدث بالفعل ..

مرت ساعات قليلة ونحن نشاهد مراسم اليوم، كانت أمي منبهة للغاية مع ما يحدث على المنصة، بينما كنت ألتفت يمينا ويسارا وإلى الخلف طوال الوقت بحثا عنه دون أن أضع اهتماما لما يحدث على المنصة ..

سألت أمي أن أذهب لبعض الوقت فرفضت، سألتها مرات أخرى فواصلت رفضها حتى يأسْتُ من قبولها، فلزمتُ الصمت وواصلتُ تلفتي علي أراه، ثم انتهت مراسم إعدام أحدهم، وبدلاً من سماعنا زغردة إحدى النسالي سمعنا صراخ امرأة يأتي من جوارنا تقول بأن كيس نقودها قد سُرق ..

وفي ثوانٍ قليلة حدثت حالة من الهرج والمرج من المحتشدين بمحيطنا جعلتني أنفصل عن أمي بأمطار، وقبل أن أصبح إليها، وجبتُ بداً صغيرة تجذب سترتي، فالتفتُ نحو صاحبها، كان طفلاً صغيراً قد يبلغ الثامنة من عمره، مُترب الوجه والثياب، ما إن نظرتُ إليه حتى أشار في صمت إلى جانب صدره الأيسر ثم أشار بيده تجاه الشرق .. فأدركتُ وقتها أن نديم ينتظر هناك بالمرج الشرقي ففكرتُ لنوان، ثم نظرتُ بطرف عيني تجاه أمي، كانت حالة الهرج والمرج لا تزال قائمة، فانسَلْتُ بين الجمهور ناحية البوابة الشرقية الوسطى.

كان الطفل يسير أمامي في مرونة واضحة بين أرجل المتراحمين، حتى وصلتُ إلى البوابة، فتركني وعاد إلى الباحة، وأكملتُ طريقي إلى ضفة النهر الجاف عبر المرج الشرقي، حيث كان نديم في انتظاري، فقلتُ:

- كنت أظن أنني لن أراك اليوم ..

قال ضاحكاً:

- كنت أظن ذلك أيضاً حين وجدتُ أمك تقف بجوارك ..

قلت في دهشة:

- هل كنت بالباحة؟

قال:

- نعم .. بمنصف الباحة بجوارك .. لكنكِ لم تبصريني حين
التفتِ أكثر من مرة ..

قلت:

- ظننتُ أبحت عنك .. حتى حدثت حالة من الهرج والمرج بعد
سرقة إحداهن وقتها أدركتُ أن عدم تواجدك هناك خير
سيمسك ضباط الأمن بمن يجدونه من النسائي حتى يظهر
السارق ..

فقال باسمًا في هدوء:

- ثم يسرق أحد .. إن ريان وأخته الكبيري من دبروا كل شيء ..

قلت:

- من ريان؟

قال:

- الطفل الذي جاء بكِ إلى هنا، إنه أحد تلاميذي، وأخته دينا هي من صرخت لإحداث تلك الجلبة ..

زمنتُ شفتي في تعجب، وقلت:

- ستعال تلك الفتاة عقابًا كبيرًا من ضباط الأمن ..

قال:

- هذا إن أمسكوا بها، إنهما بارعان للغاية في الهرب ..

فقلت ضاحكة:

- كل هذا من أجل أن تلتقيني ..

قال:

- نعم .. كان لا بد أن أتحدث إليك ..

فابتسمتُ، ثم جلسنا بمكاننا المهود، وبدأتُ أحدثه عما حدث لي الأشهر الماضية، ويدورم أخبرني أن لديه ستة عشر تلميذًا يقوم بتعليمهم، بينهم ريان، ذلك الطفل التكي الشقي .. حدثني عن صعوبة تقبل نساء التسالي تعليم أبنائهن، لكن يومًا بعد يوم زاد العدد شيئًا فشيئًا ..

هناك على ما فعله، كنت حقًا سعيدة للغاية من داخلي، ثم سأنته بعدما أن أغادر، كان علي أن أعود إلى منتصف الباحة .. كنت أعلم

أن أُمي ستُجن من غيابي .. فهزّ رأسه موافقني، هوعدته أن نلتقي
مجدداً يوم الفُضران الذي يوافق أجازتي القادمة بعد ستة أشهر، فقال
بكل ثقة:

- وقتها سيكون قد أصبح لديّ تلاميذ أكثر ..

فضحكك وأنا أنهض وقلتُ:

- أتمنى ذلك أيها المعلم ..

ثم نهض هو الآخر، وسرنا سوياً تجاه الباحة، أخبرني أنه لن يذهب
إلى محيطها .. سيمود أدراجة، كان الطفل ذاته يجلس مقرضاً
بالتقرب من الجهة الخارجية للبوابة الشرقية في انتظاره، فهمستُ
إلى نديم:

- إنه هناك .. صديقك ..

فضحكك. واقترينا منه، ثم كاد قلبي ينخلع من موضعه حين صاح
صوت خشن مفاجئ بأن فتوقف ..

التفتُ جانباً، كان ضابطاً للأمن جامد الوجه ضخّم البنيان
تخطاني واقترب من نديم، وقال بكل استهزاء وهو ينظر إلى وشم
صدره:

- نسلي 15 .. إلى أين تذهب؟

نظر نديم إلى الأرض، وقال:

- إنتي سأرحل سيدي ..

فدار حوله يتفحص جسده، ثم قام بتفتيش سرواله بطريقة مهينة، فقال نديم:

- لا شيء هناك سيدي ..

فلكم الشرطي صدر نديم بقبضة يده، وقال بلهجة أمرة:

- اصمت ..

وواصل تفتيشه، كان نديم ينظر إلى الأرض دون أن يرفع عينه أو يحرك جسده ..

لم يجد الشرطي شيئاً بسرواله، وظننت أنه ستركه يمضي، لكنه وقف أمامه وبمجرد أن رفع نديم نظره عن الأرض ونظر في عينه حتى استدار ناحيتي ونظر إلي متفحصاً لي، قبل أن يلتفت فجأة إلى نديم ويصنع وجهه صفة مفاجئة كادت تطيح بأسنانه .. وقال:

- لا تعد إلى هنا مجدداً أيها القذر .. يلزم النسالي جحورهم ..

لم يتحرك نديم، ونظر إلى الأرض ثابتاً في موضعه .. بينما وثب الطفل ريان من جلسته خائفاً، وعاد خطوات تجاه بوابة الباحة وعيناه تترقب ما يحدث .. ثم تجمع بعض شبان جارتين بالقرب منا، وبدأوا في إلقاء تعليقاتهم الساخرة عن النسالي، فتظر الشرطي إليهم في نباه، وضحك وهو يدور حول نديم، حتى توقف مرة أخرى وصنع الجانب الآخر من وجه نديم صفة أقوى من الأولى ..

كان قلبي يدق بقوة، وتسارعت دقاته أكثر حين رأيْتُ خيطاً من
الدماء قد بدأ يسيل على وجه نديم، لكنها بلغت ذروتها حين وجدتُ
نديم يرفع طرف عينه إليّ في ذلِّ بالغ .. قبل أن يحرك بصره في تحدٍ
إلى الشرطي، وتتفخع عروق رقبته وذراعه بالدماء بعدما كور قبضة
يده ..



(١٤)

كاد قلبي ينخلع من صدري حين رأيتُ نديم يكوّر قبضة يده
استعداداً للكم الشرطي ردّاً على إيذائه وإهاناته دون سبب، فلم أجِد
نفسي إلا وأنا أَرْجُ بجسدي أمام نديم لأهف حائلاً بينهما، وأنطق
بسرعة إلى الشرطي:

- سيدي .. إنني طالبة بالمدرسة العليا لضباط الأمن بقبالا.

نظر إليّ بغضب كأنه لا يصدقني .. لم يكن لديّ ما يثبت كلامي
لكنني لاحظتُ أنه نظر إلى ذلك المثلث الداكن من جلدي أسفل
عنقي، والذي لا تحميه ثيابي العسكرية من أثر الشمس الحارقة أثناء
تدريباتي .. فهدأت ملامحه وكأنه تيقن من كلامي حين رآه، فتأملتُ:

- إن صديقي لم يفعل شيئاً .. لم يتواجد بالباحة من الأساس ..

زَمَّ شفتيه وغمغم ساخراً:

- صديقي ١٩

كان الفتية الساخرون ما زالوا يراقبون ما يحدث، ومن خلفهم ريان الذي لم يحرك عينه عنا، فقال الشرطي:

- اغربا عن وجهي-

فاومأت برأسي قبل أن يقول لي:

- لا تصادق الشريفات النسالي .. لن تصدقي كلامي حتى يغتصبك بعدما يقال ثقتك، وفتها ستفعلين بهم أكثر مما أفعله.

لم أعلق على حديثه، أمسكت بيد نديم وغادرنا فحسب. بينما لم يتوقف الفتيان عن الغممة بتعليقاتهم السخيفة عني وعن نديم .. ثم لحق بنا ريان إلى الساحة الجنوبية للباحة المخصصة للعربات، فتوقفنا هناك ونظرتُ إلى نديم الذي لم يرفع رأسه إليّ منذ ابتعدنا عن الضابط، وقلتُ:

- لا عليك .. منجد من الصعاب الكثير في طريق هدفنا ..

- لقد تربوا على نظرة واحدة تجاه النسالي .. أعلم أن الأمر صعب للغاية، لكن خطأ واحداً سيدمر كل ما نسعى نحوه، وأنا لا أريد ذلك .. ولا أنت ..

ظل صامتا .. كانت شمة دموع تلمع بعيني، كنت أدرك أنه يجاهد بقوة كي لا تسقط أمامي .. المرة الأولى التي أشمر فيها بالخزي الذي يحمله النسالي .. لكنني لم يكن لديّ سوى أن أواسيه، ثم مر وقت قليل قبل أن يتحقق:

- حسنًا يا غفران .. سأعود إلى حيثما جئت .. سأراك بعد ستة أشهر .. أتعنى أن تظلي بخير ..

قلت:

- وأتعنى لك ذلك ..

ثم أشار إلى ريان بأنه سيفادر، فأطلق الفتى صفارته، فظهرت أخته من بين العريات .. كانت في مثل عمري تقريبًا، ثم انطلقوا مفادين عبر الطريق الترابي جنوب الباحة .. ووقفتُ أراقبهم حتى اختفوا عن بصري، فعدتُ إلى منتصف الباحة، وعثرتُ على أمي بعد جهد كبير.



في الأشهر التالية بمدرسة الضباط صار الأمر مهمًا إلى حد ما بعدما بدأنا تدريبات الأسلحة النارية والفروسية واللتين وجدتُ نفسي بهما، وكان بداخلي راميًا وفارسًا ظلاً حبيسين طوال السنوات الماضية حتى وجدا مخرجيهما أخيرًا بين جدران تلك المدرسة. غير أنني لم أنس قط ما حدث بآخر يوم غفران التقيتُ به نديم، وما فعله ذلك الضابط بنا يومها، وظلت أحلامي لفترة طويلة تدور جميعها عما حدث ذلك اليوم .. صفعات متكررة على وجه نديم، دماء تسيل من وجهه، قبضة يده تتكور لتأخذ طريقها إلى وجه من يهينه، لكنها قبل ذلك تصطدم بي لتعطيني إلى أجزاء صغيرة تتناثر كقطع الزجاج، بعدما يحاول أن يجمعها فلا يستطيع، بينما يعثر الضابط بجوار تلك القطع ليقول:

- لن تصدقي كلامي حتى بفتصّبك بعدما ينال ثقتك .. وقتها
ستفعلين بهم أكثر مما أفعل ..

فاستيقظ من نومي على قزع رهيب لا أريد أن أنام مجدداً، وأظل
جالسة على سريري في انتظار بوق الاستيقاظ .. حتى أن مغبليتي
قد صنعت من لوحة الأهداف المخصصة لتدريبات الأسلحة النارية
صورة ذلك الضابط .. لتصيب طلقاتي رأسه كل مرة .. الفريب
في الأمر أنني رُشحت في خلال ثلاثة أشهر كأفضل رامية في صني
الدراسي لأخوض منافسة داخلية بيني وبين أفضل الرماة بالصفوف
الأكبر مني ..

ظل وجه الضابط لا يفارق مغبليتي كلما صوبتُ تجاه اللوحة، ومع
كل مرة كنت أحقق أفضل النتائج، وذاع صيتي بالمدرسة عندما وصلتُ
للمنافسة النهائية بيني وبين أفضل رام بالصف الأخير، والذي لم
يسبق وأن خسر من قبل أمام طالب آخر منذ التحاقه بالمدرسة ..

كان ذلك اليوم هو اليوم الأخير في الستة أشهر التالية .. انتصبت
لوحتان خشبيتان بمنتصف ساحة المدرسة .. كانت كل لوحة منحوتة
على هيئة رجل .. بينما وقفتُ أنا ومنافسني على بعد ثلاثين متراً ..
وابتمد الطلاب عنا بأمتار قليلة مصطفين بكل الجهات عدا الجهة
التي نصوب نحوها .. وجلس كبير معلمي المدرسة وغيره من الضباط
المعلمين على منصة جانبية ارتفعت أقداماً قليلة عن الأرض في انتظار
بدء منافستنا ..

كان لكل متسابق منا خمس تصويبات، انفاثر من يطلق تصويباته
بأكثر دقة وأسرع وقت .. وتنتهي المسابقة بمجرد أن ينتهي أحدهما من

تصويباته .. شعرتُ أن الطالب الآخر يمتلك من الثقة بالنفس ما يجعله يصيب رأس الهدف على مسافة أكثر من مائة متر لا ثلاثين ..

لكنني تماسكتُ ونظرتُ إلى لوحة هدية وحاولتُ استحضار وجه الضابط الذي أكرهه ليحل محلها، وانفجرت أسارير وجهي حين استحضرها ذهني سريعاً، ثم هدأت مهممات الطلبة من حولنا بعدما أشار إليهم أحد الضباط بالهدوء ..

ثم التفت ذلك الضابط إلى كبير المعلمين، قبل أن يستدير إلينا ويصبح بأن نبدأ، فرفضتُ سلاحي الناري أمام عيني، وأغمضتُ عيني اليسري وبدأتُ التصويب نحو وجه الضابط الذي استحضرتُه مخيلتي، لكنني فوجئتُ بأنه تبدل فجأة إلى وجه نديم، ووجدتُ يدي تطلق الزناد .. خمس ضربات متتالية دون توقف، ليخيم الصمت على المكان، فتطرتُ خلفي، كان الجميع يحذقون بي غير مصدقين وكأنهم قد فتحوا أفواههم ونسوا أن يغلظوها ..

كان الطالب الآخر لم يطلق إلا طلقتين فقط، فنظر إلي غير مصدق لما حدث .. أما أنا فالتفتُ مجدداً، ونظرتُ إلى هديتي في ذهول .. لم أكن أراه لوحة خشبية، كانت عيني تراه يقف أمامي، بصدرة الماري ووشم صدره، تنزف رأسه من منتصفها وهو يعلق بي مكسور العين ..

وبينما كان جميع الطالبات يندفعن نحوي ليحطن بي في فرحة عارمة، كانت عيني لا تزال مُعلقة على اللوحة الخشبية التي يتححصنها ضابطان لإعلان النتيجة دون أن تسمع أذني أي تهليلات مما قالتين زميلاتي، وكأنني قد انفصلتُ عن العالم لدقائق ..

ثم هدأ الجميع مرة أخرى حين انتهى التضابطان من فحص اللوحتين وعادا إلى منصة كبير المعلمين وأخبراه بالنتيجة. لتظهر ملامح الدهشة على وجهه، قبل أن يهبط من المنصة ويتجه نحوي، ويقول لي في سعادة بالغة:

- خمس تصويبات في ثوانٍ قليلة جميعها بالرأس .. شيء لم يحدث من طالب من قبل .. إنك الراعي الأفضل بمدرستنا ..
ثم نظر نحو الطلاب وقال:

- يبدو أن رامي منصة الباحة سيصبح سيدة للمرة الأولى في التاريخ.



«ريان»

اسمي ريان .. نسلي يعيش بالوادي ذاته الذي كان يعيش به السيد نديم .. التحقت بالتعلم على يده في عمر الثامنة، ومن بعد صار العدد يزداد شيئاً فشيئاً .. حتى أصبحنا ستة عشر طالباً بعد السنة أشهر الأولى، وثلاثين بنهاية العام الأول، وخمسة وخمسين مع نهاية العام الثاني، وظل العدد في تزايد مستمر مع شهورنا المتتالية .. لم أعرف قط كيف كان يقنع سيدي أمهاتنا بأن نلتحق بمدرسته الصغيرة التي لم تتجاوز حوشاً صغيراً أمام كوخه المتطرف بوادينا، لكنه نجح في ذلك على أي حال ..

كنت أقرب الطلاب إليه، وصار يهتم بكل شأن لي كأنه شأنه تماماً، واستأمنني على سر علاقته بالسيدة غفران في شهري الأولى من التعلم تحت يده .. أتذكر الخطوة البدائية التي رسمناها سوياً أنا وهو وأختي ديما ننشئت انتباه أم السيدة غفران عنها ليستطيع مقابلتها، قبل أن ينتهي ذلك اليوم بنهاية أفسدت علينا كل شيء ..

يومها عدنا سيرًا عبر الطريق الترابي إلى وادينا .. لا أتذكر أنه
نطق بكلمة واحدة طوال الطريق .. لم تعلم أختي حينذاك ما حدث
فسألتني في تعجب عن سبب ذلك الصمت الشديد والتجهم اللذين
سادا طريقنا، فلم أجيبها بشيء .. كان ما رأيته كافيًا بأن يهدم كل ما
تعلمته بأشهر الستة التي سبقت تلك الواقعة .. كنت طفلًا صغيرًا
لكنني أدركت أننا نحن النسائي مهما وصل بنا الحال سنظل نسائي
.. الطبقة المنبوذة في هذا البلد، سأنته حين أصبحنا على مشارف
الوادي، وكانت ديمًا قد تأخرت بخطوات عنا:

- لماذا لا تفادى جارتين؟ ..

قال:

- لن يكون لنا قيمة في أي مكان آخر .. طالما لا قيمة لنا في
بلدنا ..

قلت ساخرًا:

- بلدنا؟

ثم تابعت عندما لحقت بنا ديمًا:

- سنظل نون قيمة طالما وجدت القواعد ..

قال بعدما سرنا بضعة خطوات صامتتين:

- ستتغير القواعد يوما ما ..

فأطلقت ديمًا ضحكاتها الساخرة، وقالت يتهمكم:

- تنغير القواعد ١٥ .. يحلم نديم النسلي.

لم يردّ سيدي على ما قالت، فقلتُ:

- لو كنت مكانك لم أكن لأقبل ما فعله ضابط الأمن وإن كلفني
حياتي ..

قال:

- كنت سأفعلها .. لكنني وعدتُ غفران ألا أرتكب جرماً قد يصل
بي إلى منصة الإعدام ..

تبرمنا أنا وأختي، وأثرنا أن نكمل طريقنا صامتين.

رغم صغر سني وقتها إلا أن داخلي كان يؤمن بشيء واحد: موتٌ
على منصة الباحة أفضل ألف مرة من حياة دون كرامة، لكنني عاودتُ
نفسي وقلت: لكل امرئ حياته له الحق أن يسبّرها كما يشاء .. وتابعتُ
دروسي مع سيدي، وحاولتُ أن أتناسى ما رأيته ذلك اليوم ..

ثم مرت ستة أشهر أخرى. وحلّ يوم الغفران للشهر السابع،
وذهبنا سوياً إلى باحة جويدا لمقابلة السيدة غفران .. كانت تلك
المرّة أسهل كثيراً من المرّة الأولى، كانت السيدة غفران قد جاءت
بمفردها إلى ضفة النهر الجاف حيث انتظرها سيدي .. غير أن ما
حدث بآخر لقاء بينهما قد حدث مجدداً من أحد شبان جارتين، لكن
بعدما غادرتنا السيدة .. كنا في طريقنا إلى مغادرة جويدا عندما
اعترض طريقنا ذلك الأخرق، وحاول إيذاء سيدي عندما رأى وشمه،
ومثل المرّة السابقة كتم سيدي غيظه إلى أقصى حد، فواصل الشاب

إهاناته، ولكم سيدي بمنصف صدره بقوة، فواصل سيدي كتمان غيظه، ثم رأيت قبضة يده تتكور وشعرت أنه على وشك أن يرد لكمة، لكنه تعالكَ نفسه بالنهاية، وتركنا الفتى بعدما صبَّ علينا وأبلاً من الشنائم ..

لم أحب ما حدث وكرهت كوننا نسائي، وبدأت كراهيتي لأهل جاريتن تزداد في قلبي كل يوم عن اليوم الذي يسبقه .. ولم أجد نفسي إلا وأنا أصرخ به دون وعي:

- لماذا لم تفعل ذلك سيدي؟ ..

قال هادئاً:

- من أجلكم ..

قلت باستنكار بالغ:

- لا أريد ذلك ..

قال:

- ستفهم كل شيء حين تكبر يا ريان ..

ركلت حجراً بقدمي في طريقنا في حنق شديد، ثم ركضت غاضباً مبتعداً عنه دون أن أنظر خلفي، كان داخلي يصرخ:

- لا أريد أن أصبح مثل سيدي .. بنس ذلك الحب الذي يجعلني ضعيفاً ..

كان كل ما يدور في رأسي صفعات ضابطة الأمن على وجهه،
ونكسات الشاب الجارتي، ولكمته القوية له بمنتصف صدره دون أن
يصدر سيدي أي ردة فعل، وعدتُ لاهثًا إلى كوخ أمي، وانزويتُ بأحد
أركانها باكياً، وحدثتُ نفسي وأنا أنشج:

- أكره جارتي وأهلها .. أكرههم وأكره السيدة التي تفعل ذلك
بسيدي .. كان عليها أن تتركه وشأنه فحسب، يمشي مثل باقي
النساء ..

وبقيتُ في تلك الحالة المزربة حتى حلَّ الليل وخيمَ الظلام الدامس
على وادينا، ومع كل لحظة كان الغيظ يزداد بداخلي تجاه السيد نديم،
إلى أن وثب بعقلي قراري بالأأ أكمل دروسي معه، واشتعل الغضب
بداخلي ساعتها، ونهضتُ من موضعي لأذهب إليه في منتصف الليل
لأفرغ له ما في جعبتي من كلمات لاذعة وأخبره صراحة أنني لا أرضى
أن أكمل دروسي معه .. وخطوتُ مسرعًا خارجًا من كوخنا، وأنا أمسح
دموعي وأهمس إلى نفسي بما سأقوله:

- لن أتعلم معك بعد اليوم أيها الضعيف .. كنت أقرب السادة لي
.. لكنني لن أرضى بأن أكون مثلك يومًا ما ..

وأكملتُ طريقي بين الطرقات المظلمة الساكنة إلى حد الموت حتى
وصلتُ إلى كوخه القابع بالطرف الآخر من الوادي .. كان ثمة مصباح
بضيء داخله، فأدركتُ أنه بالداخل، وتوقفتُ أمام الكوخ أحاول أن
أراجع ما أقوله .. قبل أن تندفع الدماء إلى وجهي وتتسارع دقات قلبي
ارتعابًا حين اخترق سمعي فجأة صوت طرقات مستمرة كانت تأتي من

داخل كوخه .. طرقات قوية كأن أحدهم يهدم جدارًا، حتى أن نور المصباح الصادر داخل الكوخ قد اهتز معها، ثم كدتُ أبلل بنطالي حين صدر صوت صراخ شديد مفاجئ مع تلك الطرقات .. هددتُ خطوات بظهري إلى الخلف، وجلستُ على الأرض من الرعب الذي انتابني ..

ظلت الطرقات مستمرة بنفس القوة دون توقف .. بينما كان الصراخ يزداد مع كل طرفة كأن أحدهم يزار بالداخل .. ما كان يقتلني خوفًا أنني كنت أعلم أن ذلك الزئير هو صوت سيدي نفسه، ثم تماكنتُ أعصابي، ونهضتُ واقتربتُ بحذر على أطراف أصابعي من باب الكوخ الخشبي .. ودستُ عيني بين شقوق الباب لأرى ما لم أراه في حياتي ..

كان سيدي عاري الجسد تمامًا .. تبرز عيناه بشدة، وتنتفخ عروقه وعضلات جسده بصورة لم يسبق لي أن رأيتها .. كان يلكم جدار الكوخ بلكمات متتالية شديدة للغاية جعلت الدماء تسيل من قبضته، لكنه كان يواصل ضرباته وكأنه لا يشعر بأي ألم، بينما تزار حنجرته بصوت صراخ يرجّ الجدران من حوله مع كل ضربة يضربها .. ضربات مستمرة دون توقف .. زئير متواصل يصل عنان السماء .. دماء تسيل من قبضة يده دون ألم .. رعب حقيقي يجتاحني وأنا أرى بعيني كيف بدأت الروح النسلية تتور داخل جسد سيدي.



«غفران»

أصابني الفرحة العارمة زميلات صفى عندما صدر لفظ رامي المنصة من كثير ضباط المدرسة، وغمرني بوابل من المباركات والتهاني، أما أنا فاجتاحني حالة من الذهول والتشتت الشديد ما بين فرحتي بما حدث قبل لحظات وبزوغ أمل مفاجئ للعمل بالباحة مرة أخرى، وبين وجه نديم الذي ظهر لي على الهدف الخشبي لأحقق نتيجة تصويب وتوقيت لم يسبق لطالب وأن يحققها .. ولما طال ذلك التشتت على ملامحي سألتني إحدى زميلاتي إن كنت لا أشعر بالفرحة، وإن كان كل شيء بي على ما يرام .. فطمأنيتها، قبل أن أغادر مشتتة البال وأعود إلى فراشي بمنبر النوم.

في اليوم التالي كان موعد أجازتنا الموسمية .. أربعة عشر يومًا، حضرتُ بها يوم الغفران، وتمكنتُ من مقابلة نديم بسهولة عن آخر مرة، لم يحدث شيء عندما كنا معًا، حتى تركته وعدتُ إلى والدي، لا أتذكر أنني تحدثتُ كثيرًا تلك المرة، كنتُ شاردة للغاية على عكس العادة .. كنتُ كلما أنظر إليه أتذكر وجهه المنطبع على الهدف الخشبي وتلك الإصابة الدقيقة بين حاجبيه، وقتها أصابني الضيق

من نفسي، وأثرتُ أن أعود إلى الباحة بعد فترة قصيرة جداً من لقائنا .. كان الطفل ريان ينتظره أمام البوابة الشرقية مثل المرة السابقة حتى غادرا سوياً ..

ثم بدأ عامي الثاني في المدرسة، ومعه تغير شيئان كانا إيجابيين للغاية .. الأول أن أمي صارت حبلى بأخي زين، والثاني أنني أصبحت الأكثر شهرة بين طلاب المدرسة المتجاوزين الألف طالب بعدما لم يتمكن أحد من الاقتراب من معدتي في التصويب.



ظلت تصويباتي يوماً بعد يوم تبهز كل من يشاهدني، حتى أن بعضهم أخبروني خلسة أنني أفضل من معلمينا . بعدها التحقتُ بفريق الرماية المتميز بالمدرسة لأرناح كثيراً من التدريبات البدنية الشاقة.

مع كل مسابقة للرماية كانت هناك ثلاثة أمور ثابتة .. وجه نديم المنطبع أمام عيني على الهدف الخشبي .. المركز الأول دقةً وتوقيتاً بفارق كبير عن المراكز الأخرى .. ثناء كبير الضباط وتأكيد لي بأنني رامي المتصّة القادم. وهذا ما حدث بالفعل ..

عدتُ إلى باحة جويدا بعد أربعة سنوات كرامي منصتها .. أربعة سنوات هانتني فيها أيام كثيرة من أيام الففران، لكنني صرتُ خلالها أكثر قوةً وجراءةً ونضجاً عما كنت عليه قبلها .. أربعة سنوات لم يخلُ فيها نديم بوعده الذي قطعه لي، وظل على قيد الحياة يعلم أبناء النسمالي ..

أتذكر يومي الأول على المنصة هناك .. تلك المهمات التي صدرت ولم تقطع حين ارتقيتُ المنصة بملابسي العسكرية .. بدتني الصوفية الرمادية ذات الأكمام الطويلة، والبنطال الضيق الذي يعمل نفس اللون ويندس أسفل حذاء جلدي طويل العنق، بينما يحيط خصري حزامٌ أسود سميك تُعلق به حافظة سلاح الناري المُعبأ بالبارود الحي ..

كانت خطواتي الأولى على المنصة ثابتةً واثقة .. لم أجد قلبي يدق رهبةً مثلما كان سيفعل إن حدث هذا الأمر قبل سنوات .. وقفتُ مواجهةً للجمهور شاهقة الرأس قبل أن ألتفت تجاه القاضي الكبير لألقي تحيتي العسكرية، ثم تلقيتُ أمر الإعدام منه لأتفَّ بنبات بالغ إلى النسلي الأول في حياتي المهنية، وصوبتُ سلاحي نحو رأسه لينطلق البارود محطماً ما بين حاجبيه .. وقتها فقط توقفت المهمات ليمسود صمت رهيب لم يقطعه إلا صوت زغرودة انطلقت من مؤخرة الباحة .. كانت المرة الأولى التي أقتل فيها أحدهم، ولم تكن الأخيرة ..

يوم غفران وراء آخر بدأت يدي تعتاد إطلاق النار على النسالي فوق المنصة .. إعدامٌ واحد بكل مرة، اثنان، ثلاثة .. رجال، نساء .. لم يكن عقلي يفكر بهم على الإطلاق .. كلهم واحد، مجرم استحق القتل، وجاء دوري لأحقق عدالة جارتين ..

صار الأمر بالنسبة لي طلبةً بارود تُطلق .. جثة تتساقط .. زغرودة تنوي من خلفي .. لأنتقل إلى إعدام آخر وكان شيئاً لم يحدث .. ذات يوم سمعتُ امرأة تقول أن أطفال جويدا بانوا يخافون مني ومن جمود وجهي وملامحه القاسية .. لم أعطِ اهتماماً لذلك .. لكنني مع مرور

الأيام صرْتُ حقًا الفتاة التي يخشاها أهل جويدها جميعهم .. وهذا ما
أسعد داخلي للغاية.

على عكس أمي التي كانت ترى أن وظيفتي تلك كانت ستقلل فرصتي
بالزواج .. وبدأ الجدال يشتمل بيننا كلما جاء عريسٌ لخطبتي ورفضني
للأمر دون حتى التحدث معه .. ثم حُلَّتْ فاجعتنا الكبرى حين مات أبي
مرضًا قبل وصوله الخمسين بثلاثة أعوام .. ومن بعدها صار الجدال
بينني وبين أمي طقسًا يوميًا لا بد وأن يخوضه كلانا .. حتى فاض بي
الأمر ذات مرة وصرختُ بها:

- سأتزوج نديم ..

قالت مستفهمة:

- نديم من ١٩ ..

قلت بصوت خافت:

- النسلي ..

قالت غير مصدقة:

- ألم ينتهِ ذلك الأمر منذ أعوام ١١٩

هزرتُ رأسي نفيًا، وقلت:

- نعم، لم ينتهِ ..

ظلت تنظر نحوي في ذهول حينما رأَت الجدية التي أتحدث بها،
ثم صرخت بي:

- لن يحدث هذا الأمر ..

قلت:

- لقد وعدته بذلك، وأقسم لك لو أنه عبر إلى عامه الخامس والعشرين دون جريمة سأزوجه أمام أهل جارتين جميعهم ليصير شريكاً مثلنا ..

فجلست على مقعدها أمام الطاولة ووضعت رأسها بين يديها، ونهمت:

- لن يحدث هذا الأمر .. لن يحدث ..

كان أخي قد بلغ أربع سنوات وقتها .. وكان يراقب جدالنا بخوف .. فأكملت وهي تنظر إليه:

- لن يصيب العار عائلتنا أبداً ..

فقدارتُ غاضبة .. وزاد الأمر عناداً بي أنني صرتُ أقابل نديم علناً أمام الناس جميعهم بعدما أصبح لقاءنا بأبام الفقران أمراً محالاً لبقائي بالباحة طوال اليوم .. ويوماً بعد يوم انتشر خبر مقابلاتنا بين أهل جويدا، ولُقب نديم بالنسلي الذي يواعد السيدة غفران .. رامي المنصة .. وسمعتُ أن كثيراً من الحكايات والقصص المختلفة قد تناقلت بشأننا ..

غير أنني كنت أعرف تماماً أنني لا أخالف قواعد بلادي بتلك المقابلات، وأنه لا توجد قاعدة واحدة تمنع أن يقابل نسلي شريفة ..

فألقيتُ بهرائهم كله وراء ظهري، لأكمل وعدي الذي وعدتُه به قبل
سنوات بأنني سأواصل معه طريقه نحو عامه الخامس والعشرين،
لأزيل وقتها وشمه بخنجري على منصة باحتنا المفضلة ..



«ريان»

عدتُ بقدمي خطوات إلى الخلف دون أن أصدر أي صوت، ثم جلستُ على بعد أمتار قليلة من باب الكوخ ضامًا ركبتيَّ إلى صدري برتجف جسدي بشدة بعدما لم تتوقف الطرقات أو الأصوات الصارخة الصادرة من سيدي .. كنت خائفًا للغاية من الاقتراب من الباب الخشبي مجددًا، لكنني قررتُ ألا أغادر وأترك سيدي، ومكثتُ مكاني ينتفض جسدي مع كل صرخة، وتدور بعقلي خيالات كثيرة بعدما تخيلتُ نفسي بموضعه بعد قليلٍ من الأعوام ..

ثم مر الوقت ساعة وراء أخرى وبدأت الطرقات تهدأ شيئًا فشيئًا وأصبحت على فترات متباعدة وهذا الصرخ معها، فعلمتُ أن الإنهاك قد أصابه، إلى أن توقفتُ تمامًا، فتهضتُ واقتربتُ بحذر لأنظر عبر شقوق الباب، فوجدته ملقى على بطنه ممددًا عاريًا ساكنًا نطفي الدماء ظهر يديه المصابتين بشدة، فعددتُ سبابتي في حذر بشق كبير بين قطعتي من أخشاب الباب للألمس قطعة خشبية صغيرة أفقية كانت تغلقه، وبدأتُ بتحريكها حركة نصف دائرية حتى تمكنتُ

من فتحه ببطء، ودلفتُ إلى الكوخ باحتراسٍ، وجثوتُ على ركبتي بجواره .. وقلت:

- سيدي ..

لم يجيني، فنهضتُ وأحضرتُ قميصًا قماشيًا كان ملقى على الأرض، وغطيتُ به خصره الماري، وهمستُ إليه مجددًا:

- سيدي ..

ثم مددتُ يدي إلى كتفه، وهزرتُه بحذر وقلبي يدق خوفًا:

- سيدي ..

بمدها كاد قلبي يتوقف حين فتح عينيه المحمرتين فجأة ونظر لي عيني مباشرة، فأجفلتُ وعدتُ مضطربًا إلى الخلف فسقطتُ على ظهري .. فقال متعبدًا:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا ريان .. حان وقت الدرس ١٩ ..

قلت باضطراب:

- لا يا سيدي .. إنتهي فقط ...

فتنظر إلى يديه المجروحتين وقال خائفًا:

- ماذا حدث؟ ١٩ ..

لم أقل شيئًا .. ثم وجدته ينهض فجأة، فسقط القميص عن خصره، فرفعه على الفور ليفطي جسده أمامي، ثم سألني مجددًا وهو يتفقد الكوخ المحطم من حوله:

- ماذا حدث؟ ..

قلت:

- رأيتك تضرب الجدران بقوة وتصرخ صراخاً لم أسمعه من قبل ..

سكت وهو يتفحص يده اليمنى المصابة إصابة بالغة، ثم قال شارداً:

- لا أتذكر أي شيء ..

أومأت برأسي إيجاباً دون أن أقول شيئاً .. ثم نهضت وتحركت بين أركان كوخه الضيق، وأحضرتُ له بنطالاً من صندوق خشبي كان مفتوحاً، فارتداه في الوقت الذي أحضرتُ به إناءً من الماء كان بركن بعيد، وأخذتُ أغسل جروح يده وأزِيل الدماء المتجلطة عنها .. كنت قد رأيت أحدهم يفعل ذلك في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى جويدا

كان ينظر إليّ وأنا أقوم بذلك فحسب، حتى انتهيتُ فوجدته يقول:

- لا تخبر أحداً بما حدث ..

هزّزتُ رأسي إيجاباً، ثم قال بصوت هادئ محدثاً نفسه:

- لن أَدْعِها تتصر ..

فتطوّرتُ إليه وأنا أعلم أنه يقصد الروح النسلية، قبل أن يتابع:

- سأكمل وعدي إلى غفران ..

قلت وقتها:

- أي وعد سيدي؟ ..

قال:

- سننزوج بعد ثمان سنوات ..

اتسعت حداثتي عيني، وقلتُ فرحاً:

- حقاً؟ .. سأصير وقتها في السابعة عشر ..

فريت على رأسي يده، فنهضتُ وقبَلْتُ رأسه فابتسم، ثم غلبه
النماس بعد ذلك الإنهاك الذي مر بجسده، فعدتُ إلى كوخنا ..



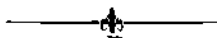
لم أخبر ديمًا يومها بشيء .. ظَلَلْتُ مستيقظًا أفكر بها حدث حتى
وقت طلوع النهار التالي .. ووجدتُني أعود إلى مدرسة السيد نديم
لأكمل دروسي معه .. وكأنني نسييتُ ما كنت أفكر به الليلة الماضية حين
ذهبتُ إلى كوخه غاضبًا .. لا أعلم ما الذي حلّ بداخلي، صارت لدي
رغبة عارمة لكي يحقق سيدي حلمه ..

رأيتُ بعيني كيف كان يقاوم روحه التسلية .. وأدركتُ جيدًا أن
تَمَالُكَ نفسه أمام من تعمدوا إيذاءه لم يكن إلا قُوَّةً فحسب، لو ترك
الرجال لتلك الروح بداخله لتفقد جسده لقتلهم على الفور، لكن حينها
لن يكون لجسده سبيل إلا المنصة الملعونة ليتركنا جميعًا .. هذا الذي

أعطى لنا أملاً كبيراً لنمسي أشخاصاً عاديين لا نقل عن الشرقاء
في شيء .. كان بتعليمه لنا يدرب نفوسنا للسيطرة على الروح الآثمة
وقدما يكن الأمر متعلقاً بحياتنا أحياء ..

لم أعلم وقتها إن كان يفعلها لأجله أم لأجل السيدة غفران أم
لأجلنا .. لكنني كنت متيقناً تماماً أن ما كان يفعله سيبقى نقطة فارقة
في حياة النسالي .. وزاد الفخر بداخلي بأنني أول من تعلمت على يديه
.. وزاد تعلقي به وكأنه والدي الذي لا أعرفه .. وصرت أذهب كل مساء
إلى كوخه لأطمئن عليه دون أن يراني، كنت أنظر من شقوق الباب
فحسب .. إن كان نائماً تركته نائماً وأغادر، وإن هاجت روحه ظللت
منظراً خارج الكوخ حتى تهدأ، فأدلف إلى الكوخ وأضمد جراح يديه
وأغادر قبل أن يفيق من غفوته ..

كان يعلم بالطبع أنني من يفعل ذلك فيأتي ليشكرني باليوم التالي
فأرد كلامه بابتسامة صادقة ..



عام وراء آخر صار السيد نديم حقاً هو حلم النسالي .. أصبح
عدداً مع العام الرابع مائة وعشرة طالب .. فقسمنا إلى جماعات
على مدار النهار، وجعلني أنولى تعليم الأطفال الأصغر سناً ..

مع الوقت صار حلمي أنا الآخر أن أصبح شريفاً يوماً ما لا مجرماً
يعت أمام أهل چارتين .. وشعرت بأن ذلك بات حلم الكثيرين غيري
ممن يتعلمون على يد معلمنا .. خاصة بعدما أصبحت السيدة غفران
لامي المنصة وأعلنت بكل جرأة عن علاقتها بالسيد نديم، لتنتشر

الحكايات والفصوص منهما بين أكوأختنا، وليتضخم معها الأمل
بيننا جميعاً .. أنا الذي كنت أخشى أن تثور روعي النملية صار قلبي
مطمئناً بأنني سأخضعها لسيطرتي حينما تثور، وإن كلفني ذلك
إصابات بالغة بيدي .. تمنيتُ لو لم تفادر ديماً .. كنت أقول لها يوماً
ربما يتغير حالنا، لكنها لم تؤمن بذلك، وغادرت مع عجري رجال من
بلاد أخرى ..

ها هي السنوات تواصل مرورها، وعبر سيدي عامه الرابع
والمشرين، وبات حلمنا جميعاً على وشك التحقق يا ديماً .. لكن
الحقيقة التي لا يعرفها غيري .. أنه كلما مر يوم واقترب سيدي من
عامه الخامس والمشرين كان الأمر يصير أكثر صعوبة ..

مع اليوم الأول في ذلك العام صار هناك شيء مختلف إلى حد
ما .. وقتها كنت قد بلغتُ عامي السادس عشر واشتد عودي كثيراً ..
ووجدتُ سيدي يأتي إلى كوخِي ركضاً، ويطلب مني لاهناً أن أقيده،
فتعجبتُ مما يطلبه، لكنه توسّل إليّ كي أسرع، ففعلتُ ما أمرني به،
وقيدته بحبل سميك، وجلسْتُ على مقربةٍ منه في ثرقب شديد ..

عاد سيدي إلى انتفاضاته وزئيره الصارخ المتواصل .. كان الزئير
تلك المرة أقوى من المرات الكثيرة الماضية .. ومعه انتفخت عروقي
جسده وخاصة رقبته بصورة مرعبة جعلتني أظن أن الدماء ستنفجر
منها .. حتى أن الخوف قد سيطر عليّ، فابتعدتُ مهرولاً إلى ركن بعيد
بالكوخ، واستعددتُ للهروب بعدما ظننتُ أنه سيقطع الحبل السميك
الذي قيدته به، لكنه انهار بعد فترة من الوقت .. وهو يقول لي:

- هناك شيء ما يتحرك بداخلي ..

كنت أشفق عليه كثيرًا، فقلتُ:

- ستعبر هذا العام ..

لكنه وأصل مهمته وهو يلهم:

- هناك شيء ما يتحرك بداخلي بقوة ..



(١٦)

«غفران»

ما كنتُ أخشاهُ قد حدث، حين بلغتُ عامي الثالث والعشرين وبلغ
نديم عامه الرابع والعشرين كانت أمي قد وصلت عامها الخمسين ..

أيقظتنا ذلك الصباح طرقات على بابنا كنا نتنظرها بعسرة
شديدة، قبلها بأيام ظلت أمي باقية بحجرتها ترتدي فستاناً أبيض
وتحتضن زين، بينما لم أغادر بيتنا لحظة واحدة تلك الفترة، وكأنني
وددتُ لو عوضني ثومي بحضنها في آخر أيامها عن سنواني التي
سأعيشها بدونها ..

لم نشأ أن يدور أي جدال بيننا بشأن زواجي .. كنا ابنة وأم على
وشك الموت فحسب، ليبقى ثلاثتنا على سرير واحد نتبادل دفء
أجسادنا قبل أن نفقد الدفء الأكبر .. الصفة الحقيقية المؤهلة لب
من قواعد جاريتين ..



مع ذلك الصباح حضر ضابطان إلى بيتنا معهما أوراق ثبوت
بلوغ أمي الخمسين، لم يعترض أي منا إلا بدموعنا التي سالت على
وجوهنا، لا يستطيع أحد الاعتراض .. لا استثناءات في هذه القاعدة،
ومن أجل بقاء نسلنا شريعًا كان على أمي إنهاء حياتها طبقًا للقواعد
ذلك الصباح ..

غادرت أمي مع الضابطين الذين رفضا مرافقتي لهما، حتى وإن
كنت أعلى منهما رتبة، وبقيت أنا وزين في بيتنا .. سألتني بخوف:

- إلى أين تذهب؟

قلت كاذبة:

- سنعود قريبًا ..

لا يعلم أي من أهل چارتين شيئًا عن طريقة موتنا بوادي حوران
بالشمال الشرقي، يختص رجال الدين بذلك الأمر ويبقونه سرًا ..
أكثر الأقاويل قالت أنه سمّ مريح بوقر مبهمة مريجة دون ألم، لكن لم
يستطع أحد أن يؤكد ذلك الأمر، سأعرف حتمًا حين أبلغ موعدني،
أنسى فقط أن تذهب روح أمي النقية إلى جسد ماهر شريف يحافظ
عليها ..

هذه هي سنة الحياة في چارتين .. ألم حقيقي من فراق أقرب
الناس لك عليك أن تعتادم، هكذا خلقتنا وهكذا نعيش وهكذا نتركها
لن بعدنا ..



بعد موت أمي تركت بيتنا القديم، وانتقلت مع أخي إلى بيت جديد
لبدء حياة جديدة، حاولت تدريجيًا أن أعوضه عن غياب أمي وأن أهتم
به كأن أبي وأمي موجودان تمامًا. مسكين هذا الطفل جاءت به أمي
ليمنع عني وحدتي لكنها تناست أنه سيُحرم صغيرًا منها ومن أبي ..

لم أهتم بتعليمه القواعد كما تعلمت في صفري، وتركته يعيش
حياته كطفل يحب اللعب مثل أقرانه في ذلك السن، وفرحت كثيرًا حين
وجد بمنطقتنا الجديدة صحبة اعتادت لعب الكرة أسفل شرفتي، مع
مرور الأيام نمودت على صياحهم الصباحي، كذلك أصبحت المكافئة
لهم بحبات الحلوى إن أحرز أحدهم هدفًا .. كنت أشعر أنهم يحيونني
حقًا عكس ما يردده البعض بأن أطفال جويدا يخشونني.

اليوم كانت سعادتهم بي أضعافًا مضاعفة، كنت أعلم أن زين
قد أخبرهم أنني بلغت عامي الرابع والعشرين، وأن السيدة سامرية
ستأتي لأخذ مقاسات جسدي بعدما اتفقت مع نديم آخر مرة الفتي
بها بأن يُقام زواجنا بباحة جويدا بيوم الفجران نهاية هذا الشهر .. ما
كنت أصدق حقًا أن نديم سيوصل إلي عامه الخامس والعشرين دون
أن يكون أحد قتلاي على المنصة .. لقد فعلها من أجلي، قالت السيدة
سامرية مازحة وهيا تنظر إلي جسدي:

- من يرى هذه الأثوة لن يصدق أبدًا أنك الفتاة ذاتها التي
نراها في باحة جويدا ..

ضحكت وأنا أنظر إلى المرأة، وقلت:

- لست شريرة سيدتي .. إنه عملي فحسب ..

قالت:

- سيصبح زواجك على المنصة من فتاك حديث أهل جارتين
تسنوات، هذا إن لم يكن قد صار حديثهم الآن بالفعل ..

قلت:

- إنها قصة كبيرة. سيأتي يوم ما لكتابتها ليقرأها كل أهل
جارتين ..

غمغمت مازحة وهي تقيس محيط صدري:

- رامي المنصة تتزوج النسلي ليصير شريفًا ..

قلت:

- إنه شريف حقًا، ويستحق ذلك ..

ضحكت، ثم نساءلت:

- ولكن يوم الزفاف، من سيقوم بدور الرامي لإعدام المذنبين؟

قلتُ بأسمة:

- سيكون هناك بديل عني حتمًا، لن أقتل أحدهم بستان زفافه ..

قالت:

- إنك قوية حقًا سيدتي، سأكون أول الحاضرين بالباحة يوم
الغفران القادم ..

ثم انتهت وحملت أغراضها وهي تقول:

- سأعمل جاهدة على الانتهاء من فستانك قبل يوم الغفران
بوقت كاف ..

ابتسمت وأنا أومئ لها إيجاباً، وقلت:

- أتمنى ذلك ..

ثم غادرت، وجلست مع زين الذي ناقشني بطفولة عن زواجي من
نديم، أخبرته أن نديم سيعيش معنا في بيتنا ابتداءً من يوم الزفاف،
ففرح لذلك كثيراً قائلاً بأن هناك من سيلعب معه أخيراً باليوم كله
.. كان لا يزال طفلاً بريئاً لا يعمل ضغينة نحو أي نسلي.

مرت الأيام تبعاً، التقيت خلالها بتديم مرة واحدة، كان متغيراً
نوعاً ما .. لكنني حين سألته أخبرني أنه بخير، واستطرد مضمراً تغيره
بأن اللحظة الفارقة قد اختريت للفاية وهذا ما يجعل اضطرابه أمراً
طبيعياً، فوافقته ..

في ذلك اليوم توجهت وأنا عائدة إلى بيتي إلى بائع السكاكين،
واشتريت خنجرًا ثمناً دون أن أخبره، وعندما عدت علقْتُ ذلك
الخنجر داخل حافظته بجوار فستان زفافه الذي أعدته السيدة
سامرية بأحد أركان غرفتي، وتمنيتُ وأنا أنظر إليهما لو أن طبييًّا
تواجد بالباحة يومها ليعالج الجرح والألم الفاتجين عن إزالة وشم
نديم .. لكن أعرف حبيبي جيداً، لديه من قوة التحمل ما يجعله في
عدم حاجة إلى أي طبيب أو دواء ..

كنت في انتظار يوم الفجران بفارغ الصبر، لا أعلم لما صارت الأيام
بطيئة إلى هذا الحد .. أيها الوقت الثقيل مر سريعاً في سلام، واثت
يوم الفجران الذي انتظرتُه تسع سنوات كاملة .. لكنه أتى لي بالفتى
الذي لم أراه منذ عامين تقريباً، ريان !! ..

اندهشتُ عندما رأيته أمامي حين فتحتُ الباب، كان مضطرباً
ومتوترًا للغاية يبلل العرق نصفه العلوي العاري، فسألتُه في توجس
حين رأيته يلهث:

- هل حدث خطب لنديم !!؟

قال الفتى:

- أعتقل سيدي للتو.



اتصتُ حدفتنا عيني، وأنا أقول:

- ماذا تقول !!؟

قال ولكنه سريعة خائفة:

- لقد أعتقل ..

أسخنته إلى ردهة المنزل وجلستُ أمامه بعدما ترنحتُ وكأن أحدهم
ضربني بفأسه على رأسي، ثم قال:

- كان سيدي يعاني منذ سنوات، لم يعرف أحد ذلك، كانت روحه
الفسلية تنور كل ليلة تقريباً خاصة في الأيام التي كان يتعرض
فيها للإيذاء من شركاء جارتين، رأيته بعيني وهو يحاول
تحميمها، كان ينهك جسده من أجل إخمادها ..

وتابع:

- كان جسده مليئاً بالجروح لهذا السبب ..

جالت بعقلي الجروح الكثيرة والخدوش التي طالما رأيتها بيد نديم
أو ذراعه أو كتفه، وتذكرت حديثه عنها دائماً بأنها حوادث متفرقة
نتيجة الحياة البدائية في وديان الفسالى ..

أردف الفتى وهو يبلع ريقه:

- منذ عام تقريباً، منذ عبوره عامه الرابع والعشرين وأخذ الأمر
منحني آخر، صار الأمر صعباً للغاية .. لم يكن أمامنا إلا تقييد
سيدي بهبل سميك لئلا حتى تهدأ روحه ..

- كان يقول لي أن روحه الأثمة ستُحصد يوماً ما بعدما تؤمن تماناً
بأنه لا مجال لها، ويؤكد عليّ كل مرة ألا أخبر أحداً بما يحدث
له ..

كنت أستمع إليه، وترنمش قدماي لا إرادياً، وكأن غفران ضابطة
المنقصة الواثقة القوية قد عادت مجدداً إلى الطالبة الصغيرة الخائفة
المرتبكة .. قال ريان:

- لقد كان يعاني كثيرًا، كثيرًا للغاية .. كان لديه من الأمل ما يجعله يسعى للعبود إلى يوم الزواج، لكنه لم يستطع ..

ثم صمت قليلًا قبل أن يتابع:

- كان يختفي كثيرًا بالأيام الأخيرة، ووكل لي مهمة تعليم الطلبة، لم أكن أعلم إلى أين يذهب، لكنه كان يطمئنتني أنه بخير بعدما يمود، فظننت أنه يُعدني لأكون من يخلقه بتعليم أبناء النمسالي أو يأتي لرؤيتك في تلك الأوقات ..

قلت:

- ثم أراه إلا مرة واحدة خلال هذا الشهر، ثم سأله:

- ماذا فعل؟ .. لماذا اعتقل؟

قال:

- قالت لي فتاة نسلية أنه كاد يقتل امرأة شريفة، يقترب عمرها من الخمسين لكن ضباط الأمن أمسكوا به قبل أن يقتلها ..

وضعت رأسي بين ذراعي المصنودتين على الطاولة، ودارت السنوات الماضية جميعها برأسي، كل شيء .. سنوات الباحة .. المدرسة المتوسطة .. لقاءات المرج الشرقي .. كلماتنا ونحن نعد بعضنا بالوفاء بمهدنا حتى نتزوج، كل شيء مر في رأسي في ثوانٍ، كما ضاع كل شيء في الثوان ذاتها .. أفقت مما كنت فيه على كلمات ريان:

- عليك أن تساعديه، لقد عانى كثيرًا، لقد رأيت معاناته بعيني، أقسم لك أنه كان يسعى جاهدًا للوصول إلى هدفكما، لكن يبدو أنه لم يستطع التحمل، كان الأمر يفوق قدرته ..

طالما لم يقتل قد يمتلك فرصة للنجاة من الإعدام، إنني أعني القواعد جيدًا .. إن قبلت بالزواج به يومها سيكرمه القاضي إكرامًا لك كشريفة .. لقد حان وقتك لتساعديه، أرجوك لا يتعلق الأمر بنديم فحسب، إنه يتعلق بنا جميعًا، أرجوك .. زواجك منه في الموعد ذاته سيخمد روحه الأثمة، لن يفعلها ويرتكب أي جرم مرة أخرى ..

وجئنا على الأرض وهو يبكي كي يقبل قدمي، فأبعدتها سريعًا ..

كان داخلي مضطربًا إلى حد فقدان الزمان والمكان كل معانيهم، أظن أنني لم أفهم أي كلمة من كلماته التي قالها بعد ذلك حتى .. صارت الكلمات جميعها فجأة لا تزيد عن همهمات تسممها أذني .. كل ما فعلته أنني واصلتُ سكوني وجمودي في موضعي، حتى الدموع نفسها تحجرت في عيني وأبت أن تسقط، كان ثمة صوت فقط يعصف بداخلي:

- لقد ارتكب نديم جريمته .. لقد ارتكب النسلي جريمته ..

ظلّ ريان يتوسل إليّ ويقول:

- كان يمانى من أجل أن يكمل وعده إليك ..

بينما أنا كنت في عالم آخر منفصل، لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا كنت أمر به .. صرْتُ كالبناء الشاهق الذي انهار في ثانية واحدة .. ثم نهضتُ من موضعي هائمة، واتجهتُ إلى غرفتي، وتركتُ ريان بالردمة وكأنه غير متواجد، وأغلقتُ الباب من خلفي، وجلسْتُ على الأرض أسندة بظهري ورأسي .. كان فستان زهلي مُعلقاً مكانه أمامي بجوار حافظة الخنجر، فلم أتمالك نفسي وأجهشتُ في البكاء.

بكيتُ هذه المرة أكثر من أي مرة بكيتُ بها في حياتي، أكثر مما بكيتُ يوم رحيل أبي وأمي .. ثم أصابتني نوبة من الصراخ والهياج خطمتُ بها كل ما هو قابل للكسر بغرفتي، حتى جُرحت يدي وانسال الدم منها، فجلستُ مجدداً أواصل بكائي ..

سمعتُ طرقات ضعيفة على باب الغرفة، فقلتُ باكية:

- لا تقلق يا زين، إنني بخير .. دعني الآن فحسب ..

كان بصري ثابتاً على الفستان والخنجر المتدلي، لا يتحرك عنهما بينما أوبساراً .. وظللتُ في هذه الحالة إلى أن استيقظتُ فوجدتني على سريرتي، وحين حركتُ عيني جانباً وجدتُ زين يجلس بجواري ومعه امرأتان من جيراننا .. أخبرتني إحداهما أنني فقدتُ وعبي، واستغاثتُ بهما زين، وأن هناك طبيباً قد أتى وطمانهم أنني بخير بعدما ضُمد يدي المجروحة، أخبرهم أنني في حاجة إلى الراحة فحسب .. ههزرتُ رأسي إيجاباً والدموع تتساقط على وجهي، ثم أغضضتُ عيني وثمانيتُ داخل نفسي ألا أنهض مجدداً أبداً.



صارت الأيام الثقيلة البطيئة تركض فجأة وكأنها التحقت بسباق سرعة، لم أغادر غرفتي طوال تلك الأيام إلا من أجل إعداد الطعام لزين، قبل أن أعود سريعاً إليها، لأنظر شاردةً إلى الفراغ أمامي .. ينقبض قلبي مع كل نهار يمر ليقرّب يوم الفجران يوماً كاملاً .. تمنيت لو تمكّنت من الذهاب إليه لكني لم أستطع .. ليس مسموحاً لأحد بزيارة المساجين من النسائي، وإن كان ضابطاً للأمن .. كان ذلك أمراً قضائي لا نقاش فيه.

ومع سرعة الأيام الرهيبة التي فافت إدراكي، حلّ صباح يوم الفجران .. كنت أعلم أن خبر زواجي هذا اليوم قد انتشر بالأرجاء وخاصة بعدما أخبرتُ بديلي يوم الفجران السابق بالاستعداد ليحل محلي كرام للمنصة لإعدام المذنبين بعد زفائهم .. لا يعلمون أن كل شيء قد انتهى ..

وقفتُ بغرفتي أمام فستان الزفاف والخنجر المعلقين، وأنا أتذكر حديث ريان بأنني الأمل الوحيد لنجاة نديم، ومن ثمّ نجاة النسائي من بعده .. ثم تغلّلت تفكيرتي كلمات أمي، النسائي خائنون .. لن تكف الروح عن آثامها أبداً، واخترفت كلماتها أذني:

- لن يحمل نسلنا العار أبداً ..

لتتدخل مع كلمات ريان:

- لا يتعلق الأمر بنديم فحسب، إنه يتعلق بنا جميعاً ..

تدخلت معهما كلمات نديم:

- وماذا إن لم أفِ بوعدي؟

لأسمع صوتي:

- سأفقتك بالختجر ذاته وقتها ..

عاد صوت ريان من جديد:

- إنه يتعلق بنا جميعاً .. أرجوك، عليك أن تساعدني ..

أمسكه صوت أمي:

- النسالي خائنون، سيحمل أطفالك الروح النسالية .. سيحملون
العار .. لن يففروا لك ذلك أبداً ..

عاد صوت نديم:

- سأفعلها من أجلك .. لن أرتكب أي جريمة حتى موعد زواجنا ..

صوت أمي مجدداً:

- النسالي خائنون ..

صوت ريان:

- إنك الأمل الوحيد لنديم ولنا ..

صوت أمي:

- إنهم خائنون ..

صوت نديم:

- للأبد ..

صوت الظابط الذي أمانه أمامي:

- سيأتي يومٌ تملين بهم أقسى مما فعلتُ ..

صوت نديم:

- من أجلك ..

صوت أمي:

- خائفون ..

صوت ريان:

- من أجلاً جميعاً ..

أصواتٌ متداخلة لم تتوقف عن الصراخ في عقلي كأنني أصبتُ بالجفون .. حتى أمسكتُ برأسي، وجلستُ على سريري أنظر إلى الأرض أمامي في غير تركيز، ثم رفعتُ عيني إلى الفسنان والخنجر أمامي. واتخذتُ قرارٍ الذي اطمأن إليه داخلي ..



كانت الباحة ممتلئة عن آخرها ذلك النهار عندما وصلتُ إلى بوابتها الشمالية المخصصة للقضاة وضباط الأمن، كنتُ قد تأخرتُ قليلاً حتى أن العروض الترفيهية كانت قد انتهت، ثم مكثتُ في مكان متوارٍ خلف المنصة الخشبية دون أن أظهر لأحد ..

كنت أريد مزيداً من الوقت لتمالك نفسي بعدما شمرتُ باضطراب شديد كان الأصعب في حياتي على الإطلاق، ثم عُقد الزواج الأول وهلل الحاضرون .. بعده عُقد الزواج الثاني وهللوا مرة أخرى، قبل أن يعلن القاضي عن انتهاء زيجات اليوم وبدء المحاكمات لتبدأ مهمات الجمهور بعدما توقفوا أن هناك زواجا سيتم بيني وبين نديم ذلك اليوم، ثم بلغت الهمهمات ذروتها بعدما صعدت السلم انخلفي للمنصة لأقف أمامهم بثوبي العسكري الكامل ..

حتى أن بديلي الذي كان يعدّ نفسه للقيام بهامي نظر إليّ هو الآخر في تعجب بالغ، فهزّزْتُ نه رأسي إيجاباً بأنني جاهزة للعمل، ثم تحركتُ إلى منتصف المنصة وسط الهمهمات المتواصلة إلى أن وقفتُ بمكاني، وألقيتُ التحية العسكرية للقاضي، قبل أن ألتف وأواجه الجمهور المحتشد ..

ثم تحدث القاضي بكلمات لم تختلف كثيراً عن مهمات الجمهور بالنسبة لي .. بعدها جُر المذنب الأول كُبل الهدين ومغطى الرأس من خلفي، فازدادت الهمهمات إلى حد غير مسبوق، فعلمتُ أن غطاء الرأس قد نُزع وظهر رأس نديم .. وكأن جسدي قد تفاءل لأجزاء احتاجت إلى من يلملمها ويعيدها متلاصقة كما كانت، ووقفتُ متمسرة مكاني أخشى أن ألتفت إليه .. ثم صدر أمر القاضي إليّ بإطلاق الرصاص، وقتها سكنت الهمهمات لأستدير إليه، كان واقفاً مُرهقاً مُكبلاً عاري الصدر .. تقول عيناه التي كانت تنظر في عيني مباشرة: - أنقذيني ..

فوجدتُ نفسي أرفع سلاحي الناري بمستوى بصري، وقتها مرَّ
رأسه والدموع تلمع في عينيه لتدور برأسي كلماتًا سويًا، قبلته لي
بالباحة، تملقه بالقائم الجانبي للباحة، التختة الخشبية والمعادن
المكتوبة، اسمي المنفوش، وكلمة «للأبد».. لأجد يدي تنخفض مجددًا
لتنسقط السلاح الناري على أرض المنصة الخشبية، فاشتعلت
الهممات مرة أخرى وأنا أقترِب خطوات منه، إلى أن وقفتُ على بُعد
خطوة واحدة منه، فقال ودموعه تتساقط:

- حاولتُ كثيرًا، أقسم أنني حاولتُ كثيرًا من أجلك ..

كنت أنظر إليه والدموع تتجمع بعيني .. قال:

- لن أفعلها مجددًا .. أقسم لك ..

لم أنطق .. فتابع:

- هناك شيء ما تحرك بداخلي دون أن أعي، لم أكن
أنا .. أعطيتني فرصة واحدة أخرى فحسب .. أقسم لك
سأحافظ على وعدي ..

كنت أنظر إلى الأرض بينما هو يتوسل إلي بكلماته ثم رفعتُ عيني
وقلتُ وأنا أنظر في عينيه:

- من يخون مرة .. يخون كل مرة ..

ثم أخرجتُ خنجري الذي ظل مُعلقًا لأيام بجوار فستان زفافه،
وبضربة واحدة حاسمة شققتُ عنقه لتتناثر دماؤه الداهية على أرض
المنصة ..

سكون تام .. لا همهمات، لا همسات، لا أصوات، لا شيء .. أهواء مفتوحة دون كلمات، وعيونٌ مذهولة تنظر جميعها إلى وأنا أستدير نحوهم بعدما سكنت جنة نديم الفارقة في دمانها تمامًا عن الحركة .. لأنظر إليهم وإلى الباحة .. كانت المرة الأولى التي أتمعن فيها النظر إلى الباحة من ذلك المستوى المرتفع.

ثم نظرتُ إلى الفاضي بجواري والذي لم تختلف دهشته عن غيره من الحاضرين، ونظرتُ إلى سلاحى الناري الملقى على الأرض وعلقتُ به نظري لثوانٍ في شرود تام، ثم وجدتني أخلع حزامي الجلدي المحيط بخصري لألقي به على الأرض بجواره .. ثم ألقيتُ بخنجرى بجوارهما .. ثم فككتُ أزرار سترتي العسكرية التي تحمل شارتي وخلفتها، ثم وضعتُا بجوارهم، قبل أن أهبط السلم الخشبي المواجه للمحتشدين.

وكان أذني قد صُغت عن انعالم المحيط بي لم أسمع إلا وقع أصوات خطواتي المتباطئة على خشب السلم يتقاطع مع صوت دقات قلبي وأنفاسي .. لأسير هائمة بين المحتشدين الذين أفسحوا مسارًا لي .. لأبتعد أكثر وأكثر عن المنصة، لا تعني أذني كلمة واحدة مما يُقال من حولي، حتى ارتطمتُ بأحدهم وسقطتُ على الأرض، وقتها أفقتُ لحظيًا من شرودي، لأدرك شيئًا واحدًا .. ثم تطلق أي زغرودة بعد مقتل نديم، تساقطت دموعي على وجهي وأنا أنهض بعدما مذ أحد الرجال يده لمساعدتي، ثم أكملتُ طريقي إلى البوابة الجنوبية للباحة لأغادرها إلى الأبد.



(١٧)

«فاضل»

لم يختلف الحال كثيرًا في أيامنا ببحر «أكما» عن أيامنا العشر التي قضيناها بطريقنا في صحراء بني عيسى. تحركت بنا السفينة في اتجاه الجنوب، وعلى متنها أويت أنا وصديق إلى غرفة ضيقة كانت مخصصة للمسافرين الرجال، بينما انفصلت ديمنا عنا وانضمت إلى غرفة أخرى خصصت للنساء ..

كنا نلقي أثناء النهار في بعض الأيام أناكد خلالهما من تناول ديمنا أعشابها في مواعيدها، ونفترق أثناء الليل، غير أن عقلي لم ينوقف قط عن التفكير في ذلك الحديث الذي دار أمامي بين مالك السفينة وديمنا قبيل صعودنا السفينة .. ولما اشتد الضجيج برأسي لم أجد إلا أن أسأل صديق قبل أن يغمض عينه لينام عن صحة ما سمعته، فأجابني وهو شبه نائم:

- نعم، إنه صحيح .. تباع أطفال نسالي چارتين بأسعار باهظة الثمن خارج چارتين، ستجني ديمنا الكثير من الذهب مقابل

مقلها .. برغب الكثيرون من قطاع الطرق والمجرمين
واللصوص في شراء هؤلاء الأطفال .. يدفع فيه اليوم كيسًا
من الذهب، ويجني بعد سنوات قليلة أضعافًا مضاعفة للسر
الذي دفعه، أكدت السنوات أنهم الأكثر موهبة في ارتكاب
الجرائم، وبقاؤهم داخل جارتين إهدار لثروة لا يعلم قيمتها
إلا لصوص البلدان الأخرى ..

قلت:

- لا أستطيع أن أتخيل أن تتبع أم ابنها ..

قال:

- إنهن حاملات للعار، وحامل العار على استعداد لفعل أي شيء
.. يبيعون أنفسهم من أجل المال فما بالك بأطفال ناتجين عن
الخطيئة سيموتون سيموتون يومًا ما، لا تشغل بالك بالأمر،
لقد نلت أجرًا مقابل عملك، اخل ما عليك، وبمدها عد إلى
بلدك سالمًا ..

هزرت رأسي، ونظرت إلى سقف الغرفة الخشبي وأغمضت عيني ..

خلال الأيام المتبقية لم أفتح نقاشًا عن ذلك الأمر مرة أخرى سواء
مع صديق أو مع ديماء، وشغلت نهارى بنقاشات أخرى مع أشخاص
كانوا معنا على متن السفينة، تأكدت من خلالها أن ما أخبرني به
ديماء عن جارتين وقواعدهما واقع تمامًا يفصلني عن رؤيته بعيني أيام
قليلة.

في اليوم التاسع عشر ظهر أمام عيني جدار چارتين العظيم، كان
جداراً رهيباً أبحرنا على مقربة منه، قال البحار وأنا أقف بجواره:

- يتحمل هذا الجدار عبء حماية چارتين لقرون طويلة ..

كان الموج هائجاً للغاية في تلك الأثناء، فأبطأت السفينة من
سرعتها وزاد نشاط البحارة على سطحها، وهبط معظم الركاب
إلى الغرف السفلية بينما بقيت على سطح السفينة مع البحارة،
وساعدتهم في نزح المياه التي كادت تصل إلى مستوى ركبتني ..

ظللنا نسير بمعاذاة الجدار يوماً كاملاً وبضعة ساعات .. حتى
وصلنا مع غروب شمس اليوم العشرين إلى مرفأً جنوبي كان يقع بقرية
صغيرة تظهر من خلفها سلسلة جبلية تبتعد قليلاً عن نهاية الجدار،
أخبرتنا ديما بأنها تسمى الجبال الحمراء، ثم رست السفينة، وقامت
ديما بتمزيق كم ضستانها الأبيض ليظهر وشم أزرق منقوش على كتفها،
أدركت أنه وشم النسائي ..



سارت بنا عربة صديق في طريق رملي امتد في اتجاه الشمال، ثم
ظهر برزخ النهر الجاف فقالت ديما ونحن نسير بمحاذاته:

- أهلاً بك في چارتين ..

بعدها حل الليل فقررت أن نمسك ليلتنا في مكاننا، على أن نواصل
تحركنا مع طلوع الشمس نحو باحة جويدا ..

في صباح اليوم التالي أكملت بنا العربة طريقها تجاه الشمال.
كنت أشعر بالاشمئزاز يتنامى بداخلي تجاه ديما كلما تذكرتُ أمر
بمعها لطفها المنتظر لكني آثرتُ أن أبقى صامتاً .. حتى وصلت بنا
العربة إلى الباحة المنشودة وهناك أصابني الدهول كلياً بعدما رأيتُ
بعض احتشاد عشرات الآلاف داخل سور ذلك المكان في الساعات
الأولى من الصباح ..

أخبرنا صديق أنه سيبقى بعربته، ففادرتُ أنا وديما ودلفنا من
البوابة القريبة من ساحة العربات واتخذنا مكاناً بجنوب الباحة، كان
الكثيرون يتحدثون من حولي أثناء المروض الأولى للفرقة الموسيقية
عن زواج سيدة المنصة أورا ميها كما قال بعضهم من شاب نسلي .. ثم
نادتني ديما كي نتحرك خطوات إلى الأمام مع بدء الزيجات، لاحظتُ
أن أهل جارتين لم يعطوا اهتماماً كبيراً للزيجة الأولى ولا الثانية ..

بدأ أن تركيزهم كله كان منصّباً على الزواج المنتظر، لكني رأيتُ
خيبة الأمل على وجوههم بعدما انتهى زواجان ولم تكن هناك زيجة
ثالثة، في ذلك التوقيت التفتُ حولي فلم أجد ديما، فضربتُ رأسي
مؤنباً نفسي بعدما وضعتُ تركيزي مع تعبيرات الوجوه من حولي ولم
أنتبه إلى ديما التي تحركت من جواربي دون أن تخبرني ..

فارتقيتُ برأسي كي أبحث عنها، ثم خطوتُ خطوات للأمام لكني
لم أجدها، وتوقفتُ مكاني بعدما لم يسمح لي أحد بالتقدم خطوات
أخرى .. ثم انتبهتُ مرة أخرى إلى المنصة حين زادت الهمهمات
عندما صعدت المنصة امرأة ذات زي عسكري، قالت امرأة بجانيبي
في دهشة:

- إنها هي .. السيدة غفران ..

تعنيتُ داخل نفسي لو أمتلك الثقة التي بدت على وجه تلك السيدة. كانت تقف أمامنا بثبات بالغ يتدلى سلاحها الناري من حزام خصرها .. تنظر أمامها دون أن تلتقي عينها بأحد من الجمهور المحتشد أمامها، وينتصب كنفها العريضان لتقول أنها الأكثر قوة في تلك الباحة ..

ثم جرّ جنديان رجلاً مُكبلاً مُغطى الرأس ليقف خلفها مباشرة، ثم نزع أحدهما غطاء رأسه، فازدادت الهمهمات من حولي، وسمعتُ رجلاً يصيح:

- إنه هو .. عريسها النسلي ..

فبليت الهمهمات أقصاها، وبدأ الحاضرون يقضون على أطراف أقدامهم ويتدافعون ليشاهدوا ما يحدث أمامنا، ووقفتُ أنا الآخر على أطراف أصابعي، لأنظر إلى تلك السيدة على المنصة ومن خلفها الشاب المُكبّل، وتخيل عقلي قصة حب عظيمة بين ذلك الثنائي انتهت بخيانة أحدهما للآخر ليكتب مشهد النهاية أمامنا ..

ثم يأخذ الأمر دقائق بعدها، التفتت السيدة بثباتها المدهش إلى رجل أربعيني وقور كان على يسار المنصة قبل أن تلتف نحو الشاب المُكبّل، وقتها فقط صممت الهمهمات من حولي، وتطلعت الأعين في انتباه شديد إلى المنصة ..

لكننا فوجئنا بها تُلقي بسلاحها بعدما كادت تطلق النار تجاهه، قبل أن تقترب منه لتُخرج خنجرًا أو سكينًا وتشقّ رقبتها .. ثم استدارت

بهذه. وألقت بثوبها العسكري وخنجرها بجانب سلاحها، وهبطت سلم المنصة المواجه لنا، لتختفي عن عيني، فالتفتُ حولي لأبحث عن ديماء، وبدأتُ أنادي بصوت مرتفع علماً تسمعي، غير أن الأصوات المرتفعة لضجيج الناس قد حالت دون ذلك.

فاستدرتُ وعدتُ خطوات إلى الخلف، وواصلتُ ندائي بصوت أكثر ارتفاعاً، لكنني توقفت فجأة حين اصطدم بي أحد الأشخاص من الخلف، والتفتُ نحوه وأنا أنفادى السقوط، فوجدتها المرأة زانها التي كانت تقف على المنصة .. السيدة غفران .. والتي سقطت من أثر الارتطام بي، فمددتُ لها يدي، وساعدتها على النهوض، نظرت في عيني للحظة واحدة، رأيتُ عينها تلمع بالدموع لأشعر وقتها أن القوة التي أظهرتها أمامنا على المنصة قد انهارت لتوها، واستعالت إلى ضعف شديد سينخر بقوة داخل تلك السيدة ..

نهضت وأكملت طريقها مبهتة عني بين المتزاحمين الذين أفسحوا لها الطريق .. شرد تفكيري قليلاً وأنا أتابع ابتعادها، قبل أن يفكر عقلي مجدداً بديما التي اختفت، والزعزعة التي لم أسمعها .. وهذا ما كان يعني أمراً واحداً، وهو بقائي في هذا البلد شهراً آخر حتى يوم الغفران القادم لينال جنين ديماء فرصة أخرى، وهذا ما لم أزد أن يحدث على الإطلاق، وواصلتُ ندائي من جديد .. ثم هدأت الهمهمات من حولنا بعد مفادرة ضابطة الأمن الباحة، فنظهر جلبه جديدة على بعد أمتار عن يساري، وسمعت أذني من تصرخ بكلمة طيب، تحركت بصعوبة تجاه الصوت، وقلت لشخص يقف في طريقي ولا يريد أن يتحرك:

- إنني طبيب ..

قال بدم أكثر:

- إنها نسلية .. دعها تموت ..

لكنني اجتزته، وواصلتُ طريقي بصموية بين الأجساد المتلاصقة،
حتى اقتربتُ من صوت الصراخ، كان لامرأة بدا أنها تجلس على
الأرض، كانت تصرخ بدون توقف:

- نريد طبيباً ..

حاولتُ بمسقة بالغة تغطي الدائرة التي تحيط بها حتى عبرتهم،
وكدتُ أقول لها أنتي طبيب، فوجدتها فتاة يظهر وشم النسالى على
كتفها، تجلس على ركبتيها وبجوارها ديما نائمة على الأرض فاقدة
وعينا، فأدركتُ أن نوبة الصرع قد أصابتها، فجلستُ على ركبتي
سريعاً وفحصتُ علاماتها الحيوية، وتأكدتُ أن مجرى تنفسها على
ما يرام، فهدأتُ من روع الفتاة الخائفة ..

ثم بدأتُ في إفاقتها عن طريق إصابتها بألم بالغ، وأخذتُ أضغط
بإبهامي أسفل حاجبها ضغطات شديدة وسطاً تمجيب المحيطين بي
نكنهم هدأوا حين وجدوها ترفع يديها لتبعد يدي الضاغطة عن
حاجبها، فواصلتُ ضغطاتي حتى فتحت عينيها، فأبعدتُ يدي، ظلت
لثوانٍ تنظر إلي دون تركيز كأنها تستوعب ما حدث، ثم أنهضتها
الفتاة لتجلس، كانت لا تزال تنظر نحوي، فقلت:

- لقد فقدتكَ بينَ الجمهور وبسُتُ عنكَ كثيرًا ..

فهمست لي بصوتٍ متعَبٍ للفاقة:

- لقد شعرتُ به في بطني، لقد تحرك جنيني.



(١٨)

أخرجت سماعتي الطبية على الفور عندما قالت ديما أنها شعرت
بحركة جنينها، وبدأت أفحص بطنها متجاهلاً الأصوات الصاخبة
من حولي، فاستمت حدقتا عيني حين سمعت أذناي نبضات قلبية تدقُّ
بمعدل سريع، كانت هي الدقات القلبية التي طالما اعتدت سماعها
لأجنة النساء الحوامل، فنظرتُ في عيناها وقلتُ غير مصدق:
- إن قلبه يدق بالفعل ..

فوضعت سبابتها أمام فمها المفلق في إشارة لي كي أسكت، ثم
اقتربت برأسها مني، وهمست لي بصوتٍ حذر:
- هيا بنا لنفادر الياحة ..



غادرنا الباحة في الوقت الذي كان يُنفذ به إعدام آخر على المنصة،
وواصلنا طريقنا إلى عربة صدّيق، وحين أصبحنا على بعد أمتار منه
توقفت ديمًا وقالت لي متعياً:

- ستفادر جارتين مع أول سفينة متجهة إلى الشمال ..

أومأت برأسي إيجاباً، ثم قلت:

- مني ترحل تلك السفينة؟

قالت:

- أخبرني مالك السفينة أنه قد يمكث سبعة أيام حتى يجمع
عددًا من المسافرين ..

نساءً!:

- وأين سنقضي أيامنا السبع؟

قالت:

- بالوادي الذي نشأت به ..

ثم تابعت بجديّة كبيرة:

- لا تخبر أحداً هناك مهما يكن أن جيتيني قد نال روح ذلك
المدوم ..

قلت متمجّباً:

- لماذا؟

قالت:

- إنني أعرف صاحب هذه الروح جيدًا، كان يحبه الكثيرون .. إن علموا أن طفلي يمتلك روحه لن يتركوني أرحل لأبيمه .. دعهم يظنون أن روحه ارتاحت للأبد ..

قلت:

- وماذا عن الفتاة التي كانت تصرخ بجوارك؟

قالت:

- أظن أنها لم تسمعني وأنا أخبرك ..

وثابت:

- حتى صديق لا تخبره .. سأخبره بعدما تغادر جارتين ..

قلت:

- حسنًا ..

ثم اقتربنا من صديق الذي غادر بنا عبر طريق ترابي أخبرته
ديما بأن ينطلق به ..



في وادي النسالي كان كل شيء مختلفًا تمامًا عن المدينة، بدلًا من
الببوت الفخمة المتلاصقة التي تراسبت في الأفق على ضفتي النهر
الجاف كان هناك ثمة أكواخ خشبية وطينية مُسَقَّفة بفروع أشجار

وأعشاب جافة .. لم ندخل إلى الوادي بل طلبت ديمًا من صديق أن
ينوقف على مقربة من كوخ متهالك بمشاركته، وقالت وهي تشير إليه:

- إنه كوخنا .. تربيتُ هنا مع أخي ريان ..

لكننا حين دلفنا إلى هناك لم نجد أحدًا، وبقينا حتى حلَّ الليل،
معنا عاد ذلك الفتى اليافع، والذي بدا على وجهه البائس أن الدنيا قد
انتهت بالنسبة له ..

- ما إن رأى ديمًا حتى أصابه الذهول،

ثم احتضنها وهو يقول باكياً:

- لقد أعدم سيدي اليوم ..

فقالت وهي تنظر نحوي:

- نعم أعرف ..

ولم تنطق بكلمة أخرى بعدما اشتد بكاء الفتى، قبل أن تقول:

- جئتُ إلى الباحة كي أنال روحًا لجنيني .. لكنني لم أحظ بشيء
اليوم ..

قال الفتى وهو ينفش:

- كان سيدي يمتلك روحًا بريئة ..

مزت رأسها وقالت في مكر:

- نعم ..

تابع الفتى:

- قمنا بدفن جثته على مقربة من أشجار الوادي ..

أخبرتني ديمًا في وقت سابق أن النسالي يحق لهم دفن أجساد موتاهم المدومين إن أرادوا ذلك ..

ثم قالت لأخيها باقتضاب:

- سأغادر بعد أيام، على أن أعود بعد شهرين ..

سألها:

- ولم تغادرين؟

قالت:

- ثم يعد هذا المكان مكاني، وما زال لدي أربعة أشهر كاملة قبل مولد الطفل ..

فقال الفتى في غير اكتراث:

- كما تشائين ..

كان الحزن البادي على وجهه عظيمًا، لكنني لم أمتلك وقتًا للتفكير في ذلك الأمر بعدما أصيبت ديمًا بنوبة صرع مفاجئة ارتفعت معها على الأرض وبدأت تتشنج بقوة، فأسرعتُ نحوها وأخرجتُ من حقيبتي

أسطوانة صغيرة مرنّة ووضعتها بين فكّيهما كي أحمي مجرى تنفسها
ولسانها .. ثم أبعدت عنها كل شيء قد يجرحها ، وتركها كي نهأ ..

كانت تلك النوبة هي الثانية خلال يوم واحد ، أخذت التشنجات
فترة قصيرة من الوقت حتى توقفت تماماً ، بعدها تركتها نائمة لساعة
تقريباً قبل أن أعطيها جرعة من أدويتي ، ثم تركتها تخلد للتوم من
جده .. وغادرت الكوخ لأجلس مع ريان الذي كان يجلس أمام بابه
ينظر إلى السماء بعيتين دامتين في صمت شديد ، قال بعد لحظات
من جلوسي بجواره :

- كان من المفترض أن يكون عُرسه اليوم ..

فهمتُ أنه يقصد الشاب المدوم ، فقلت :

- سمعتُ ذلك أثناء وجودنا بالباحة ..

قال :

- عروسه من قتلته هناك ..

وتابع :

- لم يمش كالنساء ، ومات مثلهم .. لا أعلم ماذا حدث له كي
يرتكب جريمة .. لكنني متيقن أنهم استنزوه بكافة الطرق كي
يخطئ ، كان عليه أن يبقى بالوادي لا يفاديه حتى يوم الزواج
.. أخبرته بذلك مراراً ، لم يكن يسمحوا له أن يتزوج شريفة
بهذه السهولة ..

ثم هدأ صوته وقال :

- كان إثمه الحقيقي أنه نشأ حالمًا ..

وأخرج زفيره وهو يقول:

- ليس للعائنين مأوى غير السجون أو الجنون ..

قلت:

- في البلاد الظلمة فقط يا صديقي ..

هز رأسه، ثم التقط حجرًا صغيرًا وألقاه بعيدًا أمامه في غضب

.. وقال:

- انتهى كل شيء بعدما قُتل على المنصة، لن يكمل أي نسلي

ما بدأه قبل سنوات .. عرف كل منا مصيره الحتمي .. أينما

تأخذنا الحياة لا مفر لنا من قواعد جارتين ..

ثم نهض ودلف إلى داخل الكوخ، وبقيتُ جالسًا بعفري أفكر في

تلك السهدة التي قتلت النعالي قبل أن تتروك كل شيء وتفاذر الباحة،

ثم انشغل بالي بنوبات ديماء التي بدأت تتزايد في معدلها بعد وصولنا

جارتين ..

في الأيام الثلاثة التالية تكررت نوبات الصرع أكثر من مرتين أو

ثلاثة في اليوم، ومع كل مرة كانت مدة التشنجات تزداد عن المرة التي

سبقها، وصرتُ في حيرة بالغة بين تفكيري بزيادة الجرعات المعدة

وبين تأثير تلك الجرعات الزائدة على الجفنين، فاستقر بي الأمر إلى

ترك الجرعات كما هي، على أن أعنتي بها جيدًا ..

ما كان يقلقني حقاً هي الرحلة الشاقة التي تنتظروننا عبر أمواج
بحر أكما إلى الشمال .. مع أي سقوط قوي مفاجئ لها قد يكلفها
حياة ذلك الجنين، وبين مياه البحر الهائج لن يكون لنا حول ولا قوة
.. فدللتُ إليها فجر اليوم الرابع، وقلتُ وأنا أناولها جرعةً من دوائها:

- ربما من الأفضل أن ننتظر في جارتين حتى تستقر حالتك أو
تدبرين مولودك هنا، رحلتنا على السفينة مع اشتداد مرضك
إلى هذا الحد قد يكلفنا حياة طفلك ..

قالت:

- لا بد وأن نغادر مع أقرب سفينة راحلة ..

قلت:

- إنها مجازفة حقيقة ..

قالت:

- لا تعلم الجحيم الذي يعيشه كل نسلي ونسلية هنا، إن بقينا
سباتي أي شريف ذات يوم ويطالبني بأن أمارس الرذيلة معه،
وإن رفضتُ قد يتهمني بأي شيء وأهْدَم إلى منصة جارتين ..
حينذاك سيموت سيموت ..

قلت:

- قد تغتفين حتى تتحسن أحوالك ..

قالت:

- لقد رأيتي الكثيرات، سيرشحنني للأشراف مقابل قطعة من
الفضة .. سيرغبون بي ظناً منهم أنني تعلمت أساليب الرذيلة
المختلفة من الفجر .. لا مفر لتجاة طفلي غير الرحيل ..

هلم أجد إلا أن أوافق رأيها، وغادرت الكوخ، كان صديق لا يزال
نائماً فوق عربته، بينما لم أجد ريان .. فندسست كيس نقودي بإحدى
الحقائب على المربة دون أن يشعر بي صديق .. خشية أن يسطو على
أحد النسائي بعدما عزمْتُ على التجوال بالجوار قليلاً قبل اشتداد
حرارة الشمس، ثم صعدت مرتفعاً رملياً، وجلست مقرضاً أنظر إلى
الوادي الذي ظهر هو وأكوأخه من أسفلي .. ثم انقشع ضباب الصباح
شيئاً فشيئاً فظهرت مباني جويدها بعيداً .. مَنْ يصدق أن هذه الأكوأخ
وتلك المباني تُسمى بلدًا واحدًا؟

ثم نظرتُ إلى جانب آخر، كانت هناك أشجار متناثرة بين أكوام
رملية ترتفع قليلاً عن الأرض، فتذكرتُ ريان عندما قال قبل أربعة
أيام أنهم قد دعتوا جثمان سيدة، فتهضتُ من جلستي ووجدتني أنجه
إلى هناك .. ولما اقتربتُ حرصتُ ألا تحتك قدمي بأي كومة من الأكوام
التي تراصت على مسافات متساوية ..

ثم توقفتُ فجأة، وتواريتُ بجسدي خلف شجرة قصيرة حين رأيتُ
سيدة تجلس أمام كومة رطبة بصف بعيد، لم تكن ثيابها مثل ثياب
النسليات اللاتي رأيتهن منذ قدومي إلى الوادي .. فحاولتُ ألا أصدر
أي صوت بعدما ظننتُ أنها سيدة المنصة التي قتلت نديم .. حتى
رأيتها تلفتت إلى أحد جانبيها ليظهر وجهها.

كانت سيدة أخرى يقترب عمرها من الخمسين .. يخطئ الشيب
قبلاً في رأسها، كانت عيناها دامتتين وأنفها محمراً، فمددتُ رأسي
كي أرى ملامحها بصورة أوضح، فالتفتت نحوي فجأة حين صدر
صوت عشب جاف تحطم أسفل حذائي، وظهر الذعر على وجهها
وعُبت واقفة في فزع شديد .. فاقتربتُ منها، فقالت خائفة:

- لا تؤذني ..

فرفعتُ لها يدي كي تطمئن، وقلت:

- لستُ نسيلاً .. لا تقلقي ..

وكدتُ أسألها عن سبب تواجدها أمام ذلك القبر، لكنها لم
تمهلني أي وقت، وغادرت مهرولة إلى عربة صغيرة كانت تتوارى خلف
شجرتين، وأسرعت بحصانها مبتعدة عني وعن مقابر النساء.



«غفران»

كما كان متوقعًا، صدر قرار بإيقاعه عن العمل كرام للمنصة بعد مخالفتي قواعد الإعدام واستخدامي الخنجر بدلًا من السلاح الناري. على أي حال لم أكن لأعود إلى الباحة مرة أخرى، بكفيني سنواتي الماضية بها وما حدث لي خلالها .. إلا أن أيامي التالية ليوم الغفران المشؤم كانت صعبة للغاية ..

لم أغادر بيتنا بعد ذلك اليوم، صار الأرق صديقي، ولازمتني الكوابيس كل دقيقة أنامها، استعنتُ بأعشاب مهدئة وصفتها إحدى الطبيبات لأمي قديمًا، لكنها لم تجد نفعًا .. كلما حاولتُ النوم دون صرخات نديم بكل جانب برأسي! أنقذيني .. لأصحو على الفور، وأنظر إلى صورتي في المرآة .. لم أكن أرى إلا امرأة قاسية تنظر نحوي في جمود، فأحدثها في نوثر كأنني مذنب تلتمس البراءة لنفسها:

- هو من خان الوعد .. وعدني ألا يرتكب جريمة ..

فتصرخ صورتي بصوته المتوسل يوم الغفران:

- لم أكن أنا ..

أمرخ إلى صورتني في خوف:

- لم أكن لأضحى بأطفالي من بعدي ..

تصرخ الصورة مجدداً بصوته:

- أنقذيني ..

أناول مزيداً من أعشابي المهدئة وأحاول أن أنام مجدداً .. أعود
إلى الباحة في أحلامي .. همهمات الحاضرين، عيون النسائي المترهبة
لحلمهم، تقف نسخة مني أعلى المنصة ومن خلفها يجثو نديم على
ركبتيه مكبلاً، طعنة بالخنجر تشق عنقه، تتناثر الدماء بكل مكان
يسقط صريفاً .. بينما أقف بين الحاضرين أشاهد ما يحدث ..

أفتر جانباً بعيداً فأرى نديم الطفل يشاهد ما يحدث من أعلى
قوائم الجانبى بالباحة، ثم يسقط متهاوياً ببطء شديد وهو ينظر
لخوطفلة في الثامنة يحملها أبوها على كتفه .. تنظر إليه وهو يهوى
رأسه أن تحرك ساكناً حتى سقط جثة هامدة، قبل أن تلتفت إلى المنصة
وتواصل تصفيقها إلى الفرقة الفكاهية التي انتهت من عروضها للتو
.. نظرت في أعينها فتظنرت في عيني بقوة .. ثم تكن إلا أنا ..

أفتح عيني خوفاً لأنهي ذلك الكابوس، وأنظر إلى سقف غرفتي
بأنفاس متسارعة، تتأكل جفوني من جديد بتأثير الأعشاب .. أعود
إلى المدرسة المتوسطة، أرثدي الفستان السماوي القصير الذي قابلت
به نديم للمرة الأولى ..

أسير أمام بوابة المدرسة متجهة نحو أبي الذي كان ينتظرني
بمرسته، يقف نديم طالب مدرسة الفتيان جانباً يحاول أن يلوح لي
.. يتلقى طعنة مفاجئة تشق رقبته .. يحاول أن يستفيث بي .. أكمل
طريقي إلى أبي وأنا أنظر إلى دعائه السائلة دون اكتراث، يصرخ إليّ
بحماسة: أنقذني .. أكمل طريقي إلى أبي .. يسقط جثة هامدة ..
أضحك إلى أبي وكان شيئاً لم يحدث .. قزداد ضحكاتي ..

العيون جميعها تتجه نحوي .. يشيرون بأيديهم إليّ .. لم يكونوا
طلبة .. كانوا نسائي حاملين كتبهم .. يلقون بكتبهم ويشيرون إلى
خنجر ظهر بيدي فجأة .. يقتربون مني كالحيوانات المفترسة ..
أصوات أنفاسهم متعالية للغاية .. لا كانت أنفاسي أنا .. أصرخ إلى
أبي .. اختفى أبي .. صرخت وحيدة .. أنظر إلى جثة نديم .. أصرخ
إليه: أنقذني منهم .. يقتربون مني .. يسقط الخنجر من يدي ..
يقتربون أكثر .. بهم أحدهم بالإمساك بفستانني .. يفتزعه .. أفتح
عيني، التقط أنفاسي بصموية، أنظر إلى السقف مجدداً .. أوم
نفسي بأنني تناولت تلك الأعشاب ..

أغمض عيني لا إرادياً من جديد .. عروس في ثوب الزفاف التي
بالورد نحو المحشدين، ثم أمسك بخنجري .. أقربه من صدر نديم
الماضي .. أحاول أن أزيل الوشم بنصنه الحاد .. تظهر تعبيرات الألم
على وجهه .. يصبح الواقفون من النسائي إليه كي يحتمل .. أضحك
إليهم وأغمز له بعيني كي يستمع إليهم .. يضحك ويخبرني بأن أكمل
.. تظهر أُمي فجأة على المنصة وهي ترتدي ثوب كبير القضاة ..
وتصرخ بنا:

- لن يتم هذا الزواج .. إنك شريفة وهو قاتل .. أراد قتل أحدهم ..

قلت لها:

- أراد قتل مَنْ؟

قالت:

- لا أعلم .. أحدهم فحسب .. هل تشككين بقضائنا؟

نظرتُ إليها صامته .. إن قضاء چارتين الأكثر عدالة، لن يُظلم نديم أبداً .. بصرخ إليّ نديم وهو يجثو على ركبتيه:

- لا أتذكر شيئاً، لستُ أنا .. حافظتُ على المهدي الذي بيننا ..

أصرخ به:

- اصمت أيتها الخائن ..

أطبع برقيته بالخنجر .. تسيل الدماء لتغطي وشعه بالكامل .. أضحك بصوت عالٍ وأنا ألوح إلى الحاضرين:

- اختفى الوشم .. صار النسل شريفاً أخيراً ..

ينطلق صوتُ آخر بجواري:

- لا .. صار قتيلاً ..

ارفع رأسي لأرى صاحبة الصوت .. كنت أنا في عمر الرابعة عشر.
أرتدي ملابس المدرسية وأحمل حقيبة مدرستي .. أنظر إليها في
ذهول .. أخرجت قلماً رصاصياً، ومدت يدها وأمسكت بذراعي لتكتب
عليه:

- كتبت عليك الوحدة ..

أفتح عيني خائفة .. أمسيء مصباح غرفتي القريب مني .. أنظر
إلى ذراعي .. لا شيء .. أتنقش أنفاسي .. أنهض في تعب شديد من
سريري لأتجه إلى ردهة المنزل .. أجلس على مقعد أمام طاولتي ..
يعيطني الصمت من كل جانب .. يصرخ داخلي وأنا بالكاد أتمالك
نفسي:

- هو من خان .. هو من استحق ذلك ..

يصرخ صوت جديد:

- لماذا قتلته أنت؟ .. كان عليك أن تتركي أمره لبديلك ..

أقول بصوت خافت مسموع:

- هو من استحق ذلك .. هو من استحق ذلك ..

تتأقل جفوني من جديد .. أفتحها بصعوبة .. لا لن أنام .. أخشى
النوم .. يصيبني الجفون، يد تلامسني فيجفل جسدي فزعاً .. أجد
زين قد نهض من نومه .. يجلس على رجلي في الحيز الضيق الذي
يفصلني عن الطاولة .. يرفع رأسه ويقبطني كأنه يحاول أن يهدأ من
روعني .. تمسك جفوني وأنا جالسة .. أفتحها من جديد .. أقول
لنفسي:

- ستمر هذه الأوقات، ستمر .. سأنسى .. وأنتم:

- إنني شريفة .. لم أكن لأنزوج نسلية مجرمًا ..

بضج صوت بعيد:

- كان لديك الفرصة لتفقديه .. كنت تحبيه وكان يحبك ..

أنوسل إلى عقلي:

- اهدأ أرجوك .. اهدأ أيها التفكير .. لماذا لا يأتي عامي

الخمسين الآن .. لماذا لم تجعلها القواعد خمسًا وعشرين عامًا

فقط .. لتراح من عناء هذه الحياة .. اهدأ قليلًا أرجوك ..

بنول صوت صادق بداخلي:

- إنني أفقدته .. أفقدته كثيرًا ..

- تتساقط دموعي وأنا أقول:

- سيمر .. أعراض انسحاب ستمر .. ستسبني الأيام كل شيء

.. أنتظري مرور الأيام فحسب ..



صرت أنام من التعب في أي وقت، صار النهار كالليل وصار الليل
كالنهار، فتاة تحتضر بين أربعة جدران، تنتظر أن تنصرها روحها
وتفادها في لحظة قريبة ..

ثلاثة أشهر لا جديد عن تلك الحالة، لم يكن لدي أي طاقة للمقاومة .. تركت نفسي للسقوط والانهييار فحسب، فقد جمعي الكثير من وزنه وصار مزيلاً، صارت كتفائي ورقبتي أكثر نحولاً، وصارت ساقي كسيقان الطاولة .. من يراني كان ليظن أنني أصبت بمرض لعين مكن يأكل جسدي يوماً بعد يوم ..

ثلاثة أشهر لم يُدق بابنا، قيل ذلك اليوم حين أتت تلك الدقات وأنا فتحتُ وجديها أمامي .. السيدة بيان .. معلّتي بالمدرسة المتوسطة، لم أكن قد رأيتها منذ عشر سنوات، كنت أظن أنها قد عبرت الخمسين، لكنها بدت أنها لا تزال تمتلك بضعة أشهر بحياتها ..

رحبتُ بها وأنا أعذر عن سوء الحالة التي كان عليها بيني، فأخبرتني أنها لا تهتم بمثل هذه الأمور .. جال في ذهني تساؤلات عن سر زيارتها المفاجئة لي، وخاصةً أن علاقتي بها لم تزد يوماً عن حدود الدراسة، تحدثنا قليلاً عن المدرسة المتوسطة وما يحدث بها تلك الأونة، أخبرتني أنها صارت كبيرة المعلمين .. كان كلامنا مُرسلاً من أجل تضييع الوقت فحسب، كان داخلي يشمر بأن وراء زيارتها سبباً آخر تماماً .. ثم ساد الصمت بيننا لدقائق قبل أن تقول:

- جئتُ إليك لأخبركِ بأمر ما ..

انتبهتُ إليها وقلت:

- أي أمر سيدتي؟

قالت:

- سأعبر عامي الخمسين بعد بضعة أيام ..

مززت رأسي مَبِينةً أسفي، فأردفت تقول:

- لقد أخطأتُ في حَقِّك .. وأريد أن أذهب إلى وادي حوران بروح
نقية ..

سألتها في تعجب:

- حقي أنا؟

قالت:

- لست الوحيدة التي أحبت نسلًا ..

نظرتُ إليها في ترقب، فأكملت:

- لقد أحبيتُ نسلًا أنا الأخرى قبل سنوات طويلة.

ثم صمتت للحظة، ونظرت إلى الأرض وتابعت:

- كان يكتب لي على سطح التخته الخشبية أيضًا ..

استعت حدقتا عيني، ونظرتُ في عينيها مباشرة، وجال في ذهني
ذلك اليوم حين عدتُ إلى الفصل بعد خروج الطالبات كي أمحو ما
كتبته إلى نديم، فوجدتها تجلس على مقعدي ممثلة العين بالدموع،
قبل أن تخبرني أنها بخير .. فسألتها غير مصدقة:

- هل كتبتِ تعلمين بأمرٍ مع نديم بالمدرسة المتوسطة ١٩٢ ..

قالت:

- نعم .. لمحتك صدفةً تقومين بالأمر ذاته الذي كنت أقوم به .. وقرأت كتاباتكما المكتوبة بعد مفادرتك يومها .. لتمود إلي الروح مجددًا .. ظلت خمسة عشر عامًا أنتظر أن تأتي تلك الفرصة لأعرف التسلي الذي حصد روح من أحبه .. بعدها اتجهتُ إلى مدرسة الفتيان لأعرف من هو ..

نساء لُت بصوت ضعيف:

- نديم..!

هزّت رأسها إيجابًا وقالت:

- كل الدلائل قالت لي أنه هو .. الطريقة التي كان يكتب بها على سطح التخته .. عمره، وفق بياناته بالمدرسة وُلد نديم في العام الذي أعدم به حبيبي ..

ثم ملأت صدرها بالهواء وأخرجت زفيرها، وقالت:

- لكنه لم يتذكرني .. استوقفته يومًا وحدثته بأمر عارض .. لم يعرف من أنا .. لكنني كنت أوقن أنه هو .. ظلت أقرأ ما يدور بينكما .. كنت أشعر أن الكلام موجهًا لي ليس لك .. حتى ترك المدرسة المتوسطة، حاولتُ أن أتتاسى الأمر، ولم أفلح .. بحثتُ عنه في وادي النسالي .. عرضتُ مساعدته في تعليم الأطفال لكنه رفض .. حدثته صراحةً ذات يوم عما حدث بيننا من قبل، تركني ومضى بعيدًا .. أخبرني أنه ليس من أبحث

عنه .. وأنه لا يحب إلا فتاة تُسمى غفران فعصب .. لكنني لم
أبش حبه يوماً .. وظل أُملي بالعودة إليه قائماً .. لم يهز هذا
الأمل سوى معرفتي بنيتكما للزواج ..

مع اقتراب يوم زواجكما واقترابي في الوقت ذاته من
الخمسين - الموت الحتمي - جاءتني فكرة أنانية، تلمين أن
الشريف منا إذا انتحر قبل بلوغه الخمسين تنقل روحه إلى
أطفال النسالي عقوبة له، فجال بخاطري لو أنهيت حياتي
منممة في باحة جويدا في الوقت الذي يُعَدُّ به نديم لمل
أرواحنا تجد أجساداً تتلاقى مستقبلاً .. لا أعرف أين كان
عقلي وقتها ..

ثم أكملت بصوت مختنق بالدموع:

- أرسلتُ أحدهم إلى وادي النسالي ليخبر نديم بأنك في انتظاره
.. قابلته وحدثته مرة أخرى عن حياتي مع صاحب روحه ..
سألني أن أبتعد عنه، صرختُ به .. أهنته، تعالك نفسه .. كنت
أنتظر منه أي ردة فعل شريرة فلم يفعل .. كان يريد الرحيل
فقط، ثم فوجئتُ بعروقه تنفض دون مقدمات، ووجدته ينظر
نحوي بعينين بارزتين .. وعاد بخطوات إلى الخلف ليبعد عني،
دق قلبي خوفاً وقتها .. لكنني أدركتُ أنه يحاول أن يتجنبني ..
لم أغادر مكاني .. وأغلقتُ بابي جيداً .. ظل يحطم كل شيء
من حوله .. صار في لحظة واحدة شيئاً آخر لا أستطيع وصف
مدى وحشيته، لكنه هداً بعد فترة قصيرة، وفقد وعيه ..
هناك كانت الفرصة الأعظم لادعاء أنه جاء لسرقتي والشروع
في قتلي .. جريمة كاملة الأركان ..

نظرتُ إليها وقلت في ذهول:

- لم يرتكب أي جريمة ١١٩ ..

قالت بصوت هادئ دون أن تنظر نحوي:

- نعم ..

قلت وكان الذهول لا يزال منطبقاً على وجهي:

- أردت أن يُعدم من أجل أن تجدي معه فرصة أخرى مستقبلاً ١٢٠

أومأت برأسها إيجاباً وهي تنظر إلى الأرض بعينين دامعتين،
فقلت لنفسي ذاهلة وأنا أتذكر كلماته لي قبل موته:

- ظنُّ أنه ارتكب جريمة دون أن يدري!

كانت الميدة لا تزال تجلس أمامي ينطبع على وجهها ندمٌ شديد
.. فقلتُ لها:

- ولماذا لم تنه حياتك إذا في اليوم ذاته بباحة جويد ١٢١

قالت:

- حين أوشكتُ على قتل نفسي .. كانت هناك نسلية تقف على
بعد خطوات مني .. نظرتُ إليها وإلى وشم كتفها، أصاب
الاضطراب داخلي وقتها، واجتاحني الخوف ذاته الذي رأيته
في عينك يوماً .. خوفُ التحول إلى نسلية .. ثم أفقتُ من
خوحي على قتلك له بخنجرك، فوجدتُني أهول مبتعدة عن
الباحة أود أن أنهي حياتي كامرأة شريفة ..

قلت لها باستنكار:

- شريفة ١٩ .. أي شرف فيما فعلته ١٩ .. هل تدركين ما فعلته بنا ١٩ ..
.. هل تدركين ماذا لو اكتمل زواجنا ١٩ .. أندركين ماذا فعلت
بمئات من النسالي كانوا يطمعون ليصيروا مثله ١٩ ..

ثم أشرتُ إلى جسدي الهزيل، وقلت بصوت ضعيف:

- أندركين ماذا حلَّ بي الثلاثة أشهر الماضية ١٩

ظلت السيدة صامته قبل أن أصرخ بها وأسألها أن تغادر من أمامي
على الفور .. كانت تتطلع لي باكية وهي تغادر تسألني أن أسامحها،
وتعشت وهي تبكي بأنها ذهبت إلى قبر نديم بوادي النسالي بعد أيام
من موته لتكفّر عما فعلته .. فأغلقت الباب بقوة من خلفها .. وأسندتُ
ظهري إليه مُغمضة عيني .. يملو صدري ويهبط بيضاء .. وتهمس
شفناتي مع كل نفس أخرجه:

- كان بريئاً .. كان بريئاً ..

ثم وجدتنني أفتح باب البيت، وأركض بأقصى سرعة لي دون
وعي، لتأخذني قدمي إلى هنالك للمرة الأولى في حياتي .. إلى وادي
النسالي ..



وقفْتُ مكاني على مشارف وادي النسالى يتصيب العرق من جبيني
 من أثر الركض .. وكأنّ تفكيرى قد سُئِلَ لم أعرف ماذا أفعل .. ثم
 وجدتهى أتقدم ببطء إلى داخل الوادي دون أن أكرث بها قد يحدث ..
 لكن دقات قلبي سرعان ما أصابها الاضطراب عندما أبصرتُ بعضاً
 من نساء النسالى وفتياتهم وأطفالهم قد بدأوا يخرجون من جحورهم
 ليقفوا على جانب الطريق وعلى وجوههم ارتسمت ملامح الخوف
 والدهشة .. خوف من هذه المرأة التي وُكِّلَتْ دائماً بقتل أحبائهم،
 ودهشة من تواجدها بأخر مكان قد تكون هي به ..

واصلتُ طريقى الذي لم أكن أعرف له وجهةً، ومع كل خطوة كانت
 أعداد النسالى تتزايد على جانبيّ دون أن ينطق أحدهم أو يصدر له
 صوت، ظلوا ينظرون إليّ في صمت بالغ فحسب، وأنا أتقدم أمامهم في
 خزي شديد، لأشعر للمرة الأولى بأنني من يحمل العار لاهم ..

كنت أنظر إلى وجوههم، وتتقاذف الكلمات من عيني إليهم في
 توسل:

.. أريد أن أخبركم أن الخوف هو ما جعلني أفعل ذلك بسيدكم.
سامعوني .. أعلم أنني مَن اغتلتُ أحلامكم، لكنني هنا الآن
بينكم لطلب الغفران ..

واصلوا تحديقهم بي من غير أي ردة فعل، لكن ذلك لم يدم طويلاً.
بعدما ارتطم برأسي فجأةً حجرٌ صغير قذفه أحدهم بقوة ليصيب
حاجبي الأيسر، فسالت الدماء على وجهي، ودارت بي الدنيا للحظات،
توقفتُ مكاني بعدما كدتُ أسقط ..

قبل أن أتمالك نفسي وأمسح بكم فستانِي الدماء عن عيني،
وأواصل طريقي بينهم، هالقتُ امرأةً أخرى عليّ قدراً من روث الماشية
فأغرقتني بها، لكنني تابعتُ طريقي دون أن ألتفت إليها حتى .. كان
داخلي يقول: افعلوا ما شئتم .. لن أجزأ أحدكم إلى منصة الإعدام ..
هيا ألقوا بأحجاركم نحوي .. لا يضر الأثم الموتى على كل حال، وأنا
مُت بالفعل منذ ثلاثة أشهر، لا يتبقى لي فقط سوى مغادرة روحي
لتسكن جسداً آخر .. هيا، ألقوا بأحجاركم، ساعدوها على الرحيل ..

ثم أصابني حجرٌ آخر .. لا أنذكر أنني تقدمتُ بعده إلا بضعة
خطوات، قبل أن تدور بي الدنيا وتتسارع دقات قلبي، وتخور قواي
ندريجياً، وأفقد وعيي.



أفقتُ من إغمائتي لأجدني على سرير قشبي داخل جدران كوخ
صغير مُلقٍ بسقفه مصباح زيتي أضاء المكان من حولي .. وكان مشبهاً
مهروساً قد وُضع على حاجبي فتترك أثره على سبابتي حين تحسستُ

جرحي .. ما إن نهضتُ وجلستُ على السرير وأسقطتُ قدمي إلى الأرض أحاول أن أستفيق تمامًا حتى قُتِح باب الكوخ ودلف إليّ الفتى النسلي ريان، وقف صامتاً أمامي كأنه يستجمع ما سيقوله، ثم قال:

- تركك الجميع بالطريق فاقدةً للوعي تسيل دماؤك ..

وأصدر إيماءة وهو يقول:

- لا أعلم لماذا لم أتركك مثلهم ..

وأكمل:

- وخفتُ أن أعود بكِ إلى جويديا في حالتك هذه، فيظنون أنني من فعلت ذلك بكِ فيعتقلونني .. فجئتُ بكِ إلى هنا .. إلى كوخ سيدي نديم ..

تلفتُ حولي لأتفحص الكوخ على الفور وقلتُ في دهشة:

- كوخ نديم .. كان يعيش هنا ؟؟ ..

قال الفتى:

- نعم .. حرصتُ طوال الأشهر الماضية على الاعتناء به ونظافته، مات سيدي لكنني أحب كل شيء يخصه ..

قلت:

- إنك طيب مثله يا ريان ..

قال في توتر:

- لا .. لستُ مثله ، وعليك أن ترحلي الآن سهدي .. لا نريد أن
يقدم أحد إلى المقصة بسببك مجدداً ..

قلت:

- هل مر وقت طويل على نومي؟ ..

قال:

- بضع ساعات ..

كانت المرة الأولى التي أنام فيها دون قلق منذ إعدام نديم، فقلتُ
بصوت هادئ:

- لا أريد أن أعود إلى هناك ..

قال في نبرة حادة:

- ومكانك ليس هنا سيدتي .. أتعلمين، قبل أن أراك اليوم تمنيتُ
كل لحظة لوجاءتني الفرصة لأقتلك بما فعلته بسدي .. لكني
الآن لا أعلم ماذا أصابني .. ارحلي فحسب، دعينا وشأننا
ويكفيها ما حدث ..

قلت:

- أخطأتُ بقتل نديم .. لم يكن عليّ فعل ذلك، كان عليّ أن أستمع
إلى كلامك ..

قال:

- لا يفيد الندم، ولن يغير بالواقع شيئاً

أومأت برأسي إيجاباً .. وقلت:

- هل لك أن تدعني هنا .. سأحرص على نظافة الكوخ ..

قال:

- لن يتركك أهل الوادي ..

قلت:

- إن أرادوا قتلي فليفعلوا .. أرجوك إنني أشعر بالاطمئنان هنا..

أخرج الفئ ذيهره حانقاً .. ثم تركني وغادر الكوخ، بعدها تحركت إلى خارجه لأتظر نجاه الوادي .. كان الظلام الدامس يسود الأفق ليس إلا من مصابيح متناثرة بدت بعيدة، فعدتُ إلى داخل الكوخ، وانتزعتُ فستانني المشبع برائحة روث الماشية، وانسللتُ أسفل فراش خشن لأخلد إلى النوم مرة أخرى ..

استيقظتُ مع طلوع الشمس، كان نور النهار قد تسلل إلى داخل الكوخ من كل جانب فأضاءه بالكامل. لأرى الأدوات التي كان يستخدمها نديم في تعليم طلبته .. أقلام رصاصية قديمة .. أوراق بالية صفراء .. كتب ممزقة الأغلفة .. قطعة خشبية ملساء مطلية بلون أسود .. أحجار بيضاء صغيرة استخدمت للكتابة عليها ..

ثم مر وقت قليل لم يتوقف به عقلي عن التفكير، قبل أن أنهض وأرتدي فستانني وأتجه للبحث عن كوخ ريان، سألت الكثيرين عنه.

رفض أغلبهم المساعدة، وظل الباقون صامتين يتطلعون نحوي بخني شديد ..

لم تجبني إلا طفلة في العاشرة، شكرتها، ووصلت إلى كوخه، دلفت إليه بعدما لم يجب طرقاتي، كان لا يزال نائماً، هزرتة كي يصحو، فنظر إلي بعين نصف مفتوحة في تعجب، وتساءل:

- ماذا تفعلين هنا؟ ..

قلت:

- انهض، أريد أن أخبرك بشيء ..

نهض من نومه، فتاولته إناء ماء كان يوجد جانباً، فضرب وجهه بلءاء، ثم نظر إلي وقال:

- ماذا تريدين؟ ..

قلت:

- أريدك أن تساعدني ..

قال:

- أساعدك في ماذا؟ ..

قلت:

- لأكفر عما فعلته ..

هز رأسه متبرماً، وأراد أن يعود إلى النوم، فأمسكتُ به، وقلت:

- أخبرني سابقاً عن حلم مئات النسائي كي يصبحوا
مثل سيدهم نديم، الأملس وبعدما رأيتُ تلك الطيبة منك
ومساعدتي رغم غضبك الشديد تجاهي، أدركتُ أن ما فعله
نديم طوال السنوات الماضية لم يذهب هباءً .. لقد غيّر التعليم
داخلك، وبالتأكيد هناك العشرات مثلك ..

قال:

- لقد انتهى كل شيء بعقل سيدي، لم يبقَ هناك طالب واحد،
اتجه الفتيان للسرقة، واتجهت القتيات للرزيلة ..

قلت:

- لكنك هنا، لا تسرق ..

قال:

- لا تعرفين شيئاً عني ..

قلت:

- ساعدني لأحل محله ..

أطلق ايماءة ساخرة وقال:

- محله؟ إن الجميع هنا يكرهونك ..

قلت:

- أريد أن أبقي بينكم، أريد أن أكمل ما بدأه نديم، لا تعلم ماذا حدث لي خلال الأشهر الماضية، أستطيع أن أعلم النسائي الكثير من الأمور، قد يأتي الوقت الذي يتزوج به نسلي آخر من امرأة شريفة غيري ..

اعتدل ريان في جلسته على سريرته، وقال:

- أتعرفين شيئاً؟ .. مات سيدي مرتين، الأولى عندما أعطيتيه أملاً بأن نسلياً قد يتزوج شريفة وصار عليه أن يعيش حياته دون خطأ واحد، والثانية أمامنا على المنصة حين قتلته بخنجر ك، أتريدين المزيد من القتل؟

قلت:

- حسناً، دعك من شأن الزواج من الشريفات، يكفي أن نديم قد نجح في الوصول إلى عامه الخامس والعشرين دون جريمة، وأرى ذلك هيك، وقد بنجح الأمر مع الكثيرين ..

قال:

- لم ينجُ سيدي من روحه الآثمة وارثك جريمة ..

كدت أنطق وأقول له ما دار بيني وبين السيدة بيان، لكنني خشيتُ أن يشمل ذلك أمر الانتقام منها بداخله، ويودي بنفسه إلى منصة الإعدام، فقلتُ في تراجع:

- كاد يفعلها وينجو، ساعدتني في عودة الطالبة إلى كوخ نديم من جديد، لقد انتهت المرأة التي كنتم ترونها على المنصة، لقد ذهبت بلا عودة .. لن تخسر شيئاً، أعطني فرصة واحدة ..

هز رأسه متهمكًا، أدركت أنه تذكر كلامه لي حين نوسل إلي كي
أعطي نديم فرصة واحدة، لكنه قال:

- حسنًا، اذهبي أنتِ إلى أكواخ النسالي وطالبي النساء بعودة
أطفالهم إلى كوخ السيد نديم، لن أتدخل بهذا الأمر ..

وسكت ثم أكمل بعد لحظات:

- لكنني سأوفر لك الطعام خلال هذا الشهر ..

ابتسمت وريت على شعري، وقلت:

- سأفعل ذلك ..

ثم نهضتُ، وكدتُ أغادر فقال:

- انتظري .. إن كانت امرأة المنصة قد ذهبت بلا عودة، فانركي
كل ما يتعلق بها ..

ثم نهض وتحرك إلى صندوق خشبي بركن بعيد، وأخرج منه
فستانًا منزوع الكتف الأبيض، وقال:

- إنه فستان أختي، غادرت منذ ثلاثة أشهر، أعتقد أنه مناسب
لمقاسك ..

ابتسمتُ وأنا آخذه منه، وقلت:

- سأرتديه ..

ثم التفتُ وكدتُ أغادر، فتوقفتُ مرة ثانية وقلت:

- هل لي أن أطلب طلب أخير؟

قال:

- ماذا؟

- قلت:

- أريدك أن تجعل إحدى الفتيات اللاتي يذهبن إلى جويدا أن تحمل رسالة إلى إحدى جيرانني هناك ..

قال:

- أي رسالة؟

قلت:

- أريد أن أخبر إحدى قريبات أمي بأن تمضي بأخي زين في غيابه ..

مز رأسه موافقًا، فأخبرته بمكان قريبتني، وغادرت الكوخ أحمل بيدي فستان أخته.



نزعْتُ فستانني الذي جيئْتُ به من جويدا، وارتديتُ فستان أخت ريان، كان قديمًا ذا لون أرجواني باهت. لكنه كان مناسبًا إلى حد كبير .. ظللتُ متوجسة لفترة قصيرة قبل أن أستجمع قواي وأخرج إلى وادي النمسالى مرة أخرى ..

كانت نظرات الدهشة تتفحصني، وخاصةً عندما دلفْتُ إلى الجزء المكتظ من الوادي عارية الكتف، كان كوخ نديم وكوخ ريان يقمان بالمشارف التي لا يتواجد بها الكثير من الأكواخ، أما داخل الوادي فتلاصقت الأكواخ وتفرعت الطرقات والشوارع بينها، وكان قرية كبيرة قد نشأت داخل أحضان ذلك الوادي ..

تحدثتُ مع امرأة نسلية قابِلتني عن نيتي لاستكمال ما بدأه نديم تركتني ومضت .. تحدثتُ مع أخرى فعلت ما فعلته الأولى، طرفتُ باب أحد الأكواخ وتحدثتُ إلى امرأة ثالثة كادت تلقي بما في يديها في وجهي، لكنها اكتفت بإغلاق الباب بوجهي، كوخ آخر، نساء أخريات. كلهن فعلن الشيء ذاته، لم أجن إلا التجاهل أو الإهانة ..

لم أياس، وواصلتُ سيرتي بين الطرقات والأكواخ، لكنني لم أستطع إقناع امرأة واحدة أو فتى واحد، وعدتُ مع غروب الشمس إلى كوخ نديم الذي صار كوخِي، كانت قطعة من الخبز والجبن قد وُضعت على سريري، فعلمتُ أن ريان قد أوفى بوعده ..

كنت أعلم داخل نفسي أنهم محقون، لو كنت مكانهم لفعلتُ الشيء ذاته، لكنني أردت مساعدتهم حقًا كما أراد نديم ..

في اليوم الثاني فعلتُ ما فعلته في اليوم الذي سبقه، كما أنني اتجهتُ إلى وادٍ آخر قريب كان به بعض الأكواخ، غير أنني عدتُ كما عدتُ يومي السابق تعامًا، فعلتها مرة ثالثة باليوم الثالث، مرة رابعة باليوم الرابع، مرة خامسة، مرات كثيرات بأيامي المتتابعة ..

لم أكل في الذهاب كل يوم إلى نساء النسالى. ولم تكل نساء النسالى في صدي يوماً بعد يوم، ولم يكل ريان عن الإتيان بطعامي اليومي دون أن يلتفتيني معظم الأيام، حتى وإن التقينا، لم يسألني قط عن نتيجة ما أفعله، كان يحضر لي الطعام ويفادر دون أي حديث ..

سار نومي منتظماً، لم تعد الكوايس تطاردني، ورحل عن جسدي الهزال الذي أصابه الأشهر الماضية وكأنتي وجدت ضالتي وراحتي في هذا المكان، ثم جاء ذلك الصباح حين بدأت رحلتي اليومية للذهاب إلى أكواخ النسالى فلم أجد الكثيرات منهن، ثم رأيت امرأة تمسلة تهوّل مسرعة فحاولت أن أستوقفها، فأبعدتني عن طريقها، وغمضت بآنها لا تريد أن تقوّت يوم الغفران ..

يوم الغفران لا، تناهت الكلمة إلى مسامعي كأنها تحدثت فجأة عن شخص أعرفه، كان لسنوات طويلة صديقي المقرب .. وابتعدت عن طريقها، وجلست على جانب الطريق أنظر إليها وإلى النساء الأخريات المتسارعات للحاق بباحة جويدا، وتساءل عقلي وقتها، أبحيون ذلك المكان أم يكرهونه؟

إن كانوا يكرهونه فلماذا يهرولون إليه هكذا؟ .. وإن كانوا يحبونه فلماذا يكرهونني ولم أكن سوى جزء منه؟ .. لأنني قتلت نديم؟ .. أعلم أن الناس لا يسامحون أبداً من يقتل أحلامهم، لكني جئت لأحيي أحلامهم من جديد، أريد فرصة فحسب ..



بقيتُ في موضعي وقتًا طويلاً ، قبل أن أعود إلى الكوخ مع الظهيرة ،
ولم أغادره حتى حلول المساء ، بعدما سمعتُ الزغاريد تدوي بدون
توقف مع سكون الليل .. فارتدتُ فستانني الأرجواني على نحو سريع ،
وخرجتُ في اتجاه الزغاريد التي أخذت تختلط بالموسيقى كلما تقدمت
قدمي في اتجاه المنطقة المكتظة من الوادي ..

فوجئتُ بأن المشاعل والمصابيح قد اشتعلت وعُلقت بالطرفقات على
عكس الأيام السابقة ، فواصلتُ طريقي حتى اقتربتُ من بناء خشبي
كانت الموسيقى تأتي من داخله ، فاقتربتُ أكثر وأكثر ، ودلفتُ إلى داخله
.. بدا أنه حانة كبري ، تتراص بها المقاعد الخشبية حول الطاولات ،
ويُقدّم الشراب إلى الجالسين ، بينما تتراقص الفتيات على أنغام
موسيقا كان يعزفها عددٌ من العازفين الذين تواجدوا بأحد الأركان
بالقرب من امرأة لم تتوقف عن إطلاق الزغاريد ..

تقدمتُ إلى مقعد قريب ، فنظر إليّ الجميع في تجمّع ، لكنهم لم
يعطوا لي اهتماماً كبيراً ، وواصلوا احتفالانهم ، حتى ريان الذي لحته
بينهم تظاهر بأنه لا يعرفني ، وواصل رقصه مع فتاة في مثل عمره ، ثم
تغيّرت الموسيقى إلى إيقاع مختلف كنت أسمعُه للمرة الأولى ، لكنه كان
مبهجاً على نحو كبير ، ومع وضع كل فتى وفتاة عُصبة قماشية على
عينيه ، وبدأوا في التراقص على ذلك الإيقاع دون أن يخطئ أحدهم
أو يرتطم بالآخر ..

أدركتُ مع هيئة بعض النساء الجالسات أن ذلك الحفل احتفالٌ
بمن حصدن أرواحاً لأطفالهن ذلك الصباح بالباحة .. فواصلتُ
استماعي وأنا أنظر إليهم وهم يخلقون لأنفسهم لحظات من السعادة

لم تكن لتوفرها لهم جارتين أبداً، وراقبتُ الفتيان والفتيات وهم يرقصون معصوبي الأعين في خفة وتناسق، وتعميتُ داخل نفسي لو وضعتُ عُصاية على عيني مثلهم، وتراقصتُ أنا ونديم بينهم ..

ظل الاحتفال ممتداً لساعات، وبقيتُ مكاني أشاهد فحسب، إلى أن دوت جلبة مفاجئة خارج الحانة، فسكتت الموسيقى واندفع الكثيرون إلى الخارج، وبدوري خرجتُ لأرى ما يحدث، ثم وقفتُ خلف امرأة نسلية حين وجدتُ ضابطاً أمن أعرفه، ومعه رجل شريف في الثلاثينيات من عمره يجزّ فتاة لا تكمل الخامسة عشر من شعرها، وهي تصرخ بأنها لا تريد فعل ذلك، وتتوسل إلى من حولها بأن ينقذوها، غير أنهم ظلوا واقفين في جمود وأعينهم على ضابط الأمن دون أن يتحرك أحدهم .. كانت الفتاة تزحف على ركبتيها محاولة أن تقاوم الرجل بأقصى ما لديها، وتصرخ إليه باكية:

- لا أريد أن أفعلها سيدي، أرجوك ..

لكنه واصل جزّها ناحية عربية كانت تقف في انتظاره على بعد أمتار، وبدأ الضابط في ضربها بمصاه كي تتخلى عن مقاومتها، حينئذ سمعتُ امرأة بجواري تقول:

- هذا ما جنته من تعليم نديم ..

- لا تريد أن تعيش عيشتنا .. عليها أن ترضى بواقعها فحسب، لن نقيدها المقاومة غير مزيد من الألم .. سيمارس معها الرذيلة شامت أم أبت، طالما تمتلك هذا الوشم على كتفها ..

كانت صرخات الفتاة تتزايد مع كل خطوة يجزها بها الرجل نحو العربية، بينما تأخر عنهما الضابط خطوات، وانشغل بمراقبة من تسول له نفسه من النسائي بأن يتحرك نحو ذلك الشريف، فلم أجد نفسي إلا وأنا أتحرك من وراء المرأة النسائية، لأقف أمام العربة الواقفة في مواجهة الرجل تمامًا ليلتفت إليّ غاضبًا، وكان الظلام لم يريه وجهي فلم يعرف من أنا، فصاح بي:

- ابتعدي والا أخذتك معها ..

فقلتُ باسمعة:

- حظك سيئ .. لا امالك وشمًا ..

ثم لكمت وجهه لكمة قوية حملت معها كافة ذكريات تدريباتي الشاقة بمدرسة ضباط الأمن، لتطيح به خطوات إلى الخلف، قبل أن يلتفت إليّ ضابط الأمن ويمد يده إلى سلاحه، فتحركت خطوة نحوه، فظهر وجهي أمامه فحدق بي في دهشة، وقال:

- السيدة غفران!!

فقلتُ في تجهم:

- أغرب عن وجهي ..

كان الرجل الشريف قد رقد على ظهره يحاول أن يوقف سيل الدماء الذي سأل من وجهه إثر لكمتي، وظل ينظر إليّ غير مصدق، بينما هرولت الفتاة زاحفة لتقف ورائي محتمية بي، وظل ضابط الأمن يعتق بي ويده على سلاحه وسط مراقبة أعين النسائي الذين وقفوا

بشاهدين ما يحدث أمامهم بأنفاسٍ محتبسة، قبل أن يبعد يده عن سلاحه، ويصيح إلى الرجل الغريب كي يفادرا .. ثم ركبا عربتهما، وانطلقا مبتعدين، فأسرعت الفتاة من خلفي إلى امرأة أخرى تكبرها منًا وحضنتها وهي تبكي ..

واصل الحاضرون تحديقهم بي دون أن ينطق أحدهم بأي كلمة، ولم أنطق أنا الأخرى بشيء .. ظللت فقط أنظر إلى الفتاة الباكية، وتردد بعقلي كلمات المرأة التنسلية بأن تعليمها علي يد نديم هو من جعلها ترفض ممارسة الرذيلة، وزاد شعوري بداخلي بأن ما فعله نديم لهم ثم يكن إلا أمرًا عظيمًا كان من شأنه أن يغير واقعهم للأبد .. ففادرتُ إلى الكوخ وبداخلي عزم قوي يصرخ بأعلى صوت بأنني لن أتأزل أبدًا عن مواصلة ما بدأه نديم، وإن أكملت سنواتي المتبقية جميعها أطرق كل يوم أبواب النسالي ..

لكن بابي هو من طُرق في صباح اليوم التالي، ولما فتحتُه كاد قلبي يطير من الفرحه بعدما وجدتُ الفتاة التي أنقذتها من الرجل الشريف تقف أمامي وتمسك بكتاب قديم في يدها وتتنظر إلي صامته، نظرتُ إليها لأصدق نفسي، فهزّت رأسها باسمّة وهي تقول:

- أرسلتني أمي لأكمل تعليمي على يدك سيدتي ..



(٢٠)

«ريان»

كنت في طريقي إلى السيدة غفران أحمل طعامها اليومي الذي اعتدت أن أؤفره لها على مدار ذلك الشهر، حتى توقفتُ أمام باب كوخها المفتوح بعدما رأيتها تجلس مُمسكةً بأحد أقلام سيدي، وتجلس أمامها الفتاة التي كاد الشريف يفتصبها ليلتنا السابقة، وبدأ أمامي أنها تقوم بتعليمها كما كان السيد نديم يفعل معنا، فظللتُ أراقبها للحظات، قبل أن أترك طعامي حين لمحتني، وأغادر سريعاً دون أن أقول شيئاً..

لا أخفي أنني لم أتوقع قط أن يستجيب نسلي واحد أو نسلبة لسيدة المنصة، لكن ذلك قد حدث، بدأ الأمر بالفتاة الأولى، بعد أيام قليلة وجدتُ فتاةً أخرى قد انضمت إليهما، ثم أيام أخرى وصارت الفتاتان أربعة، ثم انضم طفلان لم يبلغا السابعة من عمرهما قبل أن يمر شهرهما الأول، حتى أصبح عدد ما يتعلم معها مع حلول يوم الغفران الجديد أحد عشر طالباً .. وكأن ما حدث مساء يوم الغفران أمام

الحانة كان البداية الحقيقية لإذابة الحاجز الجليدي بينها وبين
الكثيرين منا ..

مع كل مرة كنت أذهب إليها بالطعام كانت عيني تتحرك لا إرادياً
إلى الأطفال من أجل إحصاء عددهم، ولا أنكر أن داخلي كان يشعر
بسعادة كبيرة مع كل تزايد بأعدادهم .. أقسم أنني لم أتخيل يوم
حملتها فاقدة الوعي إلى كوخ السيد نديم أن تبقى أكثر من يوم واحد
بيننا. لكنها فعلتها ولم تفادرننا منذ ذلك الحين، ولم ترتد غير فستان
أخفي ديماء وفستانها الذي جاءت به بعدما نزعته كتفه الأسير هو
الأخر .. ثم وجدتي بنهاية الشهر الأول أذهب إليها لأخبرها بأنني
سأوفر لها الطعام لشهر آخر، لم أخبرها عن مصدر الطعام الذي
أتي به كي لا تعترض، لكنني وعدتها بإكمال شهر آخر على أي حال ..

المثير أنها رغم تزايد الأعداد لديها بصورة يومية كانت تواصل
مرورها بين نساء النساالي في وادينا والوديان الأخرى ترافقها الفتاة
الأولى التي التحقت بها أو من عرفت اسمها فيما بعد «فارين».. لتعود
إلى مدرستها الصغرى كل مساء بطالب جديد على الأقل، ثم أدركت
أن الحال قد تبدل حين حضرت إلى الحانة مساء يوم الفجران الجديد
للاحتفال بمن حصدن أرواحاً لأطفالهن ..

في تلك الليلة اتخذت مكانها بالطاولة ذاتها التي جلست عليها يوم
الاختقال السابق، وظلت تنظر إلى الراقصين من الفتيان والفتيات في
سعادة بالغة، وخاصةً بعدما دقت موسيقا «الشامو» ووضع كل منهم
عصبته القماشية على عينيه، وددت لو اقتربت منها وأخبرتها أن
موسيقا الشامو هي موسيقانا التي ورثناها في ودياننا، ولا يستطيع أن

ينراقص على إيقاعها بتلك البراعة غيرنا، لكنني بقيتُ مكانني أراقب
تعبيرات وجوها، وأراقب نظرات النسالي إليها بين الحين والآخر، ثم
تكن قطة النظرات ذاتها حين وطأت قدمها هذا المكان للمرة الأولى
قبل شهر. ولأنني أعرف النسالي جيداً وأعرفهم حين يكرهون
شخصاً وحين يتقبلونه، أيقنتُ تلك الليلة أن هذه السيدة قد وجدت
طريقها إلى قلوب النسالي ..



لم تتوقف السيدة غفران يوماً عن إعطاء دروسها، ولم أتوقف
بدوري عن الذهاب بداية كل شهر لأخبرها أنني سأوفر طعامها
عن ذلك الشهر فقط، قبل أن تضحك إليّ كأنها تعلم أنني سأراجع
وسأعود إليها مع بداية الشهر الجديد لأخبرها بأنني سأستمر لشهر
آخر، وهذا ما كان يحدث بالفعل ..

من كان يتصور يوماً أن المرأة التي دقّ حذاؤها الأثني أخشاب
منصة جويدا لسنواتٍ صارت تنتقل بفستانٍ قديم وحذاء ممزق بين
طلبة هزالي يسود الفقر وجوهمهم، لتقرأ لكل واحد منهم على حدة ما
لا يستطيع قراءته، ثم تعانقه وهي تضحك، قبل أن تنتقل إلى آخر أو
أخرى لتفعل معهم الشيء ذاته، لتصبح مدرستها الصغيرة في خلال
أشهر قليلة مهداً حقيقياً للحياة في وادينا الفقير ..

كنت أحب الذهاب إلى ذلك المكان، بل صرتُ أتججج كل مرة
بشيء ما من أجل إطالة فترة تواجدي هناك، حتى أنني بدأتُ بإحضار
الطعام أكثر من مرة باليوم وإن لم أوفره لنفسني، ثم بدأتُ أستغل

وجودي هناك لثلمت أذني بعضاً مما تتحدث به السيدة غفران إلي
طلبها ..

كانت تحدثهم عن أمور كثيرة ، لكنني لم أسمعها تحدثهم عن قواعد
جارتين مطلقاً ، كانت تنظر إلي وتضحك حين تراني أستمع إليها وهي
تحدث إلى الطلبة الجالسين أمامها ، فانتظرت بأنني مفضّل بشيء
آخر ، وأغادر سريعاً في حرج ، كنت أعلم أنها تكن لي محبة خاصة ،
ربما لأنني من ساعدها بالبداية ، أو لأنني أمثل لها جزءاً كبيراً من
سيدي الراحل ، لكنني لم أجرو أن أسألها كي ألتحق بمدرستها ، وهي
كذلك لم تسألني ذلك ..

كانت تتركني للحظة التي أقرر بها الانضمام إليها برغبتي الكاملة ،
كأنها تدرك أن تلك اللحظة ستكون بمثابة إعلان مسامحتي لها .. كنت
أعرف أنني طيبٌ مثل سيدي كما قالت ، وإن لم أكن نقياً كاملاً مثله
مع قبامي ببعض السرقات الخفيفة من عربات تجار الأشراف التي
نمر بالطرق الجنوبية لأوقر لها ولي طعامنا اليومي .. حاولت كثيراً أن
أستع من الذهاب إلى مدرستها لكنني فشلت فشلاً ذريعاً ، ثم حل ذلك
المساء حين ذهبتُ إليها بالطعام بعد مفادرة الطلبة جميعهم ، ضالنتها
لن مقدمات:

- لماذا لا تعلمينهم القواعد؟

قالت باسمه:

- قد تتغير القواعد يوماً ما ..

تذكرتُ كلمات سيدي حين أجابني ذات يوم بالإجابة نفسها.
فضحكْتُ، ووجدتُ نفسي في الصباح التالي أذهب إليها بلا طعام.
أخبرتُها أنني أريد الانضمام إليها.



صارت الشهور أعوامًا، وصارت مدرسة السيدة غفران وجهًا
أطفال النسائي، ولقيت السيدة غفران بين الوديان بـ «السيدة»،
وصارت طاولتها مساء كل يوم غفران بالحانة مقصد الكثيرين من
النسائي لكي يقدموا لها التحية، وصرتُ أنا وناردين مساعدتها بعدما
أصبح العدد كبيرًا جدًا إلى حدٍ لم تكن لتستطيع أن تعلمهم جميعهم
وحدها، فقسَّم الأطفال الأصغر عمرًا بيني وبين ناردين، وتولت
السيدة غفران الأكبر سنًا ..

ثم لاحظت السيدة مع عامنا الخامس أن بعض الفتيات قد انصعبن
بلا رجعة، سألتنا عن السبب، قالت ناردين:

- لقد بلغن سن العشرين أي عمل لامرأة نسالية خشية
وتابعت:

- اعتاد شرفاء جاريتن ألا يوفروا أي عمل لامرأة نسالية خشية
من السرقة، فتلجأ نساؤنا إلى بيوت الرذيلة من أجل مقابل
يكفي للمعيشة، تستطيعين القول أنها مصدر العيش الرئيسي
لنساء النسائي .. لكن تلك البيوت لا تتوانى عن طردهن ما إن
يكبرن في السن، لتحل بناتهن مكانهن من أجل الحفاظ على
ذلك المقابل ..

هزّت السيدة رأسها إيجاباً في شرود، ثم نظرت إليّ وأخبرتني أنها
تود الذهاب إلى جويدا للمرة الأولى بعد خمس سنوات من وجودها
بالوادي، وقتها خشيتُ أن أرافقها بعدما بلغ عمري الثانية والعشرين،
لكنها لمّا أنتني بأنني سأكون معها ..

لم أعرف مقصدها من تلك الزيارة، جال بذهني في بادئ الأمر
أنها تود الذهاب إلى هناك من أجل الاطمئنان على أخيها، حدث
ذلك بالفعل .. لكنها اكتفت بشكر قريبتها، وتحدثنا عن المقابل الذي
تقاضاه تلك السيدة مقابل تربية أخيها، كنت أعرف منذ الرسالة
التي أرسلتها لها قبل سنوات أن قريبتها تقال النقود جميعها التي
نصرها جاريتين لأهل كل شريف يموت بطريقة شرعية عند سن
الخمسين ..

جلست قليلاً مع أخيها، كان قد بلغ عامه الثاني عشر، أخبرته أنها
ستعود من أجله، ثم أدركتُ هدف زيارتها الأساسي حين دلفت بي إلى
بيتها، وفتحت باب إحدى الغرف لأجد مكتبةً عظيمة بها المئات من
الكتب، وقالت لي حين رأت الدهول على وجهي:

- سننقل كل هذه الكتب إلى الوادي ..

أومأت برأسي إيجاباً وأنا أنظر نحو الكتب، لكنني حين التفتُ إليها
ورأيته وهي تنظر نحو الكتب شاردة أدركتُ أن غاية السيدة غفران
من مدرستها بوادينا لم يعد تعليمنا فحسب، بل بدا أمام تلك النظرة
أنها كانت تنوي ما هو أكثر من ذلك بكثير.



حملنا الكتب إلى الوادي، وهناك سألتني أن أجمع الطلبة جميعهم أمام الكوخ، ثم خرجت إلينا واختارت اثني عشر فتى وفتاة من بينهم، كنت أعرف أنهم الأفضل، ثم ضمنتني إليهم أنا وناردين، وسألنا أن نقوم بنسخ عددًا من الكتب، كانت قد عكفت على انتقائها ووضعها جانبًا ..

كانت الكتب المفتاة تتنوع تنوعًا شديدًا إما عن بلدان أخرى أو عن تاريخ جارتين أو عن بعض الفلاسفة القدماء، لم يتحدث كتاب واحد عن القواعد أو عن الفرق بين الجارتين الشريف والجارتين النسلي .. لم يقل كتاب واحد مما اختارته السيدة من قدرنا، وكأنها أرادت أن تنسينا أننا حاملو العار في هذا البلد، وأننا بشر كاملون لنا من الحقوق ما يمتلكها أي بشر تدق قدماء هذه الأرض ..

ثم أخبرني ناردين أن الكتب التي كُلفت الفتيات بنسخها كانت تختص جميعها بتعلم حرف يدوية صغيرة، وأضافت الفتاة ضاحكة بأنها تظن أنها بانت تمتلك المقدرة لصنع سجادة كبيرة إن اتبعت ما كُتب في الكتاب الذي كُلفت بنسخه، فقلت في سري:

.. هذا ما أرادته السيدة .. لن تأمر فتاة بأن تترك الرذيلة بطريقة مباشرة، بل ستجد لكل امرأة نسبية سبيلاً آخر لجني الأموال بعيداً عن ارتكابها مَرِغمة ..

وقتها سألتُ ناردين:

- هل يخبرك الكتاب بما تحتاجينه من أجل صنع سجادتك ..

قالت:

- نعم ..

قلت:

- فلنكتبي لي إذا ما تحتاجينه ..

وقبل أن يمر يومان كنت قد أحضرتُ لها ما كتبت لي من خطوط، نعم سرقتها من أحد المفازل بشمال جويدا بمساعدة شاب آخر، لكنني نويتُ داخل نفسي أن أُرِدُ المال إلى صاحب المفضل بمجرد أن أمتلكه ..

تعمدت السيدة غفران أن توزع كتب الحرف المنسوخة على من يستطيعون القراءة والكتابة لنسخها مرات ومرات، وإن استغرق الكتاب للفرد الواحد عدة أسابيع، قالت لي:

- ليس الهدف نسخ الكتاب على قدر ما قد يتمثر أحدهم داخله بشيء يألفه ..

مع شهرنا الثاني، كانت ناردين قد صنعت سجاداتها الأولى، لم تكن جيدة إلى حد كبير، لكنها تبض الشيء المصنوع الأول بين أحضان

واديها .. جلسنا مساء ذلك اليوم نحتفل بذلك الأمر، كانت تتوسطنا السيدة غفران، والتفقتنا جميعاً حولها في صفوف نصف دائرية، أخبرتنا حين هداً ضجيجنا أن جاريتين ستظل فقورة بنا ..

كانت كلمة غريبة على مسامعنا، فخرنا، ضحكنا، لكن ملامح الجدية التي ظهرت على وجه سيدتي جعلت كل منا يتساءل داخل نفسه إن كانت تقصد الكلمة حرفياً؟؟، لطالما حملنا العار إلى هذا البلد، هل جاء الوقت حقاً لتصبح حاملين للشرف؟؟ .. صممتنا جميعاً ونحن نقف الكلمة بمقولنا، ونختلس النظرات إلى بعضنا البعض، وكأننا نذوق حلاوتها للمرة الأولى ..

ثم نهضت السيدة إلى داخل الكوخ وعادت، وأخرجت إلينا صندوقاً خشبياً صغيراً، كنت قد رأيتها تحضره من بيتها حين ذهبنا سوياً إلى هناك، وقالت وهي تفتحه ليظهر عقد ثمين بداخله:

- كان هذا عقد أمي، سيكفي ثمنه لإحضار المزيد من الخيوط، تستطيع كل فتاة أن تجني ثمن ما تصنعه كاملاً، ثمن هذا العقد مني إليكم، لن يكون ثمنه كبيراً جداً، لكن جيد كبداية ..

هملنا جميعاً في فرحة، ثم قالت فتاة قد تبلغ الخامسة عشر مازحة:

- هكذا لن نجبرني أمي على ممارسة الرذيلة ..

ضحكت السيدة وقالت:

- عليك أن تصنعي الكثير إذا ..

ضحكنا جميعاً ثم جال ببالي سؤال لم يخطر عليّ من قبل، لكن شاباً آخر بصفرني سناً سبقني وسأله للسيدة عندما قال:

- سيدتي، لديّ سؤال ..

فهزت رأسها كي يسألها، فقال:

- إن لم تعارس الفتيات الرذيلة، لن تحمل فتياتنا، وإن لم يحملن لن يذهبن إلى باحة جويدا، وسكت ..

فهزت رأسها مرة أخرى كي يكمل وكأنها تفهم ما يرمي إليه، فتابع الفتى:

- إن لم يذهبن إلى هناك لن يكون هناك مزيد من أطفال النسالى، هكذا سينتهي نسلنا ..

زادت الهمهمات بين الفتية والفتيات من حولنا، وكأنهم لم يفكروا بهذا الأمر، وأن ممارسة الرذيلة هي الضمان الحقيقي لبقاء نسلنا، لكن السيدة قالت بهدوء شديد:

- نعم، سينتهي نسل النسالى ..

ثم تابعت بعد لحظة من الصمت:

- لكن نسلكم أنتم لن يفتحي ..

فأرسمت ملامح الحيرة على وجوهنا، فقالت:

- سينتهي النسل الناتج عن الرذيلة، لكن سيبقى نسل شريف ناتج عن الزواج ..

اشتعلت الهمهمات من جديد بيننا، ومعها تدفقت الدماء إلى عروقنا، كأن ما قالته السيدة قد ضرب بكل جانب من جوانب أجسادنا، ونظرنا جميعاً إلى السيدة في صمتٍ مطبق، وكأننا في حلم لم نكن لنجرؤ على التذكير به يوماً ما ..

وبينما واصل كلُّ منا صمته وشروده في حلمه الخاص الذي طرفته له السيدة، لم يكن يعرف أحداً أن لكل حلم ثمنه، وأن ما حدث تلك الليلة لم يكن إلا بدايةً لجلب المزيد من المتاعب.



(٢١)

حصلنا على مزيد من الخيوط نظير ثمن عقد السيدة الذي باعته بنفسها خشية أن يُعقل أحد منا بتهمة سرقة، ومن بعده لم تد المدرسة مكاناً لتعليم القراءة والكتابة فقط، بل صار وقت ما بعد الظهر مخصصاً للفتيات من أجل صناعة ما يمكن صناعته مما تعلمنه من الكتب المنسوخة .. وكُلّفت أنا وشابان آخران بإحضار الطعام لكافة الطالبات في ذلك الوقت، بينما خصصتُ صباح كل نهار من أجل إكمال تعليم الصغار ونسخ المزيد من الكتب ..

مع مرور الوقت استطاعت الفتيات إنتاج عدد من المشغولات واستعدت طرق جديدة لاستخلاص زيت الزيتون من أشجار الزيتون المثمرة بالجانب الشرقي لوادينا، أكدت لنا السيدة أنه أكثر جودة من زيت جويدا ..

كذلك قامت بعض الفتيات باستخلاص كميات كبرى من زيت السمسم من أجولة السمسم التي أحضرتها امرأة نسلية قالت أنها

قد اشترتها من أحد دكاكين العطارة، كما تمكن عدد من الفتيان من صنع أوانٍ فخارية مميزة الشكل من طمي التلال المجاورة ..

مع كل يوم كان هناك جديد يصنعه فتى أو فتاة نسلية، وكان النسالي قد وجدوا أنفسهم يعيشون فجأة، ثم جاء التحدي الرئيسي بعدما عادت الفتيات من السوق الكبير بجويدا ولم يبقن أي شيء مما صنعناه، بعدما رفض الأشراف التعامل معهن ..

ظللنا جميعاً في خيبة أمل لدقائق بيننا السيدة غفران، قبل أن ينطلق شاب ويقول:

- كُفْتُ بنسخ كتاب عن بلدانٍ أخرى يفصلها عنا بحر أكما شمالاً وجنوباً، هناك لن يهتموا ما إذا كنا نسالي أو لا.. نستطيع حمل بضائعنا إلى هناك.

فقال امرأة بجواري:

- ستكون تكلفة الرحلة إلى تلك البلدان باهظة للغاية، لقد اعتاد مالكو السفن تلقي مقابل كبير من النساء اللاتي يبعن أولادهم، وحمل بضائع مثل بضائعنا سوف تجعلهم يطمعون ويطلبون أضعاف ما تدفعه النساء ..

جال في بالي أختي ديما فحدثت نفسي:

- لو كانت هنا لاستفسرتُ منها عن أشياء كثيرة بشأن بلاد الفجر الشمالية والسفن التي تبحر إليها، غير أنها لم تعد منذ غادرت بحملها أيام موت سيدي قبل سنوات ..

وكبرت أنطق وأخبر سيدتي عنها لكنني تراجمت. لم أجد أن الحديث عنها سيفيدنا بشيء. وواصلت صممتي، وصمت الجميع يفكرون بعجل جديد. حتى أخبرتنا السيدة بأن نكمل ما فعله دون أي تفسير حتى يظهر لنا حل في الأفق.



يومًا بعد يوم دلف إلى مدرستنا المزيد من نسالي الوديان الأخرى. وصار معظم طلابنا قادرين على صنع أشياء لم نكن لنفكر يومًا أننا نمتلك المقدرة لصنعها، لم يكتفِ الشبان بالتعليم وصناعة الفخار فحسب، بل نافسوا الفتيات في زراعة الأرض الخصبة المجاورة لأشجار الزيتون والقريبة من البئر الشرقي .. وبعد أشهر قليلة كانت تلك الأرض قد أخرجت لنا من خيرها ما يكفي وادينا وفيض، وصارت الاحتفالات بالحانة تُقام بصورة شبه يومية بعدما كانت تُقام أيام الغفران فقط ..

الغريب في الأمر أنه وبعد مرور أشهر قليلة أخرى، قلت الاحتفالات أيام الغفران، وكأننا بدأنا ندرك شيئًا فشيئًا أنه لم يعد أمرًا يُحتفل به، وأن حياة لطفل ناتج عن الرذيلة لا تستحق منا تلك الضربة، بل ما يستحق الحزن هي تلك الروح التي فُقدت بإعدام أحدنا، حتى صارت الاحتفالات بكل الأيام عدا يوم الغفران ..

مع نهاية ذلك العام عاد بعض من طلبة الوديان الأخرى إلى وديانهم، رأيتهم وهم يمدون السيدة بأنهم لن يتوانوا عن تعليم المزيد من أبناء واديهم قبل أن يحتضنوها ويغادروا .. ثم كانت الضربة

الحقيقية والاحتفال الأكبر بعدما توصل شاب نملي يعيش بوادٍ آخر إلى اتفاق مع مالك إحدى السفن يقضي بنقل بضائعنا إلى بلاد الشمال مقابل جزء من ربحنا، وقفنا هبت نسائم الفرحة لتمام صدورنا أملاً وكأننا أخذنا خطوتنا الأولى أخيراً للتحرر من قيود أشراف جارتين ..

تمنيت لو اختارتني السيدة مع من يبحرون إلى الشمال، لكنها آثرت أن أبقى بالوادي، واختارت بعضاً من الفتيّة الآخرين الأقوياء للذهاب ببضائعنا معهم ثلاثة نساء كنا قد ذهبنا إلى الشمال من قبل، حينذاك حدثت إحداهن عن أختي التي تسكن مع غجر تلك البلاد عليها تجدها وتخبرها عن التغير الذي أصابنا بعد رحيلها، ربما تقتنع بأن تعود للعيش هنا ..



حملت السفينة الأولى بضائعنا بعد أكثر من عام ونصف على صنع ناردبن سجادتها الأولى، وبعد ثلاثة أشهر أخرى عاد إلينا الشبان والفتيات حاملين من القطع الذهبية ما أدركنا معه أن عهد ارتكاب الرذيلة كرهاً بين أنبيّة جارتين قد ولّى، بل عهد ارتكاب جرائم النسالي من أجل المال قد أن رحيله ..

وزعت السيدة غفران المال على الفتيات والفتيان دون أن تترك أي قطعة معدنية لنفسها، كما وزعت المواد الخام التي أتى بها الشبان من الشمال، والتي استخدمناها لاحقاً في صناعاتنا .. أخبرنا الشبان عن الأسواق اللاتي وجدوها ببلدان الشمال، وعن تهافت تجارها على بضائعنا .. كنت أرى الحماسة التي يتحدثون بها وأنا أنطلق إلى

الوجوه الأملّة التي كانت تنصت إليهم وتتحفز لصنع المزيد، وكذلك
حيث أختلس النظرات إلى ملامح السيدة المبتهجة بكل ما يحدث ..

في الأيام القليلة التالية قمنا ببناء بئرين؛ أحدهما مجاور لكوخ
السيدة وشيدنا حوله سياجاً طويلاً كبيراً لتتسع باحته للمزيد من
الطلبة، وآخر على الجهة الخلفية للكوخ خصصناه لتخزين ما نصنعه
من أجل حمله إلى بلدان الشمال .. وكأنّ العجلة قد دارت بدون توقف .
لم تتوقف الفتيات عن صناعة شيء جديد كل يوم، ولم تتوقف أرض
واديّنا عن الجود بكل ما تستطيع به إعطاءنا، وزاد توافد النسالى إلى
واديّنا من كل حدب وصوب نساءً ورجالاً، ومع شِدّت أكوّخ جديدة
حتى اتسعت مساحة الوادي لتصير ضعف مساحته قبل عام واحد
فقط ..

رأيت للمرة الأولى رجالاً نسالى تعبر أعمارهم الأربعين والخمسين
وواحدًا كان يعبر الستين، كانوا قد شردوا في صحاري چارتين خشية
بطش مدنها .. خشيتُ لوهلة أن يعود بنا ذلك التدفق المفاجئ خطوات
إلى الخلف في ظل أرواحهم الآثمة التي لم نجد من يهذبها مثلنا،
فَنُفسد ما تعبت به سيدتي لسنوات، وحدثتُ سيدتي عن مخاوفي،
فطمأننتني، وسألتني أن نتركهم ليعملوا معنا، وأضافت:

- يهذب العمل الصالح المجرمين كالعلم تمامًا، دعهم يجدون
أنفسهم التائهة منذ سنوات طويلة، لا بد وأن أرواحهم قد
عانت كثيرًا ..

انتبهت لحظتها أنني وصلتُ إلى عامي الرابع والعشرين ولم أعانِ
منكما رأيتُ سيدي يعاني، لم أضرب الجدران برأسي أو تتور روعي.

هل هُذبت روجي تدريجيًا السنوات الماضية أم ماذا ؟! .. سألتُ ناردين
إن كانت قد أصيبت بنوبات مشابهة لنوبات سيدي ووصفتها لها.
فأخبرتني بأن ذلك لم يحدث، وإن حدث قلن تتوانى عن المقاومة ..
سألتُ الكثيرين إن مر أحدهم بنوبات مشابهة، فأنكر الجميع .. لتمر
بنا الأيام سريعًا، وأجد نفسي أعبر عامي الخامس والعشرين دون أن
أعقل، أو يحدث لي مثلما حدث لسيدي، وكذلك الكثيرون مثلي ..

الأمر الذي بات واضحًا للعيان أن إعدامات الباحة قد فُلت بصورة
ملحوظة، وصار يوم الغفران بالكاد يحمل إعدامًا واحدًا، بل مرت
أيام متتابعة منه دون أن تشهد إعدامًا واحدًا .. سمعتُ أن نساء من
النسالي كن قد حملن من الرذيلة، وذهبن مرارًا إلى الباحة لحصد
أرواحًا لأطفالهن، فرجعن خائبات، وُولدت أطفالهن موتى .. لكن
ذلك لم يترك في نفوسنا حزنًا كبيرًا، واسيناهم فحسب ..

ثم كانت المفاجئة الكبرى حين خرجت إلينا السيدة غفران لتخبرنا
بأن هناك خبرًا سارًا ستقوله، ولما انتبهنا إليها قالت، وقد خرج من
ورائها فتى نسلي في مثل عمري يُسمى «حيدر»، وفتاة نسلية تصغرنا
بأعوام قليلة تُسمى «سبيل»:

- عليكم أن تقدموا إليهما المباركات .. لقد أخيرانى للتو عزمهما
على الزواج في باحة جويدا ..

هللنا جميعًا غير مصدقين .. بات الحلم الذي حلمناه قبل أربعة
سنوات حقيقة في تلك اللحظة، واتجهنا جميعًا إلى حانة الوادي،
وبمجرد دخولنا دقت موسيقا الشامو ليسرع الجميع إلى منصة

التراقص، بينما جلست السيدة بطاولتها، وجلست بجوارها .. لم تكن السيدة تحب أن ترقص، وكذلك لم أجد لي بالاً للرقص ذلك اليوم، ومكثت في مكاني أراقب الشبان الآخرين وأنظر بطرف عيني إلى السيدة وهي تنظر إلى الزوجين المنتظرين وهما يتراقصان في سعادة كبيرة ..

هدأت الموسيقى فقلت في الوقت الذي انضمت فيه ناردين إلى طاولتنا:

- متي سيتزوجان؟

قالت سيدتي:

- مثل باقي أهل جارتين، يوم الغفران القادم ..

فقالت ناردين في فرحة كبيرة:

- علي منصة جويدا؟

قالت سيدتي باسمعة:

- نعم ..

ثم شردت .. أدركت أن عقلها قد ذهب إلى هناك، كنت أعرف أنها لم تطأ أرض الباحة منذ موت سيدي قبل تسع سنوات، ولحقت في عينيها دموعاً ملتزمة، فمددت يدي إليها لأربت على يدها، فابتسمت إلي بعينها الدامعة، فابتسمت إليها .. امرأة أخرى غيرها لكانت قد تزوجت شاباً آخر شريفاً، وأنجبت من الشرفاء ما يحملون الشرف

والفخر لمائلتها. لكنها جاءت إلينا لتحمل الشرف إلى الكثيرين
منا .. ووجدتُ نفسي تحدثني: نعم مات سيدي. لكن موته بمحبتها
إلينا بات بدايةً لكثير من الحيوانات. لم تكن لتحيا قتل لولا وجود هذه
المسيدة الطيبة بيننا .. ثم قاطعت تفكيرى عندما قالت بصوت مختنق
بالدموع

سندهبون بهما إلى الباحة ..

وقالت ناردين في تعجب:

- ألن تذهبي معنا؟!!

هرت رأسها نفياً وقالت:

- سأنتظر هنا في الوادي. لن أعود إلى الباحة مجدداً ..

قلتُ:

- لا سيدي، لن يُبارك ذلك الزواج إلا بوجودك .. وجودك قوة
لهما ولنا جميعاً ..

سكتت، فقلتُ:

- أعلم أنك ما زلتِ تلومين نفسك على ما حدث قبل تسع سنوات.
لكن ما حدث قد حدث ..

ثم تابعتُ:

- انظري حولك، انظري إلى من تجاوز عمرهم الخمس
والعشرين .. بسببك أنتِ. لا أحد غيرك ..

وأكملتُ ناطقاً بما حدثتني به نفسي:

- كان موت سيدي بداية لحيوات أخرى كثيرة ..

ربت على يدي، وامتلات عيناها بالدموع، فتهضت ناردين وقبّلت رأسها .. لاحظت للمرة الأولى أن الشيب قد بدأ يخط في شعر سبدي رغم أنها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين، حتى ناردين قد لاحظت ذلك هي الأخرى، فقالت مازحة:

- هناك بعض الشعيرات البيضاء سيدتي ..

فمسحت السيدة دموعها، وأجابت باسمة:

- نعم، يبدو أنني ورثت الشيب عن أمي ..

أكملت ناردين مزاحها، وقالت:

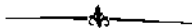
- لنجد لك عريساً إذاً قبل أن بشيب بأكمله ..

ضحكت سيدتي، وكادت تنطق بشيء لكنها بدت وكأنها أمسكت بكلماتها قبل أن تمر من لسانها، وأومأت برأسها وسكتت، فقلت مبدلاً الحديث:

- سيصبح زواج النسائي حدثاً كبيراً من شأنه أن يربح جاريتين بأكملها ..

قالت:

نعم، بمجرد أن يعلم كبير القضاة أنه سيشهد على هذا الزواج
سينتشر الخبر بجارتين مثلما تنتشر النار في الهشيم ..



صرنا جميعاً في انتظار يوم الغفران الجديد بشوقٍ لم يكن له منيل.
وقبل أيام منه غادرت السيدة إلى جويدا من أجل إبلاغ كبير القضاة
عن إتمام الزواج على منصة باحة جويدا، وعادت بعد غروب الشمس.
غير أننا لاحظنا جميعاً تبدل وجهها. دلفت إليها، كان الغضب يسيطر
على ملامحها، بينما جلست ناردين صامته، فقلت:

- لم يقبلوا؟! ..

أومات برأسها إيجاباً دون أن تنطق ..

أخرجت زفيري، وجلستُ واضعاً رأسي بين كفي في خيبة أمل ..
قالت السيدة بعد فترة من الصمت وهي تنظر إلى القمر المكتمل
بالسماء عبر نافذة عالية بجدار الكوخ:

- ربما تنصفنا الأرض بعدما لم يفعل أهلها ..

سألها مستفهماً:

- كيف؟

الفتت إلي وقالت:

- تقضي القواعد بأن يتم الزواج الشرعي بالباحة وكفى. لم
يُذكر نص صريح عن ضرورة إتمامه على المنصة ..

ثم أكملت بجديّة كبيرة:

- سنذهب إلى الباحة لإتمام الزواج يوم الفجران القادم دون
صمود المنصة .. سيبقى حيدرو عروسه بين الجمهور. وهناك
سيردان حديث الزواج ..

ثماء لت نأردين في تعجب:

- أليسا في حاجة إلى قاضٍ ليعلن زواجهما؟

قالت:

- لم يوافق كبير القضاة رغم أنهما يستوفيان شروط الزواج
جميعها .. قال إن المنصة ليست مكاناً للأنجاس. رفض
الزواج لمجرد أنهما نسلان ..

ثم نظرت إلينا وقالت:

- صار علينا أن نعيّن قاضياً لنا إذا ..

قلتُ في تعجب:

- قاضياً نسلياً؟

قالت:

- نعم ..

استمت حدقتا عينيّ معاً قالته السيدة، وقلتُ في لهفة:

.. حسناً .. لتكوني أنتِ هذا القاضي ..

قالت:

- لا، يكفيني المدرسة وشئونها. كما أنني أريده أن يكون منكم ..
يتجاوز عدد من يجيدون القراءة والكتابة ممن بلغوا الخامسة
والعشرين ثلاثمائة .. أعتقد أن الكثيرين منهم مؤهلون لشغل
هذا المنصب ..

قلتُ في حماسة:

- سأقوم بنشر الخبر إذا لعل أحدهم يريد أن يصبح قاضي
النسالي الأول ..

قالت سيدتي باسمي:

- قاضي الجنوب ..

ضحكتُ وأنا أذوق الكلمة:

- نعم سيدتي، قاضي الجنوب ..



في خلال ساعات قليلة كان خير اختيار قاضٍ للنسالي قد انشر
بين أرجاء الوادي، وبين ملامح الخوف والحيرة نظر إلينا الجميع
كأنهم لا يصدقون ما يحدث .. استهان البعض بما فعله لكننا تجاهلنا
سخريتهم، ومع مرور ثلاثة أيام كان أربعة عشر شاباً متعلماً قد أعلنوا
استعدادهم لتصيروا قاضي الزواج، وهناك تركت لنا السيدة حريا

اختيار القاضي الذي نريده. اقترح أحد الشبان أن يُسمح لمن يتجاوز
عامة العاشرة منا بحق الاختيار سواء كان متعلماً أو لا، فوافقت
السيدة على ذلك الاقتراح ووافقنا نحن بدورنا ..

كان الأمر غريباً جداً بالنسبة لنا، أن نمتلك حق الاختيار أخيراً !!
وبين مشاعر مضطربة وأخرى حائلة قمنا باختيار شاب يُسمى
«سوار» ليصبح قاضينا الأول .. ثم أخبرته السيدة عن حديث الزواج
الذي طالما سمعت كبير قضاة المنصة يردده، وظلت تردده أمامه حتى
تأكدت من حفظه له بالكامل، ووضعت له أمامنا مسئوليته عن تسجيل
كل زيجات النسائي بدءاً من يوم الغفران التالي .. ثم حدثني عما
سنفعله بين أسوار الباحة.



نجمنا صباح يوم الغفران المنتظر .. كان عددنا يقدر بالعشرات
فتيناً وفتيات ونساء وأطفالاً .. تحركنا جميعاً سيراً على أقدامنا
إلى باحة جويدا. بيتنا حيدر وعروسه سبيل والقاضي الجديد سوار
والسيدة غفران .. كنت أرى ملامح التوتر على وجهها تزداد كلما
اقتربنا من الباحة، حتى أنها لم تنطق بكلمة واحدة بعد وصولنا إلى
مشارف جويدا، كنت أعرف ما تشعر به دون أن تقول ..

أخبرني سيدي ذات مرة عن تعلقها الشديد بالباحة منذ صغرها،
مددت يدي لأمسك بيدها محاولاً طمأننتها فأحسست برعشة جسدها
وهي تقبض على يدي .. ثم دلفنا إلى الباحة عبر البوابة الجنوبية،
كانت نظرات الأشراف إلينا تحمل الكثير من الدهشة بعدما دلفنا

بهذا العدد الكبير كجماعة واحدة وهو ما لم يحدث من قبل. لاحظتُ كذلك نظراتهم الأكثر دهشة إلى السيدة غفران وكأنهم ظنوا أنها ماتت بعدما لم تزر الباحة طوال السنوات الماضية ..

وقفنا في الجزء الجنوبي الشرقي للباحة في صفوف دائرية من النسائي فقط، يتوسطنا الشاب وعروسه وبجوارهم القاضي الشاب سوار .. ثم بدأت احتفالات المنصة وانشغل الجميع معها، حاول بعض أشقياء الأشراف ورجاء الأمن التحرش بنا، لكننا تماكنا أنفسنا ولم يفقد أي منا أعصابه أو يقوم بعمل يُوجب اعتقاله ..

إلى أن انتهت الاحتفالات، وبدأ كبير القضاة يردد حديث الزواج إلى شاب شريف وفتاة على المنصة، في ذلك التوقيت أشارت السيدة غفران برأسها إلى سوار كي يبدأ حديثه إلى عرسانتنا .. وبينما كان المعتشدون ينظرون إلى المنصة في انتباه شديد، كانت أعيننا مُعلقة بما يحدث بيننا، وشفاه سوار التي كانت تردد كلمات لا نسمعها من الضجيج، وشفاه حيدر وعروسه اللاتي تردد هي الأخرى ما يقوله قاضينا الجديد، حتى انتهيا قبل أن ينتهي القاضي الكبير على المنصة. فأطلقت إحدى الفتيات زغرودة طويلة اندهش منها المحيطين بنا من أشراف چارتين، والذين لم يعتادوا من قبل سماع زغاريد النسائي قبل مراسم الإعدام ..

حاولنا أن نكتم ضحكائنا، لكننا لم نستطع، وضحكنا جسيماً واحتضن بعضنا البعض في سرور شديد، وارتسمت البهجة على وجوهنا ونحن ننظر إلى العروسين، لتغمرهم أعيننا بالمباركات دون أن ننطق أحداً أو يفهم غيرنا من أشراف چارتين ما يدور بيننا،

ثم دوت الموسيقى على المنصة فلم نجد أنفسنا إلا ونحن نترقص
ونحتفل ونضرب الأرض بأقدامنا في غير اهتمام بما تحمله نظرات
الأشراف إلينا، وبينما نحن نترقص وتدوي السفنة نسائتنا بزغاريدها
في فرحة عارمة نظرتُ إلى سيدتي. لأجد أن وجهها قد تبدل وصار
أكثر احمراراً وهي تحدق بعيداً نحو طفلٍ قد يبلغ الثامنة، كان يتشبث
بشدة عمود مرتفع للغاية على جانب الباحة .. قبل أن تتخطى الحشود
مسرعة في اتجاهه.



(٢٢)

«غفران»

كان كل شيء يحدث كما خططنا له دون أن يدري أحدٌ من شرفاء،
جارتين بما يدور بيننا. إلى أن انتهى سوار من ترديد حديث الزواج
للشباب وعروسه، وبدأ النسائي من حولي في إطلاق زغاريدهم
والترقص على أنغام موسيقا المنصة، حتى ازدادت الهمهمات
المتعجبة من حولنا ..

وبينما كنت ألفت لأرى أن كل الأمور كانت تسير على ما يرام، حتى
جمدت حواسي جميعها حين لمحت عيني بعيداً .. العمود المرتفع ذاته
على الجانب الغربي من الباحة، يتشبه فوقه طفلٌ بالطريقة ذاته
التي كان يتشبه بها نديم، وقتها ابتلعت ريشي في صعوبة، ونظرتُ
بعيداً بعيني إلى المنصة في ذهول، ثم عدتُ ببصري إليه بعد لحظات
تعنى فيها داخلي أن تكون عيني قد أخطأت ..

كان الطفل لا يزال موجوداً بالفعل. فتسارعت أنفاسي، لم تكن
خيالات صنعها عقلي. لأشعر أن كل شيء توقف من حولي، لا أصوات.

٢ مهمات، لا حركات، فقط كان وحده الاضطراب الذي بدأ يمصف بداخلي .. ظللتُ أنظر نحوه، وبسرعة البرق دار برأسي ما حدث بيني وبين نديم من المرة الأولى التي رأيته بها يتعلق على قمة ذلك العمود حتى المرة الأخيرة التي شقَّ فيها خنجري عروق رقبتة على المنصة ..

كانت المرة الأولى التي يشعر فيها جسدي بالبرودة إلى هذا الحد، حاولتُ أن أتمالك نفسي، والتفتتُ إلى الفسالي الراقصين من حولي لعلني أنشغل بهم، لكنني وجدتني أنظر إليه مجددًا .. قبل أن أندفع في اتجاهه تمتلئ عيني بدموعها التي سرعان ما تساقطت على وجنتي ..

كان قلبي يدق مسرعًا وأنا أمرُّ بين المتراحمين وعيني مُعلقة به، ثم نالت موسيقا المنصة كأنها تقول لي اركضي، اركضي .. فركضتُ بين العنشين يردد لسانني كلمات الاعتذار كل ثانية مع كل ارتطام لي بأحدهم .. كان الأمر يزداد صعوبة كلما اقتربتُ من منتصف الباحة، حاولتُ أن أمر بين الواقفين هناك لكنهم تعمدوا ألا يفسحوا لي طريقًا .. ظن أغلبهم أنني نسلية مع ذلك الفستان الذي كنت ارتديه، وعندما تحققوا أنني هي غفران فتاة المنصة القديمة تنحوا عن طريقي مهممين كي أمر، لكن الألوان كان قد فات ..

رأيتُ الطفل ينظر أسفله، قبل أن ينزلق هابطًا ويترك مكانه، سرختُ نحوه في يأس؛ انتظر، أرجوك .. وثابتتُ تقدمي إلى الجهة الغربية، حتى وصلتُ لاهثة إلى أسفل العمود، لم أجد له أثرًا .. سألتُ بعضًا من الشبان الواقفين على مقربة منه إن كان أحدهم قد رأى الاتجاه الذي ذهب به الطفل الذي كان يرتقي قمة ذلك العمود، نظروا إلى هيئتي متأففين وصمتوا ..

صرختُ بهم، لم يكن ذلك وقتاً للدهشة .. لم يعيروني أي اهتمام.
وواصلوا انتباههم إلى ما يحدث على المنصة .. ظلمتُ أتلقت حولي بكل
الاتجاهات وداخلي يتمنى ألا يكون قد دخل بين المحتشدين، ثم تحركتُ
خطواتٍ إلى كل جهة خارج الباحة لأبحث عنه، لكنني لم أجده.

جلستُ مكاني وأسندتُ ظهري إلى سور الباحة الغربي وأغمضتُ
عيني التقط أنفاسي .. ثم سمعتُ صوت ريان ينادي إلي وهو يعبر
البوابة القريبة مني، فمسحتُ دموعي سريعاً بكم فستانني الأيمن قبل
أن يقترب. سألتني في قلق:

- هل أنت بخير سيدتي؟

قلتُ:

- نعم ..

ثم شرد ذهني .. ظل ينظر لي دون أن يقول شيئاً .. كان يدور في
عقلي حينذاك حديث السيدة بيان لي قبل سنوات عن نديم الذي فعل
الشيء ذاته الذي تميز به صاحب الروح الذي كانت تحبه، ثم قلتُ
لريان في ارتباك:

- هل كنت بالباحة يوم إعدام نديم؟

قال:

- نعم ..

قلتُ:

.. هل أطلقت أي نسلية زغرودة بعدها؟

قال دون تفكير:

- لا .. كانت روح سيدي نقية ، لم تذهب لأي طفل ..

ثم سألتني مجدداً:

- هل هناك خطب ما؟

قلت بصوت متعب:

- لم يكن عليّ المجيء معكم ..

ثم نظرتُ بطرف عيني إلى قمة العمود، وقلتُ لريان:

- هيا بنا .. لنعد إلى الوادي ..



في المساء كانت الاحتفالات بحانة الوادي في أوجها، جلس حيدر
اسبيل بتفيلان التهاني من غيرهم من الشبان، بينما قام العازفون
بعزف مقطوعات جديدة من الموسيقى، وجلستُ أنا وريان وناردين
بطلولتنا المعتادة، حاولتُ أن أنسى ما حدث بالصباح، لكنني لم أفلح،
وعلى ذهني مشغلتاً تماماً .. حتى أن ناردين سألتني هي الأخرى إن كان
منك خطابٌ بي، فhezزتُ رأسي نافية، وحاولتُ أن أرسم ابتسامتي
على وجهي لعلها تُظهر هزرتي بالزوجين الجديدين، لكن حواسي
خلفتني، وباءت محاولاتي للابتسام بالفشل، فأخبرتها أنني متعبة
قليلاً .. ثم نظرتُ إلى ريان الذي كان متهمكاً بالشراب، وسألته:

- هل تعرف أين دفن نديمي؟

أجابني:

- نعم بكل تأكيد، إنني من قمتُ بدفنه ..

قلتُ:

- أريد أن أذهب إلى هناك ..

قال وهو يضع كوبه على الطاولة:

- حسناً، سأتي معك في الغد ..

قلتُ:

- لا، أرجوك .. أريد أن أكون بمفردي، أخبرني فقط عن مكان

قبره ..

فقال متعجباً:

- حسناً ..

ثم قام بوصف لي موضع قبر نديم بين قبور النساء، بعدها بقليل هدأت الموسيقى، وهم حيدرو زوجته بالمغادرة إلى كوخهما، فهممتُ أنا الأخرى بالانصراف، وتحججتُ إلى الباقين بأنني مصابة بالإرهاق .. كنت في حاجة ماسة إلى أن أكون بمفردي ..

اتجهتُ إلى كوشي، وفي الطريق لم تمر لحظة واحدة من غير أن أفكر في طفل الباحة الذي ظهر لي فجأة، ثم وصلتُ إلى الكوخ، ولكني

لم أدلف إلى داخله، بل حملتُ المصباح الزيتي المعلق على جانب بابهِ الخشبي، وذهبتُ إلى مقابر النسالي .. كان قبر نديم الرابع بالصف الأول من ناحية الوادي على حسب وصف ريان، تأكدتُ منه بعدما وجدتُ الحجر الأملس المدسوس بطرف كومتِه منعوتًا عليه بخط يدوي رديء؛ «السيد نديم» .. قال لي ريان بالحانة أنه من كتبه، فجلستُ أمامه وضعمتُ ركبتي إلى صدري، ومكثتُ أنظر إليه .. لم أصدق أنها المرة الأولى التي أذهب بها إلى هناك بعد تسعة أعوام كاملة بالوادي .. بقيتُ صامتةً لفترة قبل أن أنطق بصوت هادئ:

- أعلم أنني تأخرتُ كثيرًا عن المجيء إلى هنا .. لكم تمنيتُ أن آتي إليك في أوقات سابقة، لكنني كنتُ أشعر بالخجل منك .. أتعلم؟ .. ذهبتُ إلى الباحة اليوم لأول مرة منذ افترقنا بها. اليوم تم زواج أول زوج من النسالي كما كنتُ تحلم، أردتُ أن أخبرك بهذا لأنني أعلم أنه سيفرحك .. هناك رأيتُ طفلًا يرتقي القائم الجانبي كما كنتُ تفعل دومًا في طفولتك، ظننتُ لوهلة أنه طفل نسلي يحمل روحك، وأسرعتُ إليه، لكنني لم أتمكن من اللحاق به، كما تعرف، الباحة مزدحمة على الدوام ..

ثم بدأتُ بعض دموعي تتساقط وأنا أقول:

- أعلم أن روحك لم ينلها أحد، لكنني تمنيتُ لحظتها لو كان ذلك قد حدث. تمنيتُ لو جاءتني فرصة لأكفّر بها عما حدث مني ..

ثم زاد بكائي واهتزتُ شفتاي:

- أعلم أنك غاضبٌ مني، لا تطيق وجودي هنا، لكنني أموت كل يوم كلما تذكرتُ ما فعلته .. أتعلم، لو عاد بي الزمن لم أكن لأفعل ما فعلته أبداً، ولجئتُ معك إلى هنا لتكمل سويًا ما بدأته قبلي ..

ثم ابتسمتُ وأنا أبكي:

- كان سيصبح لدينا أطفال في عمر السابعة أو الثامنة يلعبون ويصرخون ..

ثم أغمضتُ عيني وذهب خيالي بعيداً إلى كوخ صغير يلعب الأطفال بحوشه، طفل صغير وطفلتان، بينما أقف أنا ونديم بناهضة كوخنا ننظر إليهم وعلى وجهينا ملامح السعادة ..

قبل أن ندلف إلى الداخل ونطلق الناهضة من خلفنا ويحتضنني ثم يتقبلني، فانتلفت صرخات أطفالنا الممتدة حين نبتعد عن أعينهم، فحاولتُ التملص منه لرؤيتهم فأمسك بي وواصل تعييلي، لكن صرخات الأطفال ظلت تتزايد، بل تداخلت معها صرخات أخرى وكان أطفال الوادي بانوا يصرخون كلهم تضامناً معهم ..

الأطفال الأشقياء، لا بد لي وأن أعاقبهم على صراخهم المستمر، فضحك حين رأى الغضب على وجهي، لكن سرعان ما تحولت نماير وجهي إلى فزع شديد عندما نظرتُ في عينيه وحدثتُ بهما، لم تكن هناك إلا أنسنة نيران مشتعلة، تعالت معها الصرخات الآتية من خارج الكوخ، لأدرك لوهلة أنها صرخات حقيقية تأتي من بعيد .. فتحتُ

عيني، وجددتني لا زلتُ أجلس أمام قبر نديم. بينما تأتي الصرخات المتواصلة من ناحية الوادي ..

وثبتُ من موضعي، وركضتُ في اتجاه الوادي .. صعدتُ مهرولةً الجبل الرملي الذي يفصل بين الوادي والمقابر، لأقف مكاني منسمره في زهول بعدما رأيتُ نيراناً عظيمة على امتداد بصري، تلتهم كوخي وبناء المدرسة ومحزن البضائع وبعضاً من الأكواخ المجاورة. بينما يركض الفتيان والفتيات صارخين يحاولون إطفائها بأواني المياه والرمال، ويحمل بعضهم من أصابتهم النيران .. على جانب بعيد كانت عربة لضباط الأمن تقف يشاهد ضباطها عمليات الكر والفر لمن يحاولون إطفاء النيران دون أن يحرك أحدهم ساكناً، أدركتُ ساعتهما أن جارتين لم تكن لتعمر زواج النسالي بتلك السهولة التي ظنناها أبداً ..



هبطتُ مهرولةً إلى الوادي أجرد أقدامي، واتجهتُ بارتباك شديد إلى البئر التي يملأ الجميع أوانيهم منها، هناك استوقفتني فتاة صرخت وهي تنظر في وجهي:

- إن السيدة بخير، السيدة بخير ..

فالتفت الجميع نحوي غير مصدقين أنفسهم، أدركتُ حينها أن الكثيرين قد ظنوا أن النيران التهمت الكوخ وأنا بداخله .. وسرعان ما بدلت ملامحهم اليائسة إلى حماسة شديدة، وخاصةً بعدما حملتُ

إنائي الممتلئ بالماء، وأسرعْتُ به ركضًا تجاه النيران، فحمل كل منهم إناءه، وواصلوا غمر النيران بالمياه والرمال ..

كان الحريق عظيمًا إلى حدٍ لم تكن أواتينا الصغيرة لتفعل معه شيئًا، لكننا لم نتوقف للحظة واحدة عن محاولات الإطفاء، وإخلاء الأكواخ القريبة التي لم تصلها النيران، وإخماد أي حريق صغير يشبُّ بأحدها قبل أن تأكله النيران بالكامل ..

ظللنا الليل بأكمله نحاول أن نطفئ تلك النيران، حتى تمكنا من إخمادها أخيرًا مع طلوع النهار. بعدما التهمت كوكبي والمدرسة ومخزن البضائع المخزنة وسبعة عشر كوخًا، بينهم كوخ حيدر وعروسه .. كانت الوجوه من حولي واجمة وهي تنظر في صمت إلى الدخان المتصاعد من الركام الأسود المغمور بالمياه، بينما لم تستطع الفتيات تمالك أنفسهن من البكاء.

لم يكن باستطاعتي أن أنطق بكلمة واحدة، ظللتُ أنظر إلى آثار الخراب فحسب، ثم فرت دموعي إلى خدي حين ارتطمت بقدمي بقايا كتاب محترق .. وجال في ذهني الكتب التي أحرقت جميعها ولم ينج منها كتاب واحد، ثم مسحتُ دموعي حين شعرتُ بيد تمسك بيدي .. كانت يد نارين، قالت:

- سيصبح كل شيء على ما يرام سيدتي ..

وأكملت:

- طالمًا أنتِ بخير، سيصبح كل شيء على ما يرام ..

أومات برأسي في يأس، ثم تذكرت عربة الضباط التي كانت تقف
بعيداً تشاهد ما يحدث لنا دون حراك، فقلتُ لها:

- أين ريان؟

قالت:

- إنه بالحانة، نُقل الكثير من المصابين إلى هناك ..

سألتها في لهفة:

- هل أصيب؟

قالت:

- لا أدري ..

لتجهت مسرعةً إلى هناك، كان اختيار الحانة مناسباً للغاية كونه
بعيداً عن مكان الحريق المختنق بالدخان، كما أن ردهتها الواسعة
كانت تكفي لجمع المصابين كلهم في مكان واحد .. حين وصلتُ إلى
هناك رأيتُ ريان يجلس مقرضاً بجوار أحد المصابين، ونهض حين
رأني، فالتقطتُ أنفاسي، واطمأن قلبي عندما وجدته سالمًا، ثم اقترب
مني وأخبرني أنه قسّم المصابين كل حسب إصابته، وأشار إلى ركنٍ
بعيد يرقد به عدد من المصابين وقال:

- هناك إصابات الحروق ..

وأشار إلى ركن آخر، وقال:

- وهنا الجروح، ممن أصيبوا أثناء الإطفاء ..

وأشار إلى الراقدين بمنتصف الحانة:

- وهنا لا نعلم ماذا أصابهم، ربما الاختناق .. لا أدري، لم أجد
جروحًا أو حروقًا بأجسادهم، لكنهم مريضون للغاية. ربما
نحتاج إلى طبيب ..

قلتُ:

- لن يرضى طبيبٌ من الأشراف بالمجيء إلى هنا ..

مز رأسه مصدقًا على كلامي. قيل أن يذلف إلينا شخصٌ غريب
أشمت الثمر واللحية، يحمل حقيبة قماشية صغيرة، ويقول:

- إنني طبيب ..

نظرتُ إليه في دهشة، لم أتذكر أنني رأيته من قبل في جويدا، ولم
يبدُ لي أنه من النسائي، لكن ريان صرخ إليه وهو يحدق به:

- إنني أتذكرك ..

ثم نظر إليّ، وقال في فرحة:

- إنه الطبيب الذي رافق أختي في المرة الأخيرة التي جاءت بها
إلى الوادي.



(٢٣)

«فاضل»

كان خطئاً جسيماً مني حين انتصفتُ إلى كلام ديما، ووافقتُ على مغادرتنا جارتين وهي في تلك الحالة السيئة من مرضها ..

ركبنا السفينة في اليوم السابع من يوم الغفران الذي حصدت به روحاً لجنينها، وبمجرد أن تحركت بنا إلى الشمال اشتد بها المرض بطريقة لم أكن لأتوقعها، وصار معدل نوبات التشنج التي تصيبها ضعف ما كان يحدث في وادي النسالي، حتى أن الخوف قد تسرب إلى المسافرين، وانتشرت الأقاويل بينهم بأن شيطاناً يسكن جسد تلك الفتاة، وطالبوا صاحب السفينة بأن يُعدها عنهم، فخصص لها غرفة ضيقة على مضض كنت أراها جيدة بعدما مكنتني من مرافقتها طوال الوقت بعيداً عن صحب المسافرين ..

في الأيام التالية باتت الأوقات التي تستعيد بها وعيها قليلة للغاية. ومع معدل النوبات الذي تزايد بصورة جنونية بدأت الأعشاب المهدئة في النفاد مني، وتزايدت شكوكي بأن هناك نهاية قاسية تنتظر الفتاة وجنينها ..

في اليوم العاشر استجعمتُ شجاعتي، ودلفتُ إلى ديماء. وأخبرتها
بضرورة إنهاء حملها وإنزال ذلك الجنين حفاظًا على حياتها .. لم
أكن أمتلك الأدوات الكافية للقيام بذلك على متن السفينة، لكنني
وجدتُ الأمر يستحق المجازفة، كان بادياً للغاية أنها لن تستطيع إكمال
الرحلة إلى الشاطئ الشمالي بذلك التدهور السريع، لكنها رفضت
رفضاً قاطعاً ..

تحدثتُ مع صديق بهذا الأمر، فتحدثتُ معها هو الآخر. فواصلت
رفضها، وظلت تردد باكية في تعب شديد:

- سنظل بخير، سنظل بخير ..

ظلم أجد سوى أن ألبى رغبتها، وأبقى برفقتهما أناولها في قلة حيلة
جرعات مخففة من الأعشاب كي تكفي ما تبقى من أيام. وتناوبتُ
أنا وصديق على مرافقتها بالغرفة والإمساك بها أثناء النوبات، حتى
استطعنا الوصول إلى شاطئ بني عيسى مع اليوم العشرين وهي
وجنينها على قيد الحياة، في أمر كان أشبه بالمعجزة ..



نقلناها سريعاً إلى الشاطئ، ثم أحضر صديق عربته وحصانه ..
سألته حينذاك أن ينتظرني، وذهبتُ للبحث بين البيوت الخشبية على
الشاطئ لعلّي أجد مكاناً يبيع أعشاباً مماثلة لتلك التي كنتُ أستخدمها ..
كنتُ أعلم أن هناك عشرة أيام أخرى تنتظرنا داخل صحراء بني
عيسى قبل الوصول إلى ذلك الوادي، وبغير تلك الأعشاب لن نتمكن
من الوصول بها حية إلى هناك ..

ظلمتُ أبحتُ وأسأل مَنْ يقابلني، لم أجد ذلك المكان الذي أريده،
 لكن أجد الأشخاص دلتني على سفينة كانت على وشك الإبحار، يبحر
 عليها الكثير من التجار ربما أجد بينهم تاجرًا للأعشاب، فصعدتُ
 إلى متن تلك السفينة راكضًا، وبالفعل وجدتُ هناك من باعني قدرًا
 كافيًا من الأعشاب التي أريدها مقابل ثلاثة قطع ذهبية. وعدتُ
 سريعًا إليهم لنبدأ رحلتنا إلى بني عيسى ..



في الطريق إلى بني عيسى سألتني صديق إن كنت أعتقد بأن
 مولودها سيولد سليمًا بعد كل ما أصابها، زمعتُ شفني وأجبتُهُ بأن
 وصولها لموعد الولادة بتلك الحالة المتدهورة سيكون معجزة أخرى
 في حد ذاته، ثم أخبرته بأنني سأذهب بها إلى العيادة الطبية التي
 كنت أعمل بها قبل ذهابنا إلى جارتين، هناك من الأدوات الطبية
 والأعشاب ما يمكنني من الاعتناء بها، غير أن داخلي كان يحمل سببًا
 آخر لم أكن لأخبره به ..

وصلنا بعد عشرة أيام إلى العيادة، استقبلني صالِح بدعشة كبيرة،
 ظن الفتى أنني عدتُ إلى بلدي، وما لبث أن استفاق من دهشته،
 فحضنتني مرحبًا بي، قبل أن يساعدنا في حمل ديماء وأغراضها إلى
 الداخل، أخبرته أنها ستبقى معنا حتى موعد وضعها بعد ثلاثة أشهر.
 لم يعارضني، وخاصةً بعدما أظهرتُ له خمس قطع ذهبية، وأضاف
 ضاحكًا:

- حسنًا، بات لدينا مريض أخيرًا، سأعد لها سريرًا بفرقة
 الأعشاب المجاورة لغرفة الكشف ..

بينما هم صديق بالمفادرة إلى وادي الفجر، وأخبرني أنه سيعاود
المجيء بين الحين والآخر، سألتُه إن كان محافظًا على وعده لي
بإرشادي إلى مَنْ يعرف الطريق إلى بلدي، أجابني بأنه سيحملني إليه
بمجرد أن تأتي ديمًا بطفلها إلى الحياة، وأضاف بلؤم وهو يمدُّ عنقه
من أجل الرحيل:

- على كل منا أن يفي بوعده أيها الطبيب ..



في خلال تلك الأسابيع حاولتُ الاستمانة بكتبٍ طبية قديمة وجدتها
أسفل سرير صالِح مغطاة بالأتربة، وقضيتُ لياليَ كثيرة أبحث بين
صفحاتها عن طرق لاستحضار خلطاتٍ من الأعشاب لعلها تفيد ديمًا
وتقلل عدد نوبات مرضها، لكن شيئًا لم يفلح ..

وأمام رغبتي الحتمية بإبقاء حملها قائمًا ظللتُ مكتوف الأيدي
أكتفي فقط بمتابعتها ومنايعة جنينها، بينما تكفل صالِح بالحفاظ
على تغذيتها الجيدة بقدر المستطاع .. الفريب في الأمر أن بابنا قد
طُرق في الشهر الثاني، وزارنا مريضٌ جديد، وبعد أيامٍ أخرى زارنا
مرضى آخرون، وكأن وجود تلك الفتاة بين جنبات عيادتنا الخاوية قد
أعاد إليها الحياة.

ظل صديق يتردد علينا على فترات، ومع مرور الوقت لم أر في عينيه
أنه بات يهتم بعياة ديمًا على قدر ما يهتم بحياة الطفل، أخبرته أنني
لا أتوقع أي تقدم بحالتها وإن كانت تعبر الأيام نحو موعد ولادتها،

هنأني بغير اكترات على المرضي الجدد، وغادر على أن يعود بعدها
بأيام ..



في الأسبوع الثاني من الشهر الثالث فوجئتُ بتحسّن الفتاة نسبيًا،
قلَّ معدل النوبات فجأةً وتباعد الوقت بينها رغم أنني لم أُعَبِّر شيئًا
من جرعات علاجي، حتى أن صالح أخبرني أنه يودُّ أن يركض بشوارع
بني عيسى ليخبر الجميع أن الفتاة الحبلَى قد تحسّنت قُبيل موعد
الولادة، يومها اقتربتُ منها، فنظرت إليّ متعبة، وقالت باسمة:

- كنت تريدني أن أقتله ١٩

ضحكتُ وقلتُ:

- يبدو أن النسائي يحتاجون إلى طب خاص بهم ..

أمسكت بيدي وقالت:

- كنت أعلم أنه سينجو ..

دبتُ على يدها وقلتُ:

- لقد اقترب موعد وصوله للغاية ..

ضحكت، غير أن تلك الضحكة لم تبقَ لأيام كثيرة .. فوجئتُ
بعدها بثلاثة أيام بصالح يوقظني بمنتصف الليل، ويخبرني مفزوعًا
أن نوبةً شديدة تصيب ديمًا .. وثبتتُ من نومي، وأسرعْتُ مهرولًا إلى
غرفتها، كانت النوبة قد انتهت مع وصولي إليها، لكن ملامحي سرعان

ما اضطربت حين وجدتُ صدرها قد توقف عن الهبوط والارتفاع قبل أن يتسرب اللون الأزرق إلى شفتيها.

خطفتُ سماعتي الطبية، وحاولتُ سماع دقات قلبها، لم يكن هناك شيء سوى السكون، نظرتُ بتوتر في عينها الفائرة ذات الحدة المتسعة، وتحركتُ بالسماعة إلى بطنها، كانت دقات الجنين السريعة لا تزال تدق، سألتني صالح مذهولاً بعدما رأى تعبيرات وجهي وحركاتي المنفصلة:

- ماتت؟

لم أجب، كنت أحاول التركيز على دقات قلب الجنين، قبل أن أُلقي بسماعتي إلى السرير بجانبها، وأركض إلى المطبخ الذي يعد به صالح طعامنا ومنه إلى غرفة الكشف المجاورة، وأعود إليها مسرعاً بسكين حاد وعدد من الآلات الجراحية كنت قد جمعتها في إناء واحد قبلها بأيام، قال صالح مذعوراً:

- ماذا تفعل؟

قلتُ وأنا أحرّك يدي اليسرى على بطنها الكبيرة لأحدد المكان الذي أغرس فيه طرف سكينتي:

- لا يزال الجنين حيّاً ..

ثم لامستُ طرف السكين لجلد بطنها بمحاذاة سبائني، قبل أن أشق بصله طبقاتها طبقة وراء الأخرى وصالح يقف بجانبني ينظر إليّ فحسب، حتى اندفع السائل المحيط بالجنين وأغرق الفراش من

أسفلها، فأسرعتُ بتوسيع الشق الذي صنعتُه، وأبعدتُ طرفيه بيدي بقوة، ليظهر الجنين أمامنا ..

أخرجتُ الجنين برفق، ومسحتُ بيدي السوائل التي تَبَلَّ جسمه، ظل صامتاً للحظات، طرقتُه طرقات خفيفة على ظهره، بينما واصل صالح نظراته الحائرة إليّ وإلى الطفل، قبل أن تنفجر أساريره عندما انطلقت أولى صرخات الطفل الباكية ليلتقط معها أول أنفاسه بهذه الحياة ..



أسرع صالح بتجفيف جسد الطفل وتدفئته، ولفّه داخل غطاء صوفي اعتاد أن يستخدمه بالأوقات الباردة، بينما مكثتُ أخيط الطبقة الخارجية من بطن ديمًا باستخدام خيوط طبية أخبرني صالح أنها ظلت لسنوات بخزانة الأعشاب دون استخدام، ثم انتهيتُ، فسألني وهو ينظر إليّ وجه ديمًا:

- كان تحسنها الأسبوع الماضي صحوة الموت؟

قلتُ زامًا شفّتي.

- لا أعرف ..

قال:

- سأذهب في الصباح إلى شيخ الوادي لإخباره عن موت الفتاة ..

أومأت برأسي، ثم غادرنا غرفة ديمًا وصعدنا إلى غرفتنا بالطابق العلوي، قال صالح وهو يضع الطفل على سريري أنه لم يرَ في جراتي

بعدما اتخذتُ قرارِي بشق بطن الفتاة الميتة، كان غيري ليرثها
ويترك جنينها، قلتُ وأنا أتقصد الطفل:

- كُتبتُ له النجاة فحسب ..

قال:

- نعم ..

وتابع:

- سيفرح صديق بذلك ..

ثم ثنَّاب، وزحف أسفل فراشه وأغمض عينيه وكأن شيئاً لم
يحدث، أما أنا فجلستُ في سريري أنظر إلى الطفل بجواري، وأفكر في
صديق الذي سيصل في أي وقت لأخذ الطفل إلى وادي الفجر .. ثم مر
وقتٌ تقبلُ لم يتوقف به عقلي عن الضجيج، قبل أن أنهض وأهبط إلى
غرفة دوما مرة أخرى ..

أشعلتُ المصباح الزيتي، وقربتُه من سريرها، ثم كشفتُ بطنها
ليظهر جرحها الكبير أمامي، ثم بدأتُ أزيل الفرز الجراحية التي
قمتُ بغياطلتها قبل ساعة واحدة، وأبعدتُ يدي حافتي الجرح لأصنع
بينهما فجوةً كبيرة ..

ثم سحبتُ الفراش الملوّث بالدماء وماء الجنين من أسفلها،
وجذبتُ وسادة صغيرة كانت بجوارها، واستخدمتُ المقص الجراحي
لتمزيقها وإخراج حشوها المكوّن من قطع قماشية قديمة، ثم كوّنتُها

مع الفراش لأصنع كرة قماشية ذات حجم مناسب، ووضعتها بداخل
نجويف بطن الفتاة، وهمستُ إليها وأنا أقوم بحشرها:

- سامحيني أيتها الفتاة، أعطيتُك وعدًا بالحفاظ عليك وعلى
طفلك .. لم أستطع إنقاذك، لكن هناك فرصة لإنقاذ طفلك ..

ثم قربتُ حافتي الشق البطني، وقمتُ بخياطته من جديد لتمود
البطن إلى حجمها الكبير كما كانت قبيل موتها، ثم ألبستها ثوبًا
نظيفًا كان بين أغراضها، وحملتُها إلى غرفة الكشف المجاورة، وهناك
لففتُها بملاءة بيضاء .. ثم صعدتُ إلى غرفتي، وجلستُ على سريري
أنظر إلى صالِح النائم وأنا أحاول تماثلك أعصابي، ثم همستُ إليه
كي يستيقظ، تعجب مني، وسألني في تدمر بعين نصف مغلقة إن كان
هناك خطبٌ ما .. قلتُ:

- حين تذهب إلى شيخ الوادي لا تخبره بأن هناك طفلًا قد ولد

فرك عينه وتساءل باستغراب:

- لماذا؟

قلتُ:

- أخبره فقط أن الفتاة قد ماتت قبل وضعها ..

فاعتدل في جلسته وحاول أن يجمع ما أقوله له، فقلتُ:

- لا أريد أن يعرف أحد بأن جنين ديمًا قد نجا ..

قال:

- لكن صديق سيأتي لأخذه ..

قلت:

- سنخبر صديق بذلك أيضًا ، ماتت الفتاة وجنينها ..

فنظر إليّ وسكت ثم قال:

- لا أعلم ما الذي تفكر به ، لكن إن لم يحصل صديق على الطفل
لن يدلك على من يرشدك إلى بلدك ..

أومأت برأسي إيجابًا ، وقلت:

- أعرف ذلك ، لكنني لن أتترك هذا الطفل ليُباع للفجر .



«غفران»

ساعدنا الطبيب الذي ظهر لنا فجأة بالحانة في تضييد بعض الحالات، ثم تأكد من تعلمي أنا وريان كيفية تنظيف الجروح والحروق، فتركنا وذهب مع شاب آخر إلى جوار الوادي، وقال أنه سيبحث عن بعض الأعشاب التي قد تفيد المرضى وخاصة الذين أصيبوا بالاختناق..

ثم عاد إلينا بعد منتصف النهار، وأخرج من حقيبته أنواعاً مختلفة من الأعشاب، وقام بمضغ كل عشب على حدة قبل أن يخلطها بلحاء داخل أوان صغيرة أحضرها له فتى الحانة، ثم تنقل بين المرضى، وناول كلاً منهم مقداراً صغيراً من إحداها، ثم توجه إلى المصابين، وفكّ الضمادات التي وضعناها أنا وريان، ولطّخ الجروح بأعشابه المهروسة، ثم ضمدها من جديد، وقال:

- ستساعد هذه الأعشاب على تقليل الألم والتثام الجروح ..

لم نقل شيئاً، تركناه يفعل ما يراه، حتى انتهى، فجلس فبالتنا، كان الصمت والحزن يخيمان علينا جميعاً، ظل مشهد الحريق وملامع الخوف المنطبعة على وجوه النسالي يسيطرون على كل تفكيرى، ثم نطق ريان مقاطعاً لصمتنا:

- شكراً أيها الطبيب كنا في حاجة ماسة إليك ..

قال الطبيب في تواضع كبير:

- لم أفعل شيئاً .. سيكونون بخير جميعهم ..

صمتنا مرة أخرى، حتى تحدث ريان مجدداً:

- ما الذي عاد بك إلى هنا؟ .. هل حدث مكروه لديماء؟

قال الطبيب في حزن بعدما زَمَّ شفثيه:

- لقد ماتت ديماء منذ سنوات طويلة ..

وأردف:

- في العام الذي رحلنا به ..

انتبهت لحظتها إلى حديثهما، وأكمل الطبيب:

- بلغ مرضها حدّاً سيئاً للغاية مع حملها .. أخبرتها أنها في حاجة ضرورية إلى إنزال الجنين حفاظاً على حياتها، لكنها رفضت أن تجهضه .. ظلت حالتها تسوء يوماً بعد يوم، حتى فارقت الحياة قبل أيام من موعد ولادتها ..

كانت الدموع قد ظهرت بعين ريان، فوضعتُ رأسي بين كفي،
ونظرتُ في حزنٍ إلى الطاولة أمامي، قبل أن يتساءل إلى الطبيب
بصوت يخنقه الدموع:

- لماذا لم تردِ التضحية بجنين ميت؟

قال الطبيب بصوت هادئ:

- لم يكن ميتاً ..

سأله ريان على الفور في تعجب:

- هل جاءت إلى الباحة بيوم غفرانٍ آخر خلاف اليوم الذي
جنّتم به؟

قال الطبيب:

- لا.

وصمت برهةً، ثم تابع:

- أخضت ديمًا عنك يومَ كنا هنا أنها قد حصدت روحًا لجنينها ..

لحظتها رفعتُ إليه عيني في ذهول، وحدّثني به ريان كذلك، قبل أن
يحرك عينه إليّ وينظر في عيني، وكأن عقولنا قد عصفت بالشيء
ذاته.



(٢٤)

نطق ريان في لهفة بما لم استطع التلطق به:

- حصدت ديما روح السيد نديم لجنينها؟

قال الطبيب:

- نعم ..

وأردف:

- أخبرتني يومها أن الكثيرين وخاصة أنت يحبون صاحب الروح

كثيراً، وخافت أن يمنمها أحدكم من مفادرة الوادي ..

كان الذهول يسيطر على وجهينا، لكن ريان لم يستطع تمالك

أعصابه، وركل مقعداً أمامه بقدمه وصرخ:

- لماذا فعلت ذلك؟

ثم حمل المقعد وقذفه أرضاً فتهشم، قبل أن يلتفت إلى الطبيب في
زحف حين تابع حديثه في هدوء وقال:

- تمكنتُ من إنقاذ الطفل بعد موتها ..

وسأله وهو يحدّق به:

- أين هو؟



«فاضل»

كُنْتُ أَقِفُ عَلَى بَابِ غُرْفَةِ الْكَشْفِ عِنْدَمَا سَأَلَنِي صَدِيقٌ وَهُوَ
يَتَفَحَّصُ وَجْهَ جَنَّةٍ دِيْمَا:

- كَيْفَ حَدِثَ ذَلِكَ؟

قُلْتُ:

- نُوبَةٌ قَوِيَّةٌ مِنَ التَّشْنِجَاتِ لَمْ تَنْجُ مِنْهَا ..

نَظَرْتُ إِلَى جَسَدِهَا الْمَلْفُوفِ بِالْمَلَاءَةِ وَالْيَ انْبِعَاجِ بَطْنِهَا نَظْرَةً مَطْوَلَةً،
ثُمَّ غَطَيْتُ وَجْهَهَا، وَقَالَ:

- هَلْ أَبْلَغْتُمْ شَيْخَ الْوَادِي؟

قُلْتُ:

- نَعَمْ، ذَهَبَ صَالِحٌ لِإِبْلَاغِهِ ..

هز رأسه متأثراً وقال:

- كادت تفعلها ..

أومأت برأسي، ثم قلت:

- سيتولى صالح أمر دفنها بمقابر هذا الوادي ..

قال:

- افعلوا ما شئتم ..

وهم ليغادر، قلت:

- أريدك أن ترشدني إلى مَنْ يصحبني إلى بلادي ..

قال ما كنت أتوقعه:

- كان عليك أن تفي بوعدك ..

قلت:

- تعلم أنه لم يكن بيدي شيء ..

قال:

- كان وعدٌ ديمًا لك واضحًا، أن تعتني بها وبطفلها مقابل أن

أرشدك إلى مَنْ يعود بك إلى بلدك ..

قلتُ في تبرمٍ ساخر:

- لا وعد للفجر ..

نظر إليّ نظرة غاضبة شعرتُ معها أنه قد يلكنني، لكنه غنم
بكلماته، وأكمل طريقه مفادراً .. فأغلقْتُ الباب من خلفه، وتنصَّتُ
التصعداء .. بعدها بوقتٍ قليل عاد صالح من الخارج، وسألني على
الفور:

- هل أتى صديق؟

قلتُ:

- نعم ..

قال:

- ماذا قال؟

قلتُ:

- لا شيء، عرف أن ديما وجنينها قد ماتا، وتركني وغادر ..

قال:

- لم يشك بشيء؟

أومأت برأسي ناهياً، وقلتُ:

- هل وجدت المرأة التي أخبرتني عنها؟

قال:

- نعم ..

كان صالح قد أخبرني في ساعة مبكرة من اليوم عن امرأة وضعت
طفلاً منذ شهر بوادي مجاور من وديان بني عيسى غير وادي الفجر،
وقد نوافق على إرضاع الطفل مقابل بضعة من القطع الذهبية، أردف:

- أخبرتها أن أمه قد ماتت وأن أباه من أرسلني إليها. وأعطيها
القطع الذهبية التي أعطيتها إلي، سألتني عن اسمه، لم أدر ما
أقول، فقلتُ «آدم» ..

ابتسمتُ، فتابع:

- وأخبرتُ شيخ الوادي عن موت الفتاة وجنيثتها كما أخبرتني
.. سيرسل من يساعدني بنقلها إلى مقابر الوادي قبل غروب
الشمس ..

قلتُ:

- خير ما فعلت ..

قال وهو يجلس ليسترخ:

- ستبقى بوادينا إذا؟

قلتُ:

- يبدو أنه قدري ..

ثم تابعتُ:

- على كل حال، صار لدينا عددٌ جيدٌ من المرضى، يستحقون أن
أبقى من أجلهم ..

قال:

- والطفل؟

فكرتُ قليلاً، ثم قلتُ:

- لا أعلم بعد، لكنه سيبقى لدى المرأة حتى يتم رضاعته على أقل
تقدير، لا أحد يعلم بعدها ماذا قد يحدث ..

وتابعتُ في تردد:

- ربما أخذه معي إن سنحت لي فرصة للعودة إلى بلادي ..

قال:

- ليس لديك خطة واضحة بشأنه إذا؟

قلتُ وأجماً وأنا أنظر نحو جسد أمه المُغطى:

- نعم، لا خطة لدي.



مرت أيام أخرى كثيرة، تزايد خلالها عدد المرضى أكثر وأكثر بصورة لم أكن أتوقعها، وصرتُ أنال مقابلًا جيدًا للغاية. خصصتُ منه جزءًا للسيدة التي تولّت تربية الطفل .. وبين حين وآخر كنت أتردد إليها من أجل الاطمئنان عليه .. كنتُ واضحًا للغاية مع نفسي. أنني لم أكن أستطيع الاعتناء به كما وجدتُ تلك المرأة تفعل، فمرستُ عليها أن تكمل تربيته بعد إتمام رضاعته مقابل استمرار ما أدفعه لها..

مع مرور الأيام زادت ثقة الكثيرين من أهل الوديان بي، وصرتُ معروفًا بينهم بطبيب الوادي، ومع ذلك لم أجد قط من يوافق على اصطحابي إلى السكة الحديدية، حتى أدركتُ نهاية المطاف أنني سأقضي حياتي هناك ..

لم أرَ صديق منذ آخر مرة رأيته فيها، وترك صالح المعيشة معي وتزوج ببيت صغير مجاور، وبات يتردد على العمل نهارًا فقط .. أما أنا فمكثتُ أقضي أيامي بين المرضى والوادي المجاور مع آدم .. كانت مُربيته امرأةً سالحة، لطالما جلستُ معها نتحدث بشأنه، كانت تحدثني دائمًا عن رفضه التأقلم مع باقي أطفالها، وعن ذلك الحزن الدفون الذي تراه في أعينه، أو كما كانت تقول؛ شعور دائم بالغربة يُنَلِّف كل أطفاله رغم صغر سنه ..

كنت أخبرها كل مرة أن موعد استعادته منها قد اقترب، أيام قليلة فحسب، لكن الأيام صارت شهورًا، وتلاصقت الشهور وصارت

سنوات، لأجده قد بلغ التاسعة من عمره في غمضة عين، دون أن يعرف
داخلي أبدًا خطوتي الجديدة بشأنه ..

إلى أن جاء ذلك اليوم حين دلفت إلى العيادة فناءً مريضة كانت
تعاني من ألمٍ حادٍ ببطنها، وعندما شرعتُ في فحصها توقفتُ شاردًا
بعدما لمحتُ ذلك الوشم على كتفها الأيسر، وقلتُ متمجّبًا:

- نسليّة ١٩

قالت:

- نعم ..

أخبرتها أنني زرتُ جارتين من قبل، سألتني عن سبب زيارتي، لم
أخبرها عن ديماء، وقلتُ أنها كانت زيارةً من أجل الإطلاع فحسب،
نحدثنا عن النسالي، قالت في فرحة بأن تغييرًا كبيرًا قد حدث بين
فتيان وفتيات النسالي خلال السنوات القليلة الماضية بعد قدوم ما
أسمته السيدة غفران إلى واديهم .. وأنها لم تأتِ إلى بني عيسى إلا
من أجل بيع بعض من بضائعهم، لكنها شعرتُ بالألم مفاجئ فأخبرتها
امرأةً عني، سألتها وأنا أحاول تذكر اسمه:

- هناك شاب يُسمى ريان، ما زال على قيد الحياة ١٩

قالت:

- نعم، مساعد السيدة، إنه أكثرنا براعةً في تعليم الصغار،
القراءة والكتابة ..

ابتسمت في دهشة، وقلتُ:

- قابلته من قبل، كان وقتها يبلغ خمسة عشر أو ستة عشر عامًا ..
لكني لم أتوقع أنه لا يزال على قيد الحياة، لطالما سمعتُ أن
القليلين من فتیان التسالي من يستطيعون النجاة من منصة
جارتين بعد بلوغهم ..

قالت:

- إنه شابٌ صالح، الجميع يحيونه هناك ..

كدتُ أخبرها في تلك اللحظة من طفل ديمًا، لكنني أمسكتُ بلساني
وترجعتُ. لم أكن أمتلك الثقة الكاملة بها لكونها نسلية .. وتركتُها
تتأدر بعدما انتهينا، ثم وقفتُ بالنافذة أراقبها وهي تسير تجاه فتاتين
أخريين كانتا تحملان أحمالاً مُغطاة بالقماش فوق رؤوسهن، ثم
حلت هي الأخرى حملها، وقتها دلف إليّ صالح يخبرني بأن هناك
مريضًا آخر في انتظارِي .. لم أنتبه إليّ ما يقوله، وظللتُ شاردًا وأنا
أراقب الفتيات وهن يبتعدن، حتى غبن عن نظري، فتمجّب حين طال
شرودي، وسألني إن كان هناك خطبٌ ما، فالتفتُ إليه، وقلتُ:

- سأعود بآدم إليّ جارتين ..



دَلَّنِي صَالِحٌ إِلَى أَحَدِ الرِّجَالِ الَّذِي اصْطَلَحَنِي أَنَا وَأَدَمُ إِلَى شَاطِئِ
بَحْرِ أَكْمَا، وَهَنَّاكَ رَكْبَنَا السَّفِينَةَ الْمَتَّجِةَ إِلَى جَارَتَيْنِ كَمَا فَعَلْتُ مَعَ أُمِّهِ
وَصَدِيقٍ قِيلَ تَسَعُ سَنَوَاتٌ .. كَانَتْ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي أَبْقَى بِيهَا مَعَ الطِّفْلِ
لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، لَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ كَثِيرًا، فَتَرَكْتُهُ يَتَجَوَّلُ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ،
وَبَقِيْتُ أَرَاهِقُهُ مِنْ بَعِيدٍ ..

كَانَتْ السَّفِينَةُ تَحْمِلُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَسَافِرِينَ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يَرْتَدُّونَ
ثِيَابًا مُتَقَارِبَةً، فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَفْرِيقَ أَهْلِ جَارَتَيْنِ عَنِ النَّسَالَى، غَيْرَ أَنَّنِي
لَمَحْتُ الْفَتَاةَ النَّسَلِيَّةَ الَّتِي جَاءَتْ بِي مَرِيضَةً قَبْلَ أُسْبُوعَيْنِ، وَحِينَ رَأَيْتِي
اقْتَرَبَتْ مِنِّي مُتَعَجِبَةً، وَسَأَلْتَنِي عَنْ سَبَبِ ذَهَابِي، ضَحَكْتُ وَأَخْبَرْتُهَا
كَاذِبًا أَنَّنِي أَوْدَ الذَّهَابَ بِطِفْلِي إِلَى جَارَتَيْنِ مِنْ أَجْلِ مُشَاهَدَةِ يَوْمِ
الْفُجْرَانِ .. تَحَدَّثْنَا كَثِيرًا، حَدَّثْتَنِي بِتَفَاصِيلِ أَكْثَرِ عَمَّا يَدُورُ دَاخِلَ وَادِيِ
النَّسَالَى فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَعَنِ انْتِصَافِ أَغْلَبِيَةِ الْفَتَيَاتِ عَنْ مَعَارَسَةِ
الرِّذِيلَةِ، ثُمَّ أَحْصَرْتُ لِي بَعْضَ الْبِضَائِعِ الَّتِي لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْ بَيْعِهَا لِتَوْكُدَ
كَلَامَهَا، وَدَدْتُ لَوْ اشْتَرَيْتُ مِنْهَا، لَكُنْتُ لَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ
مِمَّا تَبَيَّهَ ..

أَتَذَكَّرُ حِينَ عَبَرْنَا بِمَحَاذَةِ جِدَارِ جَارَتَيْنِ الْعَظِيمِ قَامَتْ هِيَ وَمَنْ
مَعَهَا مِنْ فَتَيَاتِ النَّسَالَى بِكَشْفِ أَكْتَافِهِنَّ لِتَبْدُو أَوَّاشِعِهِنَّ ظَاهِرَةً
لِلْغَايَةِ. كَمَا قَامَ الْفَتَيَانِ بِخَلْعِ سُرْتَرِهِنَّ، لَتُظْهَرَ أَوْشَامُ صُدُورِهِنَّ .. فِي
تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَقَطْ اسْتَطَعْتُ مَعْرِفَةَ مَنْ هُمُ النَّسَالَى مِنَ الْمَسَافِرِينَ
وَمَنْ هُمْ غَيْرُ ذَلِكَ، قُلْتُ لِأَدَمَ بَعْدَمَا رَأَيْتُهُ يَحْدِّقُ شَارِدًا نَحْوَ الْجِدَارِ:

.. إنه بلدك ..

واصل نظراته إلى الجدار كأنه لم يسمعني .. ثم ظهرت في اليوم التالي بيوت القرية الجنوبية والجبال الحمراء المطلة على البحر حين اقتربنا من الميناء الجنوبي، ولما رست السفينة كانت حالة الهرج والمرج شديدة للغاية بسبب التزاحم الكثيف .. فأمسكتُ بيدِ الطفل جيداً، وهبطنا بحذرٍ إلى الزحام الذي ينتظرنا، وبينما كنتُ أتلفت لأبحث بعيني عن الفتاة النسلية كي أخبرها في تلك اللحظة أنني سأذهب معها إلى وادي النسالي، فوجئتُ بصوت البارود وصداه يصمُّ أذاننا ..

كان ضابطُ شاب من ضباط الأمن يصوبُ سلاحه الناري إلى السماء، ويطلق طلقاته واحدة تلو الأخرى دون توقف، فهذا ضجيج المتزاحمين وقتها .. توقفتُ مما يحدث أمامي أن هناك من سرق ماله، ومن ثم سيبدأ ذلك الضابط ومن معه بتفتيش المسافرين .. في هذه اللحظة لمحتُ الفتاة، كانت تقف على بعد أمتارٍ مني، تنظر نحو الضابط ويرسم الخوف على وجهها، ثم تقدمنا قليلاً إلى الأمام ..

لاحظتُ أن الضابط يسمع بمرور أشرف جارتين دون تفتيش وستوقف النسالي فقط، قبل أن يصفع وجه النسلي الذي يستوقفه حتى يخطو أمامه، ثم يقوم بتفتيشه بعنفٍ شديد. وإن رفع رأسه لا يناخر عن ضربه بعصاة قصيرة كان يمسك بها، أو كل جسده بقوة ..

ظلُّ يفتش النسالي واحداً تلو الآخر دون أن يُبدي أيٍّ منهم اعتراضه على الطريقة المهينة التي يستخدمها، ثم جاء دور الفتاة،

جثت على ركبتيها بينما قام الضابط بتفتيشها، وحين رفعت عنها
إليه أمسك بشعرها بقوة، وقام بصفع وجهها صفعاً أجفل منها
جسدي من شدتها، ثم كرر الأمر دون أي مبرر .. جال في ذهني
وقتها أنه يقوم بتأديبهم بعدما وشى عليهم أحد الأشراف لأنهم أغفروا
أوشامهم خارج جارتين، لكنها كانت مجرد أفكار برأسي ..

واصل الضابط صفعه للفتاة حتى سالت الدماء من وجهها دون
أن يتحرك أي أحد للدفاع عنها، بقي الجميع في أماكنهم ينتظرون
دورهم، حتى فوجئنا جميعاً بذلك الحجر الذي صوب بقوة ودقة
بالتين تجاه وجه الضابط، فهبط على ركبتيه مُمسكاً بأنفه في تألم
واضح، بينما بدأت الدماء تنساب دون توقف من بين أصابعه .. ثم
رفع عينيه النافقتين تجاهي، لم يكن ينظر إليّ ..

كان ينظر إلى آدم الذي وجدته قد ترك يدي، ووقف على بُعد
خطوتين مني يحمل حجراً آخر، وينظر متأهباً نحو الضابط في تحدٍ
شديد، قبل أن يصرخ الضابط غاضباً، وينهض ليركض بعصاه تجاه
آدم، ومعه بعض الضباط الآخرين، فصوب الطفل حجراً الثاني نحوه.
ثم ركض مبتعداً إلى الزحام ..

وبينما طوّقنا عددٌ من رجال الأمن الآخرين وأرغمونا على
الجلوس مقرّفين واضعين أيدينا فوق رؤسنا، ظلمتُ أنظر إلى
الطفل وهو يركض بين المتراحمين ويرأوغ ضباط الأمن واحداً وراء
الأخر في براعة شديدة دون أن يستطيع أحد الإمساك به، حتى انخفض

عن نظري. فوقفْتُ بينَ الجالسينَ لرؤيته، فقام أحد الضباط بضربي
بعضاً بقلطة كي أهبط على ركبتيّ مجدداً، لكنني واصلتُ وقوفي
وتعديفي نحو آدم وهو يواصل مراوغته للضباط، حتى ابتعد عن
أقرب الضباط إليه بمسافة كافية، ليكمل ركضه مبتعداً دون أن يلتفت
خلفه.. وقتها أيقنتُ أن ذلك الطفل قد وجد موطنه أخيراً.



(٢٥)

«غفران»

أكمل إلينا الطبيب بأنه أعتقل بين كثير من النسالي بعدما لم يتمكن
الطبباط من اللحاق بالطفل، وكعادة المعتقلين قبيل أيام الغفران، لم
يكن يُنظر في أمرهم حتى الانتهاء من مراسمها، ثم أطلق سراحه
في اليوم الثاني من يوم الغفران لكونه غير نسلي، وجاء إلينا ليخبرنا
بأمر ذلك الطفل آملاً أن يجده قد عرف طريقه إلينا، سأله ريان:

- هل كان يحمل وشماً؟

أجاب الطبيب:

- لا ..

سأله مجدداً:

- هل حدثته عن كونه نسلي؟

قال الطبيب مرة أخرى:

- لا ..

فأخرج ريان زفيره. وقال:

- فقدناه للأبد ..

كنتُ أستمع إليهما فحسب، لم أستطع أن أنطق بشيء، ما كان
يجول في ذهني هو شيء واحد فقط، أن ذلك الطفل هو نفسه الطفل
الذي رأيته يتشيت بقائم الباحة، لكنني نظرتُ إلى الطبيب وقلتُ في
النهاية وأنا أحاول أن أظهر ثباتي أمامهما:

- أريدك أن تبقى بيننا حتى يكتمل شفاء المصابين، لن يرضى
أي طبيب جارتيني بالمجيء إلى هنا، أستطيع أن أوفر لك
مقابلاً عن المدة التي تبقى بها بيننا ..

فنظر إلى المصابين الراقدين، وهز رأسه موافقاً.



دبر ريان للطبيب كوخاً بجوار الحانة للمبيت به، وكذلك فعل
لي، لم نتحدث كثيراً تلك الليلة عما حدث لأكواخنا، وآثرتُ أن نخلد
إلى الراحة ليلتها بعدما أصاب الإجهاد جميعنا، وتركهم وأويتُ إلى
فراشي .. لم يمهل حديث الطبيب لعقلي وقتاً كي أفكر بما حدث لكوخي
والأكواخ المجاورة، ظل تفكيري يضخ مضطرباً بكل كلمة نطق بها، إلى
أن حدثني نفسي بالألا أتملق كثيراً بأمل زائف. الطفل وقد فُقد. وإن

عاد إلينا لن يتذكر شيئاً، مثله مثل النسالى، هم أناس مختلفون تماماً
عن أصحاب الروح القديمة، لكل واحد منهم حياته الجديدة التي نشأ
عليها.

تعميتُ لو قبل الطبيب أن يبقى بيننا مدةً أطول، لا من أجل المضرر
فحسب، كان داخلي يودُّ أن يقول بأنه الوحيد الذي يعرف الطفل، لكني
لم أكن لأجرؤ بأن أطلبه بذلك الأمر صراحةً .. ثم غلبني النوم، وله
استيقظ إلا مع ظهيرة اليوم التالي، لأجد نازدين في انتظارى ..
تجبتُ من تركها لي نائمة كل ذلك الوقت، قالت أنها وجدتني متعبة
للفاية، ولم تشأ أن تزعجني ..

توجّهت لاحقاً إلى ريان، كان هو والطبيب يتفقدان أماكن الحريق.
بينما يقوم باقي هتيان وهتيات التسالى بإخلاء الأرض من البقايا
المحتركة .. ثم تركنا ريان وانضم إليهم، وبقي الطبيب بجوارى. قال:

- سمعتُ كثيراً عما دار في هذا الوادي على يديك ..

قلت:

- إنهم يستحقون حياة أفضل مما كانوا يعيشونها ..

قال:

- رأيتُ معاناتهم على أيدي ضباط الأمن بالميناء الجنوبي،
وكذلك بين جدران السجن عندما أُعْتُقِلْتُ لأيام، ثم قال وهو
ينظر إلى آثار الحريق:

- شرفاء جاريتين من فعلوها ١٩

مزرتُ رأسي إيجاباً، فقال:

- هل توقعتُ أن يحدث ذلك؟

قلتُ:

- نعم ..

وأردفتُ:

- قلَّ عدد مرتكبي الجرائم من النسالي بصورة ملحوظة، وقلَّ معه إعدامات يوم الغفران، كانت تلك الإعدامات تُضيف نوعاً من الإثارة والمتعة لمراسم اليوم، ويظل الحديث عنها مستمراً لشهر كامل حتى يوم الغفران الذي يليه، نوعٌ من إلهاء العامة من أشراف جاريتين .. لكن مع فقدان تلك الإثارة سينتبه الناس قليلاً إلى سادتهم. ومتى انتبه الناس إلى سادتهم لن يهنا السادة بتوهم مريح أبداً ..

ذمَّ الطبيب شفتيه، وقال:

- تحليل مقنع ..

قلتُ:

- هناك سببٌ آخر قد يكون أكثر أهمية في هذا التوقيت ..

وتابعتُ وأنا أنظر إلى فتاة تحمل بعض الأخشاب المتفحمة:

- قُلْتُ الرذيلة بدرجة كبيرة بين فتيات النسالى، كان معظمن
يُجبرن عليها من أجل المال، أما الآن فصرن يعملن ويعجن
أموالاً مقابل صناعتهن ..

- سمعتُ أن بيوت الرذيلة قد بدأت تلجأ في الخفاء إلى نساء
شريفات، وهذا ما لن يرضى به أبداً رجال چارتين، أن تُجر
نساؤهم إلى باحة جويدا لعلّة الرذيلة، أو تحمل نساؤهم بأجنة
غير شرعية تنال روح المعدمين من النسالى ليصيروا مثلهم
.. كان الحريق مجرد بداية فقط، هناك المزيد قادم ..

ثم لحتُ حيدر وعروسه يعملان مع بقية الفتيان في إزالة انقاض
الحريق عن كوخهما، فقلْتُ للطبيب:

- إنهما عروسان، كان عرسهما بالباحة أمس ..

ضحك وقال:

- لقد فاتني أول زواج بين النسالى إذّا ..

ثم تساءل وهو ينظر إليهما:

- ماذا سيكون مصير طفلهما إن حملت؟ .. هل ستضطر

للذهاب إلى الباحة من أجل حصد روح له؟

قلتُ:

- لم تذكر القواعد ذلك، اختصت أرواح الباحة طبقاً لقواعد
جارتين بالأطفال الناتجين عن الرذيلة فقط، أما طفلهما
فسيكون ناتجاً عن زواج شرعي، ثم سكتُ وقلتُ:

- لستُ متأكدة مما سيصير، لم يحدث شيء كهذا من قبل، لكن
دعنا ننتظر لوقتها ونر ..

فقال بصوتٍ ينضح بالبهجة:

- أطفال شرفاء من نسل الفسالي، يا للروعة ..

فابتسمتُ وقلتُ:

- أتمنى أن يحدث ذلك ..

سكننا لوقتٍ قصير، وواصلنا تجوالنا بين الأنقاض، إلى أن نطق
الطبيب:

- كنتُ بالباحة يومها، ارتطمتِ بي وأنتِ تفادرين هائمة بين
الحشود ..

ابتسمتُ بعمارة وقلتُ:

- صدق القائل بأن هناك لحظة ما لا تعود الحياة بعدها كما
كانت قبلها أبداً، اتخذتُ قراراً خاطئاً يومها ندمتُ عليه حياةً
بأكملها ..

قال:

- في الأوقات الحاسمة ينبع القرار من أفكارنا الراسخة داخل عقولنا، أعتقد أن حديث من حولك عن النسالة على مدار سنوات نشأتك قد أثر عليك حين اتخذت قرارك وقتها .. نتراكم الأفكار بداخلنا على مدار سنوات طويلة، لنتحكم بنا كلياً في اختياراتنا بالأوقات الحاسمة، لكن سيظل الإنسان عاجزاً عن تغيير قدره أبداً، كان مُقدراً لك أن تكوني هنا ..

قلتُ:

- نعم، إنك محق ..

وواصلنا حديثنا ونحن نتجه إلى الحانة حيث قام هناك بمحضر جروح وحروق المصابين، واطمأن على من أصابهم الاختناق. وسمع لبعضهم بالانصراف لمواصلة حياتهم بعدما أخبرني أنهم بانوا على ما يرام .. ثم جلس على مقعد بجواري، فقلتُ:

- ظللنا سنوات طويلة نعتقد أن روح نديم قد ارتاحت للأبد ..

قال:

- لو لم أكن هناك يومها لما صدقت أن الروح تنقل من الأساس. لكني رأيت ذلك بعيني .. ما زلتُ أتذكر ذلك المشهد جيداً، حين بدأت دقات قلب الجنين في النبض ..

ثم تابع ضاحكاً:

- لو رأيت نظرة التحدي بأعين آدم حينما أهان الضابط
النسالي لقلت أن ذلك الطفل قد عرف أنهم عشرته. وإن لم
أخبره يوماً عنهم ..

قلت:

- رأيت تلك النظرة في عين نديم من قبل، كاد يقدم نفسه
إلى الإعدام يومها، لولا تدخلتُ بينه وبين الضابط في الوقت
المناسب ..

ثم أكملت:

- أخشى فقط أن يمسك الجنود بالطفل، إنه لا يمتلك وشماً.
وبالطبع لن يعترف به أي شريف جارتيني، تشدد القوانين على
ذلك الأمر خشية أن يختلط النسالي بالأشراف ..

إن أمسك به أحد الجنود سيُسجن رغم عمره الصغير، وإن
لم يُثبتَ انتماؤه لأي عائلة شريفة خلال شهر سبنال وشماً
على صدره، ليُطلق للعراء مجدداً متى يشاءون .. أتذكر قصة
أخبرتني بها زميلتي بالمدرسة العليا عن نَمِيلة لم تؤشَمَ ابناً.
فأمسك بها وأعدمته. ونال طفلها وشماً، وأطلق سراحه بعدما
تمَّ السادسة عشر، ليُعدم على جريمة قتل بعدها بأسبوع
واحد ..

قال:

- إنه ذكي للغاية، لن يستطيع أي شرطي الإمساك به ..

قلت:

- أتعنى ذلك ..

ثم دلف إلينا ريان مع حلول المساء، وقال:

- انتهينا من إخلاء الأرض من البقايا المحترقة، وسنبداً غداً
في صناعة الطوب من طمي التلال .. سنبني أكواخاً ومدرسةً
أكثر اتساعاً مما احترقت ..

ابتسمت وقلت في حماس:

- لنفعل ذلك إذا ..

قال فريخا:

- هناك شيء آخر أود أن تريه ..

ثم حمل مصباحاً مشتعلاً كان على طاولة أخرى، وسألنا أن
نتحرك معه إلى كوخ مجاور للحانة .. ثم دلف بنا إلى داخله، وهناك
أشعل المزيد من المصابيح، لأجد أمامي عددًا من المقاعد الخشبية
الدرسية متراسة في تكديس فوق بعضها، وبأحد أركان الكوخ تراكت
أكوام من الكتب حتى كادت تصل إلى سقفه، فتساءلت في دهشة:

- ما هذا؟

قال ريان:

- لا بضيع النسالى وقتنا، قام بعضنا بإزالة آثار الحريق بينما قام آخرون بإحضار متطلبات المدرسة الجديدة ..

تساءلت مجدداً في ذهول:

- سرفتموها؟

قال:

- نعم، كان علينا سرفتها قبل انتهاء الأجازة الموسمية للمدرسة المتوسطة ..

أخذتُ المصباح من يده وتحركتُ تجاه المقاعد الخشبية، كانت المقاعد ذاتها التي طالما امتلأت بها فصول مدرستي المتوسطة، ثم أزلتُ بيدي الغبار عن سطح إحداها، وابتسمتُ خلسةً حين تذكرتُ حديثي المكتوب بيني وبين نديم على سطح معاقل لها لمدة عام كامل، لكنني حافظتُ على جمود ملامح وجهي، ونظرتُ إلى ريان في حزم شديد، وقلتُ:

- لا نحتاج إليها ..

قال:

- لكن ...

فقاطمته غاضبة:

- إنهم يريدوننا أن نقفل ذلك، أن نعود إلى السرقة مرة أخرى .. سنبنّي مقاعدنا بأنفسنا، أما هذه المقاعد فمَنْ جاء بها سيعيدها إلى المدرسة قبل طلوع الفجر ..

قال:

- والكتب؟

قلتُ:

- والكتب كذلك ..

ثم نظرتُ إلى الطبيب وقلتُ:

- لا يعلم أحدٌ بعد بوجود الطبيب بيننا، إن سمح لي بأن يساعدنا في شراء بعض الكتب من أكشاك كتب جويدا .. لن يمانوا في بيع كتبهم إلى الأغراب، وتابعتُ:

- ما زال لديّ بعض الأموال التي تكفي لذلك ..

وجدنا علامات الترحيب على وجه الطبيب بما قلّته .. فقال ريان:

- حسناً، سنعيدها كذلك ..

ثم اتجه لإحضار الآخرين لنقل المقاعد والكتب مرة أخرى إلى المكان الذي جاءت منه، وانتظرتُ في مكاني حتى عاد ويدأوا في حملها .. قال لي الطبيب هامساً وقتها:

- تغيروا حقاً ..

قلتُ:

- نعم ..

ثم توقفت إحدى الفتيات، وقالت قبل أن تحمل أحد المقاعد الخشبية:

- سيدتي، اسمك منقوشٌ هنا ..

فتوقف الجميع في أماكنهم ونظروا إليّ .. كانت الدماء قد اندفعت إلى وجهي فجعلته أكثر احمراراً، لم أكن أصدق أن تلك الصدفة قد تحدث، وإن جالت برأسي قبلها بدقائق .. واصل الجميع ترهيبهم لي وأنا أتجه إلى الفتاة وأنظر في توتر إلى سطح التخته الخشبية .. كان اسمي لا يزال منقوشاً كما نقشه نديم قبل سنوات طويلة .. ابتسمتُ ابتسامة حزينة، وعضضتُ على شفتي محاولة أن أمالك نفسي وأنا أحس بأطراف أصابعي اسمي المنقوش، ثم حركتُ عيني نحو ريان والطبيب، ففهموا ما يعني ذلك الاسم المنقوش وتلك التخته بالنسبة لي دون أن أنطق بكلمة، وظلّوا يحدقون بي في انتظار ما أقوله، فقلتُ للفتاة:

- أحملها إلى الخارج أيضاً ..

قال ريان:

- يمكنك الاحتفاظ بها ..

قلتُ:

- لا، هيا أيتها الجميلة، احملها مع الأخريات إلى الخارج ..

فحملتها الفتاة، ولازمتُ الصمت بعدها، حتى انتهت الفنية
والفتيات من حمل جميع المقاعد والكتب إلى الخارج، فاقتربتُ من
ريان قبل أن أنادر وقلتُ:

- إن ذهبت معهم، تمحص الشوارع جيدًا، ربما تجد ذلك الطفل
نائمًا بأحد جوانبها ..

مز رأسه موافقني وقال:

- كنتُ سأفعل ذلك ..

ثم غادرتُ إلى مقر إقامتي المؤقت، ومكثتُ بسريري تشابك
الأفكار في ذهني، أحاول أن أجمع ما حدث خلال اليومين السابقين:
زواج التسالي، رؤية الطفل على القوائم الجانبي، مجيء الطبيب في
ذلك التوقيت تحديدًا بعد تسع سنوات كاملة، التختة الخشبية ذاتها
.. ثم نظرتُ إلى السماء المعتلة بالنجوم عبر نافذة الكوخ، وقلتُ في
نفسي:

- أي صدف جمعت كل هذا في وقت واحد؟ .. أي رسائل
تحملينها إلي يا جارتين؟

ولم أكد أغمض عيني حتى انفضتُ من سريري حين سمعتُ صوت
الهارود المتتالي ..



بهضت من سريري، واتجهت مسرعة إلى الخارج .. كانت المصابيح الزيتية تضئ الشارع الرئيسي أمام الحانة، فوجدت ضباط وجنود جارين ينتشرون بأسلحتهم أمام أكواخ النمسالي، يركع أمامهم فتيان وفتيات النمسالي واضعين أيديهم فوق رؤوسهم، بينما يقوم بعض الجنود الآخرين بإخراج باقي النمسالي عنوة من أكواخهم وإحضارهم إلى المكان المتسع أمام الحانة ليصنعوا بهم إطاراً شبه دائري ..

تعجبت حين دفعني أحد الجنود بخلطة لأنضم إلى باقي الراكمين. فركمت على ركبتي، ووضعت يدي فوق رأسي. ثم لمحت جندياً يحضر الطبيب ليجلس مقرضاً على الجانب الآخر من الشارع أمامي .. ثم اضطريت قلوبنا وأجفلت أجسادنا جميعاً حين أطلقت رصاصة مفاجئة أصابت رأس شاب نسلي كان يقاوم أحد الجنود، فسقط صريعاً من رمية واحدة، ومعها ظهر وجه الضابط الذي أطلقها ..

تذكرته. كان نفسه الفتى المميز بالرماية الذي نافسني على منصب رامي المنصة بالمدرسة العليا لضباط الأمن، لم أعد أتذكر اسمه. لكن ملامح وجهه كانت قاسية لدرجة أشعرقتني أنه جاء للقضاء علينا جميعاً ..

انتهى الجنود من إحضار العشرات من النمسالي وضمومهم إلينا، تحركت بعيني خلسة بين الخاضعين منا بحثاً عن ريان فلم أجده، دار بذهني أنه لم يعد من جويدا، وتمنيت ألا يعود إلى الوادي في ذلك الوقت .. لكن دقائق قلبي كادت تتوقف عندما رأيت الجنود يدفعون أحد عشر فتى من فتيان النمسالي مكبلي الأيدي والأرجل بأصفاة حديدية، كانوا هم من رافقوا ريان لإعادة مسروقات المدرسة إلى

جويدا .. ثم أرقدوهم على بطونهم بوسط الدائرة أمامنا. كان بينهم حيدر، لكن ريان لم يكن بينهم أيضًا. تذكرت لحظتها كلمات نسيم حين حدثني قديمًا عن براعته في الهروب هو وأخته. ثم دار الضابط حولهم، وصاح بصوت رصين:

- لا يكفُ النسالي عن ارتكاب الجرائم أبدًا. لظالما أردنا أن نعيش سويًا في سلام، لكن حاملي العار لا يفوتون موعد المنصة مطلقًا ..

ثم ركل قدمه شابًا راقدًا أمامه من الشبان المكبلين، وأطلق إيماءة بذيئة، وقال:

- مدرسة ١٩ .. تسرقون مدرسة جويدا ١٩١ ..

وانهال بمصاه على جسد شاب آخر، أدركت لحظتها أن فخًا مديراً قد نُصب بإحكام لنا، حاولت أن أبعد عيني عنه، لكنني لم أستطع الجلوس دون جراك وأنا أراه يواصل ضربه للشبان أمامه. فنهضت في غير اكتراث بسلاح الجندي الذي يقف خلفي، وتقدمت نحوه وقلت بفيرة حادة:

- لا يحقُ لك أبدًا إيذاءهم إلى هذا الحد ..

توقف عن ضرب أحدهم، وقال ساخرًا وهو ينظر إلي كتمني العادي:

- السيدة غفران، رامي المنصة .. الشخص الوحيد الذي فاقب في الرماية ..

تجاهلتُ ما قاله، وكدتُ أتحدث عن حقوق النسائي كمواطنين مثله
تمامًا، لكنه بادرني وأشار إلى جندي خلفه، فأحضر الجندي شابًا
نسيًا من المعلمين بمدرستي كان ينتظر بداخل إحدى العريات. وأشار
له كي يتحدث، فقال الفتى وهو ينتظر تجاهي:

- إن هذه السيدة من أمرتنا بسرقة المدرسة ..

نظرتُ نحوه في ذهول، وزادت همهمات النسائي من حولنا، وصرخ
الفتيان المكبلين بأنني لم أفعل ذلك، فأطلق الضابط أعيرته بالسما. فقرض صوت الرصاص الصمت على الجميع، فواصل الفتى:

- نعم سيدي .. إنها هي ..

ثم وصل توتري مداء حين رأيتُ أخي زين يظهر لي من وراء
الجنود، لأنظر إلى الضابط في تجهم بعدما لم أفهم ما ينويه، فقال
بصوت عال:

- شهد ثلاثة من النسائي بأنك من دبرت أمر سرقة المدرسة
المتوسطة، وبذلك تم ثبوت جريمتك أمام القاضي .. كان
القاضي رحيماً بك هذه المرة لكونها جريمتك الأولى ..

ثم تحرك نحوي، وأخرج خنجره في غمضة عين، وضرب به كتفي
الأسير لتسيل دماشي بغزارة، فتسارعت أنفاسي، ونظرتُ إلى الطبيب
ووجهي يمتص من الألم، بينما تمسك يدي اليمنى بكتفي لعلها توقف
سبل الدماء، حاول الطبيب أن يتنهض تجاهي، لكن الجندي الواقف
خلفه حال دون ذلك .. ثم تابع الضابط وهو ينتظر إلي:

- لقد أصدر القاضي الكبير قرارًا بسحب صفة الشرف منك.
مع إبقائها لأخيك بعدما تبرأ من قرابتك رسميًا بأوراق دار
القضاء ..

فتظرتُ إلى أخي غير مصدقة، قبل أن يكمل الضابط:

- ثم يعد مسموحًا لك بمغادرة هذا الوادي إلى جويديا إلا للعمل
في بيوت الرذيلة، أو إلى الباحة أيام الغفران إن أردتِ حصد
روح لأطفالك الناتجين عن الرذيلة .. غير ذلك ستُطبق عليك
قواعد جارتين الخاصة بالنسالي.



الفصل الأخير

«فاضل»

لم تصدق أذانتا ما تقوّه به الضابط، وظلّت أعيننا جميعها تراقب في صمت ملامح وجه غفران المصدوم مما يحدث أمامها .. عاد أخوها إلى عربة الضباط، ولم يظهر مرة أخرى .. ثم أمر الضابط جنوده بجبر النسالى المكبلين إلى العربات ليقدّموا إلى المحاكمة .. قبل أن يرحل ويفادر الوادي هو وجنوده.

فأسرعت ركضاً إلى غفران التي كانت تقف أمامنا لا حول لها ولا قوة تنظر إلى الأرض بعينين مكسورتين زائفتين ووجهٍ شاحبٍ من كثرة ما نزفته من الدماء، ثم صحتُ إلى نازدين بأن تحضر لي قطعة فماشية نظيفة، وساندتها حتى دلفْتُ بها إلى الحانة، وهناك بدأتُ أضمد جرح كتفها، لم يكن كبيراً لكنه كان عميقاً بالقدر الذي يُنبأ بشرك ندية واضحة ..

ظَلَّت السيدة صامئة فلم أتحدث بشيء أنا الآخر، حتى انتهيتُ من
تنظيف الجرح وتضميده، فتظرتُ إلى وجهها فرأيتُ دموعها للمرة
الأولى، كان واضعًا لي أنها تحاول أن تتماسك أمامنا بكل طاقتها.
لكنها لم تستطع بالنهاية، فأشرتُ إلى ناردين بأن تفادينا ففعلت.
فقلتُ في هدوء:

- سيصبح كل شيء على ما يرام ..

وتابعتُ:

- لو لم يكن ما فعلته مع النسالي عظيمًا لما تحرك سادة جارتين
لإيقافك إلى هذا الحد، كنتُ تعرفين أنهم سيواصلون عرقلتك
بكافة الطرق ..

ظلت شاردة لا تقول شيئًا .. لم أكن جيدًا قط في المواساة، فلم
أجد مزيدًا من الكلمات لقولها، وجلستُ بجوارها في انتظار أن تنطق
بأي كلمة، لكنها لم تفعل، وظَلَّت تعابير وجهها ثابتة تنظر إلى الفراغ
أمامها ..

حاولت ناردين أن تسقيها شرابًا ساخنًا صنعه فتى الحانة، لكنها
لم تتناول شربة واحدة منه، قبل أن تحوّل عينيها إلى باب الحانة حين
أصدر صريره فجأةً وفُتِح ليظهر أمامنا ريان ويدلف مسرعًا نحوها.

فنهضت من جلستها واحتضنته، لتساقط دموعها من جديد، فقال
وهولاهت بقوة بين ذراعيها:

- لا نحتاج إلى قاضي چارتين لمعرفة ما إن كنت شريفة أم لا
.. لست في حاجة للذهاب إلى جويدا، سيظل الجميع هنا في
خدمتك سيدتي ..

مسحت غفران دموعها وعاودت جلوسها، شمرت أن وجود ريان
أعطاه نوعاً من الطمأنينة، ثم قال الشاب بعدما التقط أنفاسه:

- كان فخاً مُديرًا لنا بدايةً من حريق المدرسة، ثم اقترح أحد
الشبان بسرقة مدرسة جويدا، ثم تجنيهم عليك سيدتي ..
أعرف من هاموا بخيانتنا، أقسم لك بأنني لن أتركهم ينجون
بفعلتهم ..

فالت غفران:

- لن يهتم ضباط چارتين بمصيرهم، لكنهم سيسعدون بتقديم
مزبدٍ منا إلى منصة جويدا، اتركهم وشأنهم ..

ثم قالت:

- هناك أحد عشر شابًا سيُعدمون يوم الثفران القادم، سيشهد
الوادي أياماً صعبة الفترة القادمة ..

سكت ريان، كان وجهه يغلي من الغضب، وساد الصمت من جديد .. فقلت حين طالت فترة الصمت:

- يمكنني أن أذهب غداً لشراء الكتب التي تريدونها ..

فتنظر ثلاثتهم إليّ، فتابعن:

- يتبقى الألواف من النسالي، لديهم الحق في عيشة كريمة كما أخبرتني. هل نتركهم؟ .. لنكمل ما بدأتُه إذا ..

نظرت إليّ أعينهم تتساءل إن كنتُ واعياً بكل حرف نطقتُ به. فابتسمتُ إليهم بأنني مدركٌ تماماً لاستخدامي صيغة الجمع .. نعم. كان ذلك إعلاناً مني بأنني سأبقى في الوادي لأجلٍ لم أحده ..



في الأيام القليلة التالية شرع ريان فيما أخبر به غفران ليلة مجيء الضباط، وبدأ مع غيره من الفتيان في تصنيع الطوب من طمي تل قريب من الوادي. عرفتُ منه أنه ائتمن نفسه الذي يستخدمون طميه في صناعة أوانيهم الفخارية .. كنتُ أتردد عليهم بين حين وآخر، قبل أن أتجول في التلال المجاورة للبحث عن بعض الأعشاب الطبية النابذة التي أحتاجها ..

ثم توجهتُ إلى جويدا في نهاية ذلك الأسبوع من أجل ما كلفنتني به غفران .. كانت المدينة مختلفة للغاية عن باحتها الشهيرة، مبانٍ

ملوية ذات أشكال معمارية متميزة. شوارع نظيفة مُعبدة بالصخور، كثيرٌ من الحانات والدكاكين، حياةٌ ذكرتني كثيراً بعاصمة بلادي القديمة. غير أن المصاييح الكهربائية والسيارات قد استبدلت بمصاييح زيتية وعربات خشبية تجرّها الخيول .. وصلتُ إلى أحد أكشاك الكتب، أخبرتُ صاحبه أنني غريب في حاجة إلى شراء بعض الكتب من أجل العودة بها إلى بلادي، تركني أتفحص رفوف الكتب: أدب، فنون، تاريخ، حضارات ..

وقع بين يدي الكثير من الكتب التي تسيء للنسالي فتذكرتُ كلمات غفران بأن ابتعد بقدر الإمكان عن تلك الفئة، ثم اخترتُ عددًا من الكتب المتنوعة، وعدتُ بها إلى مشارف الوادي حيث كُلف ريان بعض الفتية بمساعدتي على حملها إلى حيثما تقيم السيدة ..

لم تظهر غفران كثيراً للنسالي تلك الأيام، ظلتُ معنكة على قراءة الكثير مما أحضرته لها، بينما انشغل ريان ببناء المدرسة والأكواخ المجاورة .. كنتُ أنتهز الأوقات القصيرة التي أُغَيَّر بها ضمادة جرحها للحديث معها عن أي شيء .. شعرتُ أنها تجاوزت صدمة ما حدث لها بالأيام السابقة غير أن حزنها على الفتية الذين أُعتقلوا كان كبيراً للغاية ..

قبل نهاية ذلك الشهر كان الجرح قد التأم، لكنه ترك ندبة واضحة كما توقعتُ. فسألتني غفران أن أعطيه بضمادة رغم التشامه، وانتهى ريان من بناء الأكواخ وأخبرني أن المدرسة ستواصل عملها.

كما أخبرني بأنه قد بنى لي كوخًا بجوار كوخ السيدة الجديد، وقال متحمسًا بأنه سيسميه كوخ الطبيب، فشكرته كثيرًا على ذلك ..

ليلة يوم الغفران الجديد دلفت إليّ ناردين تخبرني بأن السيدة تحتاجني، ولما ذهبتُ إليها قالت:

- يوم أخبرتني عن آدم كنتُ أنوي الذهاب إلى الباحة كل يوم غفران، لكنني وإن لم أعد أستطيع الذهاب إلى هناك غير باقي النسالي وغيرك، أريدك أن تذهب إلى هناك .. اعتاد نديم قديمًا على تسلُّق أحد قوائم الجهة الغربية للباحة .. رأيتُ باليوم الأخير هناك طفلًا كان يتشبَّه بقمة القائم بالطريقة ذاتها تمامًا، أعتقد أنه آدم .. اذهب إلى هناك لعلك تجده وتأتي به ..

فأومأت برأسي إيجابًا .. ليلتها لم أُنم حتى طلع النهار، واتجهتُ باكراً إلى هناك للتمكن من الوقوف في مكانٍ بالجزء الغربي منها، على مقربة من القائم الجانبي الذي أخبرتني غفران بأن الطفل قد يسقطه مثلما تعود أن يفعل نديم ..

كانت المرة الثانية لي بين أسوار باحة جويدا، بدأت المراسم وعيشتُ مُعلقة على ذلك القائم دون أن أنشغل بشيء آخر، لم يظهر الطفل بالأوقات الأولى من اليوم، فانتظرتُ وبحثتُ بعيني عن قوائم أخرى على جوانب الباحة لعلِّي أكون قد أخطأت تحديد القائم. لكنني لم أجد أي طفلٍ مُشلق، حتى انتهى زواجُ عُقد على المنصة مع منتصف النهار ولم يظهر كذلك ..

ثم بدأت الإعدامات، توقعتُ أن يتم إعدام الفتية الذين أُتهموا بسرقة المدرسة جميعهم أمامنا، لكن ما حدث أن ثلاثة منهم فقط من تم إعدامهم، لم يكن بينهم حيدر، أدركتُ بيني وبين نفسي أن سادة جارتين قد فضّلوا أن يتم إعدام ثلاثة فقط كل يوم غفران ليضمنوا استمرار إثارة مراسمهم على الأقل لمدة أربع أشهر قبل إضافة المزيد إليهم .. لاحظتُ السعادة على وجوه الأشراف المتواجدين بالباحة. وخاصةً بعدما أطلقت ثلاثة زغاريد بأماكن متفرقة بين الزحام، إلى أن انتهت مراسم اليوم. وعدتُ إلى غفران بعدما فقدتُ الأمل في ظهور الطفل كما تمنّيت ..



كانت تجلس بكوخها الجديد بين بضعة فتيات صغيرات تقرأ لهن أحد الكتب، لكنها ما إن رأتني حتى نهضت وأسهرت نحوي، هفتُ لها في خيبة أمل:

- لم يظهر الطفل، مكثتُ هناك حتى غروب الشمس ..

هزّت رأسها في حزن، فتأبعت:

- تم إعدام ثلاثة فقط من الفتيان ..

قالت بنبرة حزينة:

- نعم، عرفتُ ذلك منذ قليل، يريدون ضمان استمرار متعة

الإعدامات لأشهرٍ أخرى ..

قلتُ:

- فكُرتُ في ذلك أيضًا ..

ثم نظرتُ إلى الفتيات الجالسات، وأخبرتُهن بأن ينصرفن إلى بيوتهن، وسألتني بعدما جلسنا أمام كوخها:

- لماذا بقيت في الوادي ولم تغادر؟

قلتُ:

- أرى ما تفعلونه عظيمًا، أردتُ أن أكون جزءًا منه، كما أن الناس هنا في حاجة إليّ، لماذا؟

قالت:

- إنني مندهشة فحسب، توقعتُ أن تغادر بعد شفاء مصابي الحريق والثام جرحي، كنتُ تمتلك عملاً مربحًا بالبلاد التي جئت منها ..

ضحكت وقلتُ:

- أفعل ما يعلية عليّ قلبي، كنتُ أستطيع العودة إلى بلادي يومًا ما، لكنني فضلتُ أن أنقذ آدم على أن أعود، ولم أندم لحظةً على ذلك، كذلك اختار داخلي بكل يقين أن أبقى هنا بينكم .. ربما أرحل بعدما يعود ..

قالت:

- هل تظن أنه سيمود ١٩

ابنسمتُ وقلتُ:

- مما رأيته يحدث أمامي منذ التقيت أمه، ونجاته رغم ما مر به منذ كان جفياً، يجعلني أظن أن أي شيء قد يحدث ..

فسكت ونظرت إلى السماء فسألتها:

- ماذا إن عاد ١٩

نظرت إلي كأنها تفاجئت من السؤال، أو لم تفهم مقصدي ..
فقلتُ:

- ماذا ستفعلين وقتها ١٩

ضمت شفتيها ثم قالت:

- همم .. لا أعلم ..

فضحكتُ، فقالت بوجه باسم:

- اعتذر له ١٩ .. سيظن أنني حمقاء، إنه شخص آخر غير نديم ..
أروي له كل شيء ربما يتذكرني ١٩ .. لن يتذكر .. لا أعلم، أريد
رؤيته فحسب ..

ربما أهتم به كما لو أنجبتُ طفلاً من نديم .. ربما أساعده على
هذا إن لم أصل إليها أنا أولاً ..

ثم قالت وهي تنظر لي:

- سيكون شابًا عندما أبلغ من العمر مائة .. ربما يمتني بي في سنواتي الأخيرة .. صدقتي لا أعرف .. أتمنى أن يعود فحسب ..

قلتُ:

- سأذهب كل شهر للباحة لمراقبة قوائمها الجانبية، سأعود إليك به يومًا ما ..

قالت:

- شكرًا لك ..



استمرت الحياة في وادي النسالي كما كانت قبل قدومي إلى حد كبير. استعادت فتيات النسالي طاقتهن بالعمل بعدما عاد فتيانهم المسافرون إلى الشمال بغيوط ومواد أخرى تموّض ما أحرقت، ويومًا بعد يوم انتظمت أغلب الصناعات التي حكمت لي عنها الفتاة النسالية على السفينة من قبل، كذلك انتظم الكثيرون بمدرسة غفران، وصار الصوت المرتفع للأطفال الفارشين ميقاتي المنتظم كل صباح للاستيقاظ. وفي المساء انتظمت جلسات التسامر بيني وبين غفران وربان لتحدث بشأن كل جديد يحدث ..

مر الشهر الثاني لي بالوادي دون أي حدث كبير، إنني أن ذهبتُ بنهايته إلى باحة جويدا من أجل ما وعدتُ به غفران، لم أجد الطفل

يومها كذلك .. في ذلك اليوم تم إعدام أربعة نسالي كان بينهم حيدر،
لبنها كان حزن غفران على ذلك الشاب بالغاً، سألتني يومها إن كنتُ
قد لحْتُ زوجته «سبيل» بالباحة، فأجبتها ناعياً ذلك، عرفتُ أن سبيل
لم تعد إلى الوادي ذلك اليوم، وانتظرنا لأيام أخرى لم تعد كذلك ..
وكان قصتها هي وحيدر كُتبت نهايتها ذلك اليوم، وإن لم تبدأ إلا قبلها
بشهرين فقط ..

ثم التقينا بعد عدة أيام بالحانة بعدما فقدنا الأمل في عودتها،
وتسرب الخبر إلى سكان الوادي بأنها قد رحلت .. اعتقدت ناردین
بأنها قد تكون غادرت إلى واديهما الأصلي الذي جاءت منه قبل سنوات
للتعلم بمدرسة السيدة غفران، فقالت غفران في حزن:

- لا تمتلك مالاً، أخشى أن تتجه إلى بيوت الرذيلة .. نجح

أشراف چارتین في واد الحلم مبكراً ..

كانت رسالتهم ذلك اليوم حين أتوا أن يثدوا حلم زواج
النسالي. إن لم يكن حيدر بين العائدين بالمقاعد لكانوا قد
جملوا من وشوا بي يشون به حتى يُقدم إلى المحاكمة، وبقي
عروسه أمام أهل الوادي لا حول لها ولا قوة ..

ثم نظرت إلى النسالي على الطاولة الأخرى، وقالت:

- يبدو أن ما حدث للنسالي خلال القرون الكثيرة الماضية كان

مُدبراً بإحكام من أجل إبقاء ذلك الوضع حتى نهاية الدنيا ..
كل شيء يحدث داخل إطار مرسوم بعناية؛ ارتكاب الجرائم،

جهلٌ مُطبق. أطفال غير شرعيين، إعدامات للنسالي، وحصد
أرواح، ترهيبٌ للعامة من التحول إلى هؤلاء المنيوذين .. أمورٌ
جميعها ترضي كل الأطراف تحت أعين سادة جارتين، لكن إن
تخرج عن ذلك الإطار يعلُ صوت البارود للحفاظ على ذلك
النظام الذي خُلِق ..

قلتُ:

- لكن كتب التاريخ تقول أن النسالي ارتكبوا كل شيء سيئ ..

قالت:

- نعم، تقول الكتب ذلك. لكن علينا أن نضع في الاعتبار أن من
لديه السلطة هو من يكتب التاريخ، إنها كلمات مكتوبة، لا
عليك فقط إلا أن ترددها على مسامع الأطفال الذين يدرسون
عامًا بعد عام، لننمو معهم كأنها حقائق لا شك فيها يتوارثونها
جيلًا بعد جيل ..

إنني أعيش هنا منذ تسع سنوات، لم ياذيني نسلي واحد، إنهم
مثل كل البشر بينهم صالحون وبينهم فاسدون ..

ثم نظرت نحو بعض الفتية بركن الحانة، وقالت:

- لكن يبقى لكل إطار تقويه، أتاحت القواعد حرية التعليم
لنسالي حتى سن السادسة عشر بمدارس جارتين من أجل أن
تظهر عدتها، وهم يعلمون أن النسالي سيرفضون ذلك الأمر

خاصةً مع استمرار مضايقات وإهانات الأشراف إليهم. لكنهم لم يرضوا في حساباتهم أن هناك من سيتعلم ويمود إلى الوادي لبيدًا لتعليم غيره، ويصنع أول خدش حقيقي بذلك الإطار ..

أدركت أنها تتحدث عن نديم، فهزرت رأسي موافقًا حديثها. فواصلت:

- فرحوا أنني أصبحت نسليّة، ويجلسون بمقاعدهم ينتظرون خطأي التالي من أجل إعدامي على منصة جويدا كمبرة لأي شريف تسوّّل له نفسه بأن يفعل ما فعلته، وواد أحلام كل نسلي سوّلت له نفسه بأنه سيصبر مختلفًا يومًا ما .. لكنهم نسوا أنني فقدت كل شيء، ولم يبق لي إلا هؤلاء القوم، الذين أحبهم ويحبونني، ولن أسمع بأي خطأ لفقدانهم.

وابتسمت وهي تقول:

- لا يعلمون أنهم صنعوا نسليّة عنيدة ..

ثم نزعَت الضمادة عن كتفها في الوقت الذي بدأ فيه العازفون في عزفهم، لترسم على وجهي الدهشة حين وجدت ندبة جرحها قد توارت بالكامل أسفل وشم أزرق نُقش حديثًا .. وتعمت ناردين في ذهول:

- وشم النسالي»

فقالت غفران:

- لقد قررتُ أن أكون النسالية الأولى التي لا تكف عن نخر جدران ذلك الإطار .. كان النسالي يفتقدون قدوةً منهم، وقد ساعدنا سادة چارتين على تحقيق هذا الأمر ..

إنني أفخر بوجود هذا الوشم على كتفي، لا أخجل منه، وسأواصل ما بدأتُه حتى آخر لحظة من عمري، ومتي شعر النسالي بهذا الفخر، سيواصلون طريقهم معي أكثر مما مضى .. سيسقط منا الكثيرون، لكن هناك صغارًا قادمين سيتشأون على هذا الفخر ..

لم أكن يومًا حاملة عار، وعلى كتفي ذلك الوشم، وكذلك هم .. سينخرون بدورهم ذلك الإطار، عامًا وراء آخر، عقودًا وراء أخرى، بي أو بدوني، اليوم وغدًا وكل يوم، حتى يجدوا مخرجهم بأنفسهم من ذلك الإطار يومًا ما .. وقتها سيكون امتلاء النهر الجاف بالدماء أكثر سهولة من وضع أي إطار حولهم مرة أخرى.



في مكانٍ بعيد:

كانت دوريةً من فرسان ضباط الأمن تتحرك على الطريق عندما وقفت امرأةٌ شابةٌ بجوار عربة خشبية متوقفة على جانب الطريق .. وما إن مرّت الدورية وابتعدت حتى ركبت المرأة عربتها، وصاحت إلى حصانها كي يواصل حركته، ثم نظرت إلى صندوق عربتها، وحركت يدها برفق على غطاء من الخيش يغطي جسدًا ضئيلاً بأسفله، وقالت باسمة:

- إنهض أبها الفتى .. لقد ابتعدوا ..

رفع الطفل الراقد رأسه لينظر إلى الضباط وهم يبتعدون. قبل أن يحرك عينه إلى جدار چارتين العظيم، ويواصل تحديقه به حين قالت المرأة:

- ما زال أمامنا الطريق طويلاً.



نهاية الجزء الأول



الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm